Columbia University
in the City of New York

THE LIBRARIES

Presented by
Mrs. Emma Gottheil in memory of her husband
RICHARD JAMES HORATIO GOTTHEIL
1862 — 1936
A.B., 1881, Columbia, Ph.D., 1886, Leipzig,
Litt.D., 1929, D.H.L., 1933
Professor of Semitic Languages and Rabbinical Literature,
Columbia, 1887-1936

كتاب

أدب الدنيا والدين

تأليف

العالم العلامة الحبر الفهامة الامام الكبير المحقق الشهير أقضى القضاة
ابى الحسن على بن محمد بن حبيب البصري الماوردي
(رحمه الله تعالى)

(قررت نظارة المعارف العمومية استعمال هذا الكتاب)
« بالمدارس الاميرية »

(طبع بنفقة امين هنديه)

(الطبعة الثانية)

بمطبعة هنديه بدرب الجنينة بخيط النوبي بمصر

سنة ١٣١٥ هجرية

COLUMBIA
UNIVERSITY
LIBRARY

فهرست كتاب ادب الدنيا والدين
(لابي الحسن البصري)

صحيفة

٣ خطبة الكتاب

٤ (باب فضل العلم وذم الهوى)

١٢ فصل وأما الهوى فهو عن الخير صادّ الخ

١٦ (باب ادب العلم)

٢٦ فصل واعلم أن للعلوم أوائل تؤدي الى أواخرها

٣٩ فصل وسأذكر طرفا مما يتأدب به المتعلم ويكون عليه العالم

٤٢ فصل فاما ما يجب أن يكون عليه العلماء من الاخلاق الخ

٥١ (باب أدب الدين)

٧٩ (باب أدب الدنيا)

٩١ فصل وأما ما يصلح به حال الانسان فيها

١٠١ فصل وأما المواخاة بالمودة الخ

١١٧ فصل واما البر الخ

١٤٩ (باب ادب النفس)

وهو الخامس من الكتاب — وفيه ستة فصول

١٥٣ الفصل الاوّل في مجانبة الكبر و الاعجاب

١٥٧ الفصل الثانى فى حسن الخلق

١٦٠ الفصل الثالث فى الحياء

١٦٣ الفصل الرابع في الحلم والغضب

١٧٠ الفصل الخامس في الصدق والكذب

١٧٦ الفصل السادس في الحسد والمنافسة

١٨٠ فصل وأما آداب المواضعة والاصلاح — وفيه ثمانية فصول

صحيفة

١٨٠ الفصل الاول فى الكلام والصمت
١٨٨ الفصل الثانى فى الصبر والجزع
١٩٨ الفصل الثالث في المشورة
٢٠٣ الفصل الرابع فى كتمان السر
٢٠٥ الفصل الخامس فى المزاح والضحك
٢٠٨ الفصل السادس في الطيرة والفأل
٢١٠ الفصل السابع فى المروءة
٢٣٢ الفصل الثامن فى آداب منثورة

﴿ تمت الفهرست ﴾

كتاب

ادب الدنيا والدين

تأليف

العالم العلامة الحبر الفهامة الامام الكبير المحقق الشهير أقضى القضاة

ابى الحسن على بن محمد بن حبيب البصري الماوردي

(رحمه الله تعالى)

(قررت نظارة المعارف العمومية استعمال هذا الكتاب)

« بالمدارس الاميرية »

(طبع بنفقة امين هنديه)

(الطبعة الثانية)

بمطبعة هنديه بدرب الجنينه بغيط النوبي بمصر

سنة ١٣١٥ هجرية

Goethe

893.7M44
P3

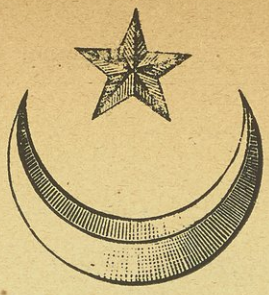

بسم الله الرحمن الرحيم

(قال القاضي ابو الحسن على بن محمد بن حبيب البصري رحمه الله تعالى)

الحمد لله ذي الطَوْل والآلاء وصلى الله على سيدنا محمد خاتم الرسل والانبياء وعلى آله واصحابه الاتقياء (اما بعـد) فان شرف المطلوب بشرف نتائجه وعظم خطره بكثرة منافعه وبحسب منافعه تجب العناية به وعلى قدر العناية به يكون اجتناء ثمرته واعظم الامور خطرا وقدرا واعمها نفعاً ورفدا ما استقام به الدين والدنيا وانتظم به صلاح الآخرة والاولى لان باستقامة الدين تصح العبادة وبصلاح الدنيا تتم السعادة وقد توخيت بهذا الكتاب الاشارة الى آدابهما وتفصيل ما اجمل من احوالهما على اعدل الامرين من ايجاز وبسط أجمع فيـه بين تحقيق الفقهاء وترقيق الادباء فلا ينبو عن فهم ولا يدِق في وهم مستشهدا من كتاب الله جـل اسمه بمـا يقتضيه ومن سنن رسول الله صـلوات الله عليه بما يضاهيه ثم متبعاً ذلك بامثال الحكماء و آداب البلغاء واقوال الشعراء لان القلوب ترتاح الى الفنون المختلفة وتسأم من الفن الواحد وقد قال على بن ابي طالب رضى الله عنه ان القلوب تمل كما تمل الابدان فاهدوا اليها طرائف الحكمة فكان هـذا الاسلوب يحب التنقل في المطلوب من مكان الى مكان وكان المأمون رحمه الله تعالى يتنقل كثيرا في داره من مكان الى مكان وينشد قول ابى العتاهية رحمه الله

لا يصلح النفس اذا كانت مدبرة * الا التنقل من حال الى حال

وجعلت ما تضمنه هذا الكتاب خمسة ابواب (الباب الاوّل) في فضل العقل وذم الهوى (الباب الثاني) في ادب العلم (الباب الثالث) في ادب الدين (الباب الرابع) في ادب الدنيا (الباب الخامس) في ادب النفس وانما استمد من الله تعالى حسن معونته واستودعه حفاظ موهبته بحوله ومشيئته وهو حسبي من معين وحفيظ

باب فضل العقل وذم الهوى

اعلم ان لكل فضيلة اساً ولكل ادب ينبوعا وأس الفضائل وينبوع الآداب هو العقل الذي جعله الله تعالى للدين اصلا وللدنيا عمادا فاوجب الدين بكماله وجعل الدنيا مدبرة باحكامه والف به بين خلقه مع اختلاف هممهم ومآربهم وتباين اغراضهم ومقاصدهم وجعل ما تعبّدهم به قسمين قسما وجب بالعقل فوكده الشرع وقسما جاز في العقل فاوجبه الشرع فكان العقل لهما عمادا. وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ما اكتسب المرء مثل عقل يهدي صاحبه الى هدى اويرده عن ردى. وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال لكل شيء عمل دعامة ودعامة عمل المرء عقله فبقدر عقله تكون عبادته لربه اما سمعتم قول الفجار لو كنا نسمع او نعقل ما كنا في اصحاب السعير. وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه اصل الرجل عقله وحسبه دينه ومروءته خلقه . وقال الحسن البصري رحمه الله ما استودع الله احدا عقلا الا استنقذه به يوما ما . وقال بعض الحكماء العقل افضل مرجوّ والجهل انكى عدوّ وقال بعض الادباء صديق كل امرء عقله وعدوّه جهله . وقال بعض البلغاء خير المواهب العقل وشر المصائب الجهل . وقال بعض الشعراء وهو ابراهيم بن حسان

يزين الفتى في الناس صحة عقله * وان كان محظورا عليه مكاسبه
يشين الفتى في الناس قلة عقله * وان كرمت أعراقه ومناسبه
يعيش الفتى بالعقل في الناس انه * على العقل يجري علمه وتجاربه
وافضل قسم الله للمرء عقله * فليس من الاشياء شيء يقاربه
اذا اكمل الرحمن للمرء عقله * فقد كملت اخلاقه ومآربه

واعلم أن بالعقل تعرف حقائق الامور ويفصل بين الحسنات والسيئات وقد ينقسم قسمين غريزي ومكتسب

فالغريزي هو العقل الحقيقي وله حد يتعلق به التكليف لا يجاوزه الى زيادة ولا يقصر عنه الى نقصان وبه يمتاز الانسان عن سائر الحيوان فاذا تم في الانسان سمي عاقلا وخرج به الى حد الكمال كما قال صالح ابن عبد القدّوس

اذا تم عقل المرء تمت اموره * وتمت امانيه وتم بناؤه

وروى الضحاك في قوله تعالى لينذر من كان حيا اى من كان عاقلا واختلف الناس فيه وفي صفته على مذاهب شتى فقال قوم هو جوهر لطيف يفصل به بين حقائق المعلومات

ومن قال بهذا القول اختلفوا في محله فقالت طائفة منهم محله الدماغ لان الدماغ محل الحس وقالت طائفة أخرى منهم محله القلب لان القلب معدن الحياة ومادة الحواس وهذا القول في العقل بانّه جوهر لطيف فاسد من وجهين احدهما ان الجواهر متماثلة فلا يصح ان يوجب بعضها ما لا يوجب سائرها ولو اوجب سائرها مايوجب بعضها لاستغنى العاقل بوجود نفسه عن وجود عقله والثاني ان الجوهر يصح قيامه بذاته فلو كان العقل جوهرا لجاز ان يكون عقل بغير عاقل كما جاز ان يكون جسم بغير عقل فامتنع بهذين ان يكون العقل جوهرا . وقال آخرون العقل هو المدرك للاشياء على ما هي عليه من حقائق المعنى وهذا القول وان كان اقرب مما قبله فبعيد من الصواب من وجه واحد وهو ان الادراك من صفات الحي والعقل عرض يستحيل ذلك منه كما يستحيل ان يكون متلذذا او آلما او مشتهيا . وقال آخرون من المتكلمين العقل هو جملة علوم ضرورية وهذا الحد غير محصول لما تضمنه من الإجمال ويتناوله من الاحتمال والحد انما هو بيان المحدود بما ينفى عنه الاجمال والاحتمال . وقال آخرون وهو القول الصحيح ان العقل هو العلم بالمدركات الضرورية وذلك نوعان احدهما ما وقع عن درك الحواس والثاني ما كان مبتدأ في النفوس فاما ما كان واقعا عن درك الحواس فمثل المرئيات المدركة بالنظر والاصوات المدركة بالسمع والطعوم المدركة بالذوق والروائح المدركة بالشم والاجسام المدركة باللمس فاذا كان الانسان ممن لو ادرك بحواسه هذه الاشياء لعلم ثبت له هذا النوع من العلم لان خروجه في حال تغميض عينيه من ان يدرك بهما ويعلم لايخرجه من ان يكون كامل العقل من حيث عُلم من حاله انه لو ادرك لعلم واما ما كان مبتدأ في النفوس فكالعلم بان الشيء لا يخلو من وجود او عدم وان الموجود لايخلو من حدوث اوقدم وان من المحال اجتماع الضدين وان الواحد اقل من الاثنين وهذا النوع من العلم لا يجوز ان ينتفى عن العاقل مع سلامة حاله وكمال عقله فاذا صار عالما بالمدركات الضرورية من هذين النوعين فهو كامل العقل وسمي بذلك تشبيها بعقل الناقة لان العقل يمنع الانسان من الاقدام على شهواته اذا قبحت كما يمنع العقل الناقة من الشرود اذا نفرت ولذلك قال عامر بن قيس اذا عقلك عَقَلَك عما لا ينبغي فانت عاقل وقد جاءت السنة بما يؤيد هذا القول في العقل وهو ماروى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال العقل نور في القلب يفرق بين الحق والباطل وكل من نفى ان يكون العقل جوهرا اثبت محله في القلب لان القلب محل العلوم كلها . قال الله تعالى افلم يسيروا في الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بها فدلت هذه الآية على امرين احدهما ان العقل علم والثاني ان محله القلب . وفي قوله تعالى يعقلون بها تأويلان احدهما

يعلمون بها والثاني يعتبرون بها فهذه جملة القول في العقل الغريزي

واما العقل المكتسب فهو نتيجة العقل الغريزى وهو نهاية المعرفة وصحة السياسة واصابة الفكرة وليس لهذا حد لانه ينمو ان استعمل وينقص ان اهمل ونماؤه يكون باحد وجهين اما بكثرة الاستعمال اذا لم يعارضه مانع من هوى ولاصادّ من شهوة كالذي يحصل لذوي الاسنان من الحنكة وصحة الروية بكثرة التجارب وممارسة الامور ولذلك حمدت العرب آراء الشيوخ حتى قال بعضهم المشايخ اشجار الوقار ومنابع الاخبار لا يطيش لهم سهم ولا يسقط لهم وهم ان رأوك في قبيح صدّوك وان ابصروك على جميل امدّوك وقيل عليكم بآراء الشيوخ فانهم ان فقدوا ذكاء الطبع فقد مرت على عيونهم وجوه العبر وتصدّت لاسماعهم آثار الغير . وقيل في منثور الحكم من طال عمره نقصت قوة بدنه وزادت قوّة عقله وقيل فيه لا تدع الايام جاهلا الا ادّبته . وقال بعض الحكماء كفى بالتجارب تأديبا وبتقلب الايام عظة . وقال بعض البلغاء التجربة مرآة العقل والغرة ثمرة الجهل . وقال بعض الادباء كفى مخبرا عما بقي ما مضى وكفى عبرا لأولى الالباب ما جربوا . وقال بعض الشعراء وقال آخر

ألم تر ان العقل زين لاهله * ولكن تمام العقل طول التجارب

اذا طال عمر المرء في غير آفة * افادت له الايام في كرّها عقلا

واما الوجه الثانى فقد يكون بفرط الذكاء وحسن الفطنة وذلك جودة الحدس في زمان غير مهمل للحدس فاذا امتزج بالعقل الغريزي صارت نتيجتهما نموّ العقل المكتسب كالذي يكون في الاحداث من وفور العقل وجودة الرأى حتى قال هرم بن قطبة حين تنافر اليه عامر بن الطفيل وعلقمة بن علاثة عليكم بالحديث السن الحديد الذهن ولعل هرما اراد ان يدفعهما عن نفسه فاعتذر بما قال لكن لم ينكرا قوله اذعانا للحق فصار الى ابى جهل لحداثة سنه وحدّة ذهنه فابى ان يحكم بينهما فرجعا الى هرم فحكم بينهما وفيه قال لبيد

يا هرم ابن الاكرمين منصبا * انك قد أوتيت حكما معجبا

وقد قالت العرب عليكم بمشاورة الشباب فانهم ينتجون رأيا لم ينله طول القدم ولا استولت عليه رطوبة الهرم . وقد قال الشاعر

رأيت العقل لم يكن انتهابا * ولم يقسم على عدد السنينا

ولو ان السنين تقاسمته * حوى الآباء انصبة البنينا

وحكى الاصمعي رحمه الله قال قلت لغلام حدث من اولاد العرب كان يحادثني فامتعض بفصاحة وملاحة أيسرك ان يكون لك مائة الف درهم وانت أحمق قال لا والله قال فقلت ولِمَ

قال اخاف ان يجني علىّ حمقي جناية تذهب بمالى ويبقى علىّ حمقي فانظر الى هذا الصبي كيف استخرج بفرط ذكائه واستنبط بجودة قريحته ما لعله يدق على من هو اكبر منه سنا واكثر تجربة . واحسن من هذا الذكاء والفطنة ماحكى ابن قتيبة ان عمر بن الخطاب رضى الله عنه مر بصبيان يلعبون وفيهم عبدالله بن الزبير فهربوا منه الا عبد الله فقال له عمر رضى الله عنه مالك لم لاتهرب مع اصحابك فقال ياأمير المؤمنين لم اكن على ريبة فاخافك ولم يكن الطريق ضيقا فاوسع لك فانظر ماتضمنه هذا الجواب من الفطنة وقوة المنة وحسن البديهة كيف نفى عنه اللوم واثبت له الحجة فليس للذكاء غاية ولا لجودة القريحة نهاية . وحكى ان سليمان بن عبد الملك امر الفرزدق بضرب اعناق اسارى من الروم فاستعفاه الفرزدق فلم يفعل واعطاه سيفا لايقطع شيئا فقال الفرزدق بل اضربهم بسيف ابى رغوان مجاشع يعني سيف نفسه فقام فضرب به عنق رومي منهم فنبأ السيف عنه فضحك سليمان ومن حوله فقال الفرزدق

أيعجب الناس ان اضحكت سيدهم * خليفة الله يستسقى به المطر
لم ينب سيفي من رعب ولا دهش * عن الاسير ولكن اخر القدر
ولن يقدم نفسا قبل ميتها * جمع اليدين ولا الصمصامة الذكر

ثم غمد سيفه وهو يقول

ما إن يعاب سيد اذا صبا * ولا يعاب صارم اذا نبا * ولا يعاب شاعر اذا كبا

ثم جلس وهو يقول كأنى بابن المراغة قد هجانى فقال

بسيف ابي رغوان سيف مجاشع * ضربت ولم تضرب بسيف ابن ظالم

ثم قام فانصرف وحضر جرير وخبر بالخبر ولم ينشد له الشعر فانشأ يقول

بسيف ابى رغوان سيف مجاشع * ضربت ولم تضرب بسيف ابن ظالم

ثم قال يا امير المؤمنين كأنى بابن القين وقد اجابنى فقال

ولا نقتل الاسرى ولكن نفكهم * اذا أثقل الاعناق حمل المغارم

فاستحسن سليمان حدس الفرزدق على جرير ثم اخبر الفرزدق بشعر جرير ولم يخبر بحدسه فقال الفرزدق

كذاك سيوف الهند تنبو ظباتها * وتقطع احيانا مناط التمائم
ولن نقتل الاسرى ولكن نفكهم * اذا أثقل الاعناق حمل المغارم
وهل ضربة الرومي جاعلة لكم * ابا عن كليب او أخا مثل دارم

فشاع حديث الفرزدق بهذا حتى حكى ان المهدى أتى باسرى من الروم فامر بقتلهم وكان عنده شبيب بن شيبة فقال له اضرب عنق هذا العلج فقال ياامير المؤمنين قد علمت ماابتلى به الفرزدق فعير به قوم الى اليوم فقال انما اردت تشريفك وقد اعفيتك وكان ابو الهول الشاعر حاضرا فقال

جزعت من الرومي وهو مقيَّد * فكيف ولو لاقيته وهو مطلَق
دعاك امير المؤمنين لقتله * فكاد شبيب عند ذلك يفرَق
فخ شبيبا عن قراع كتيبة * وأدن شبيبا من كلام يلفق

وليس العجب من كلام الفرزدق ان صح من جودة القريحتين ولكن من اتفاق الخاطرين ولمثل ذلك قالت الحكماء آية العقل سرعة الفهم وغايته اصابة الوهم وليس لمن مُنح جودة القريحة وسرعة الخاطر عجز عن جواب وان اعضل كما قيل لعلي رضى الله عنه كيف يحاسب الله العباد على كثرة عددهم فقال كما يرزقهم على كثرة عددهم . وقيل لعبد الله بن عباس اين تذهب الارواح اذا فارقت الاجساد فقال اين تذهب نار المصابيح عند فناء الادهان وهذان الجوابان جوابا اسكات تضمنا دليلَيْ اذعان وحجتي قهر . ومن غير هذا الفن وان كان مُسكِتا ماحكى عن ابليس لعنه الله أنه حين ظهر لعيسى بن مريم عليه السلام قال البست تقول انه لن يصيبك الا ما كتبه الله عليك قال نعم قال فارم نفسك من ذروة هذا الجبل فانه ان يقدرلك السلامة تسلم فقال له ياملعون ان لله ان يختبر عباده وليس للعبد ان يختبر ربه ومثل هذا الجواب لايستغرب من انبياء الله تعالى الذين امدهم بوحيه وايدهم بنصره وانما يستغرب ممن يلجأ الى خاطره ويعوّل على بديهته . وروى قثم بن العباس رضى الله عنهما قال قيل لعلي بن ابى طالب رضي الله عنه كم بين السماء والارض قال دعوة مستجابة قيل فكم بين المشرق والمغرب قال مسيرة يوم للشمس فكان هذا السؤال من سائله اما اختبارا واما استبصارا فصدر عنه من الجواب ماسكت . فاما اذا اجتمع هذان الوجهان في العقل المكتسب وهو ماينميه فرط الذكاء بجودة الحدس وصحة القريحة بحسن البديهة مع ما ينميه الاستعمال بطول التجارب ومرور الزمان بكثرة الاختبار فهو العقل الكامل على الاطلاق في الرجل الفاضل الاستحقاق روى انس بن مالك رضى الله عنه قال أُثنِيَ على رجل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم بخير فقال كيف عقله قالوا يا رسول الله ان من عبادته ان من خلقه ان من فضله ان من ادبه فقال كيف عقله قالوا يارسول الله نثنى عليه بالعبادة وأصناف الخير وتسألنا عن عقله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الاحمق العابد يصيب بجهله اعظم من فجور الفاجر

وانما يقرب الناس من ربهم بالزلف على قدر عقولهم . واختلف الناس في العقل المكتسب اذا تناهى وزاد هل يكون فضيلة ام لا فقال قوم لايكون فضيلة لان الفضائل هيئات متوسطة بين فضيلتين ناقصتين كما ان الخير توسط بين رذيلتين فما جاوز التوسط خرج عن حد الفضيلة وقد قالت الحكماء للاسكندر ايها الملك عليك بالاعتدال في كل الامور فان الزيادة عيب والنقصان عجز هذامع ماوردت به السنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال خير الامور اوساطها . وقال علي بن ابي طالب رضى الله عنه خير الامور النمط الاوسط اليه يرجع العالي وبه يلحق التالى . وقال الشاعر

لاتذهبن في الامور فرطا * لاتسألن ان سألت شططا * وكن من الناس جميعا وسطا

قالوا لان زيادة العقل تفضي بصاحبها الى الدهاء والمكر وذلك مذموم وصاحبه ملوم وقد امر عمر بن الخطاب رضى الله عنه ابا موسى الاشعري ان يعزل زيادا عن ولايته فقال زياد ياأمير المؤمنين أعن موجدة اوخيانة فقال لاعن واحدة منهما ولكن خفت أن احمل على الناس فضل عقلك ولاجل هذا المحكي عن عمر ما قيل قديما افراط العقل مضر بالجسد . وقال بعض الحكماء كفاك من عقلك مادلك على سبيل رشدك . وقال بعض البلغاء قليل يكفي خير من كثير يطغى . وقال آخرون وهو اصح القولين زيادة العقل فضيلة لان المكتسب غير محدود وانما تكون زيادة الفضائل المحمودة نقصا مذموما لان ماجاوز الحد لايسمى فضيلة كالشجاع اذا زاد على حد الشجاعة نسب الى التهوّر والسخي اذا زاد على حد السخاء نسب الى التبذير وليس كذلك حال العقل المكتسب لان الزيادة فيه زيادة علم بالامور وحسن اصابة بالظنون ومعرفة مالم يكن الى مايكون وذلك فضيلة لانقص . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال افضل الناس اعقل الناس . وروى عنه صلى الله عليه وسلم انه قال العقل حيث كان مألوف . وقد قيل في تأويل قوله تعالى قل كل يعمل على شاكلته اى بحسب عقله . وقال القاسم بن محمد كانت العرب تقول من لم يكن عقله اغلب خصال الخير عليه كان حتفه في اغلب خصال الخير عليه . وقيل في منثور الحكم كل شيء اذا كثر رخص الا العقل فانه اذا كثر غلا . وقال بعض البلغاء ان العاقل من عقله في ارشاد ومن رأيه في امداد فقوله سديد وفعله حميد والجاهل من جهله في اغواء ومن هواه في اغراء فقوله سقيم وفعله ذميم وانشدني ابن لنكك لابيه

من لم يكن اكثره عقله * اهلكه اكثر مافيه

فاما الدهاء والمكر فهو مذموم لان صاحبه صرف فضل عقله الى الشر ولو صرفه الى الخير لكان محمودا . وقد ذكر المغيرة بن شعبة عمر بن الخطاب فقال كان والله افضل من ان يخدع واعقل من أن يخدع . وقال عمر لست بالخب ولا يخدعني الخب . واختلف الناس فيمن صرف فضل عقله الى الشر كزياد واشباهه من الدهاة هل يسمى الداهية منهم عاقلا ام لا فقال بعضهم اسميه عاقلا لوجود العقل فيه . وقال آخرون لااسميه عاقلا حتى يكون خيرا دَيِّنا لان الخير والدين من موجبات العقل فاما الشرير فلا اسميه عاقلا وانما اسميه صاحب روية وفكر وقد قيل العاقل من عقل عن الله امره ونهيه حتى قال اصحاب الشافعي رضى الله عنه فيمن اوصى بثلث ماله لاعقل الناس انه يكون مصروفا في الزهاد لانهم انقادوا للعقل ولم يغتروا بالامل . وروى لقمان بن ابى عامر عن ابى الدرداء ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ياعويمر ازدد عقلا تزدد من ربك قربا قلت بابى انت وامى ومن لي بالعقل قال اجتنب محارم الله وأدِّ فرائض الله تكن عاقلا ثم تنفل بصالحات الاعمال تزدد في الدنيا عقلا وتزدد من ربك قربا وبه عزا وانشدني بعض اهل الادب هذه الابيات وذكر انها لعلي بن ابي طالب رضى الله عنه

ان المكارم اخلاق مطهرة * فالعقل اولها والدين ثانيها
والعلم ثالثها والحلم رابعها * والجود خامسها والعرف ساديها
والبر سابعها والصبر ثامنها * والشكر تاسعها واللين عاشيها
والنفس تعلم أني لا أصدقها * ولست ارشد الاّ حين اعصيها
والعين تعلم من عيني محدثها * من كان من حزبها اومن اعاديها
عيناك قد دلتا عينيّ منك على * اشياء لولاهما ما كنت تبديها

واعلم ان العقل المكتسب لاينفك عن العقل الغريزي لانه نتيجة منه وقد ينفك العقل الغريزي عن العقل المكتسب فيكون صاحبه مسلوب الفضائل موفور الرذائل كالانوك الذي لاتجد له فضيلة والاحمق الذي قلما يخلو من رذيلة . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال الاحمق كالفخار لايُرقع ولا يُشعب . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال الاحمق ابغض خلق الله اليه اذ حرمه اعز الاشياء عليه . وقال بعض الحكماء الحاجة الى العقل اقبح من الحاجة الى المال . وقال بعض البلغاء دُوَلة الجاهل عبرة العاقل . وقال أنوشِرْوان لبزرجمهر اي الاشياء خير للمرء قال عقل يعيش به قال فان لم يكن قال فاخوان يسترون عيبه قال فان لم يكن قال فمال يتحبب به الى الناس قال فان لم يكن قال فعيّ صامت قال فان لم يكن قال فموت جارف . وقال سابور بن ازدشير العقل نوعان احدهما مطبوع والآخر مسموع

ولا يصلح واحد منهما الا بصاحبه فاخذ ذلك بعض الشعراء فقال

رأيت العقل نوعين * فمسموع ومطبوع
ولا ينفع مسموع * اذا لم يك مطبوع
كما لاتنفع الشمس * وضوء العين ممنوع

وقد وصف بعض الادباء العاقل بما فيه من الفضائل والاحمق بما فيه من الرذائل فقال العاقل اذا والى بذل في المودة نصره واذا عادى رفع عن الظلم قدره فيسعد مواليه بعقله ويعتصم معاديه بعدله ان احسن الى احد ترك المطالبة بالشكر وان اساء اليه مسيء سبب له اسباب العذر او منحه الصفح والعفو والاحمق ضال مضل ان أونس تكبر وان أوحش تكدر وان استنطق تخلف وان ترك تكلف مجالسته مهنه ومعاتبته محنه ومحاورته تعر وموالاته تضر ومقاربته عمى ومقارنته شقا . وكانت ملوك الفرس اذا غضبت على عاقل حبسته مع جاهل والاحمق يسيء الى غيره ويظن انه قد احسن اليه فيطالبه بالشكر ويحسن اليه فيظن انه قد اساء فيطالبه بالوتر فمساوى الاحمق لا تنقضى وعيوبه لا تتناهى ولا يقف النظر منها الى غاية الا لوحت ما وراءها مما هو ادنى منها واردى وأمر وادهى فما اكثر العبر لمن نظر وانفعها لمن اعتبر . وقال الاحنف بن قيس من كل شيء يحفظ الاحمق الا من نفسه وقال بعض البلغاء ان الدنيا ربما اقبلت على الجاهل بالاتفاق وادبرت عن العاقل بالاستحقاق فان اتتك منها سهمة مع جهل او فاتتك منها بغية مع عقل فلا يحملنك ذلك على الرغبة في الجهل والزهد في العقل فدولة الجاهل من الممكنات ودولة العاقل من الواجبات وليس من امكنه شيء من ذاته كمن استوجبه بآلته وادواته وبعد فدولة الجاهل كالغريب الذي يحن الى النُقلة ودولة العاقل كالنسيب الذي يحن الى الوصلة فلا يفرح المرء بحالة جليلة نالها بغير عقل ومنزلة رفيعة حلها بغير فضل فان الجهل ينزله منها ويزيله عنها ويحطه الى رتبته ويرده الى قيمته بعد ان تظهر عيوبه وتكثر ذنوبه ويصير مادحه هاجيا ووليه معاديا . واعلم انه بحسب ما ينشر من فضائل العاقل كذلك يظهر من رذائل الجاهل حتى يصير مثلا في الغابرين وحديثا في الآخرين مع هتكه في عصره وقبح ذكره في دهره كالذي رواه عطاء عن جابر قال كان في بني اسرائيل رجل له حمار فقال يارب لو كان لك حمار لعلفته مع حمارى فهم به نبي من انبياء الله فاوحى الله اليه انما اثيب كل انسان على قدر عقله واستعمل معاوية رجلا من كلب فذكر المجوس يوما عنده فقال لعن الله المجوس ينكحون امهاتهم والله لو اعطيت عشرة آلاف درهم ما نكحت أمي فبلغ ذلك معاوية فقال قبحه الله أترونه لو زادوه فعل وعزله

وولى الربيع العامرى وكان من النوكى سأر اليمامة فاقاد كلبا بكلب فقال فيه الشاعر

شهدت بان الله حق لقاؤه * وان الربيع العامرى رقيع
أقاد لنا كلبا بكلب ولم يدع * دماء كلاب المسلمين تضيع

وليس لمعارّ الجهل غاية ولا لمضارّ الحمق نهاية قال الشاعر

لكل داء دواء يستطب به * الا الحماقة اعيت من يداويها

﴿ فصل ﴾ واما الهوى فهو عن الخير صادّ وللعقل مضادّ لانه ينتج من الاخلاق قبائحها ويظهر من الافعال فضائحها ويجعل ستر المروءة مهتوكا ومدخل الشر مسلوكا . قال عبدالله ابن عباس رضى الله عنهما الهوى اله يُعبَد من دون الله ثم تلا أفرأيت من اتخذ الهه هواه وقال عِكْرِمة في قوله تعالى ولكنكم فتنتم انفسكم يعني بالشهوات وتربصتم يعنى بالتوبة وارتبتم يعني في امر الله وغرتكم الاماني يعني بالتسويف حتى جاء امر الله يعني الموت وغركم بالله الغروريعنى الشيطان . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال طاعة الشهوة داء وعصيانها دواء . وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه اقدعوا هذه النفوس عن شهواتها فانها طلاعة تنزع الى شرغاية ان هذا الحق ثقيل مريّ وان الباطل خفيف وبيّ وترك الخطيئة خير من معالجة التوبة ورب نظرة زرعت شهوة وشهوة ساعة اورثت حزنا طويلا . وقال على ابن ابي طالب رضى الله عنه اخاف عليكم اثنين اتباع الهوى وطول الامل فان اتباع الهوى يصد عن الحق وطول الامل ينسى الآخرة . وقال الشعبي انما سمى الهوى هوى لانه يهوى بصاحبه . وقال اعرابي الهوى هوان ولكن غلط باسمه فاخذه الشاعر وقال

ان الهوان هو الهوى قلب اسمه * فاذا هويت فقد لقيت هوانا

وقيل فى منثور الحكم من اطاع هواه اعطى عدوّه مناه . وقال بعض الحكماء العقل صديق مقطوع والهوى عدوّ متبوع . وقال بعض البلغاء افضل الناس من عصى هواه وافضل منه من رفض دنياه . وقال هشام بن عبد الملك بن مروان

اذا انت لم تعص الهوى قادك الهوى * الى كل ما فيه عليك مقال

قال ابن المعتز رحمه الله لم يقل هشام بن عبد الملك سوى هذا البيت . وقال الشاعر

اذا ما رأيت المرء يقتاده الهوى * فقد ثكلته عند ذاك ثواكله
وقد اشمت الاعداء جهلا بنفسه * وقد وجدت فيه مقالا عواذله
ومايردع النفس اللجوج عن الهوى * من الناس الا حازم الرأى كامله

ولما كان الهوى غالبا والى سبيل المهالك موردا جعل العقل عليه رقيبا مجاهدا يلاحظ عثرة غفلته ويدفع بادرة سطوته ويدفع خداع حيلته لان سلطان الهوى قوي ومدخل مكره خفي ومن هذين الوجهين يؤتى العاقل حتى تنفذ احكام الهوى عليه اعنى باحد الوجهين قوة سلطانه وبالآخرة خفاء مكره فاما الوجه الاول فهو ان يقوى سلطان الهوى بكثرة دواعيه حتى يستولى عليه مغالبة الشهوات فَيَكِلّ العقل عن دفعها ويضعف عن منعها مع وضوح قبحها في العقل المقهور بها وهذا يكون في الاحداث اكثر وعلى الشباب اغلب لقوة شهواتهم وكثرة دواعي الهوى المتسلط عليهم وانهم ربما جعلوا الشباب عذرا لهم كما قال محمد بن بشير

كل يري ان الشباب له * في كل مبلغ لذة عذر

ولذلك قال بعض الحكماء الهوى ملك غشوم ومتسلط ظلوم . وقال بعض الادباء الهوى عسوف والعدل مألوف . وقال بعض الشعراء

يا عاقلا أَرْدَى الهوى عقله * مالك قد سدّت عليك الامور
اتجعل العقل اسير الهوى * وانما العقل عليه امير

وحسم ذلك ان يستعين بالعقل على النفس النفور فيشعرها ما في عواقب الهوى من شدة الضرر وقبح الاثر وكثرة الاجرام وتراكم الآثام . فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات . اخبر ان الطريق الى الجنة احتمال المكاره والطريق الى النار اتباع الشهوات . قال علي بن ابى طالب رضى الله عنه اياكم وتحكيم الشهوات على انفسكم فان عاجلها ذميم وآجلها وخيم فان لم ترها تنقاد بالتحذير والارهاب فسوّفها بالتأميل والارغاب فان الرغبة والرهبة اذا اجتمعا على النفس ذلت لهما وانقادت . وقد قال ابن السماك كن لهواك مسوّفا ولعقلك مسعفا وانظر الى ما تسوء عاقبته فَوَطِّن نفسك على مجانبته فان ترك النفس وماتهوى داؤها وترك ما تهوى دواؤها فاصبر على الدواء كما تخاف من الداء . وقال الشاعر

صبرت على الايام حتى تولت * وألزمت نفسي صبرها فاستمرت
وما النفس الا حيث يجعلها الفتى * فان اطمعت تاقت والا تسلت

فاذا انقادت النفس للعقل بما قد اشعرت من عواقب الهوى لم يلبث الهوى ان يصير بالعقل مدحورا وبالنفس مقهورا ثم له الحظ الاوفى في ثواب الخالق وثناء المخلوقين . قال الله تعالى واما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هي المأوى .

وقال الحسن البصري افضل الجهاد جهاد الهوى . وقال بعض الحكماء اعز العز الامتناع من ملك الهوى . وقال بعض البلغاء خير الناس من اخرج الشهوة من قلبه وعصى هواه في طاعة ربه . وقال بعض الادباء من امات شهوته فقد احيي مروءته . وقالا بعض العلماء ركّب الله الملائكة من عقل بلا شهوة وركب البهائم من شهوة بلا عقل وركب ابن آدم من كليهما فمن غلب عقله على شهوته فهو خير من الملائكة ومن غلبت شهوته على عقله فهو شر من البهائم . وقيل لبعض الحكماء من اشجع الناس واحراهم بالظفر في مجاهدته قال من جاهد الهوى طاعة لربه واحترس في مجاهدته من ورود خواطر الهوى على قلبه . وقال بعض الشعراء

قد يدرك الحازم ذو الرأى المنى * بطاعة الحزم وعصيان الهوى

واما الوجه الثانى فهو ان يخفى الهوى مكره حتى تموّه افعاله على العقل فيتصوّر القبيح حسنا والضرر نفعا وهذا يدعو اليه احدشيئين اما ان يكون للنفس ميل الى ذلك الشيء فيخفى عنها القبيح لحسن ظنها وتتصوّره حسنا لشدة ميلها ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم حبك الشيء يُعْمِى ويُصِمّ اى يعمى عن الرشد ويصم عن الموعظة . وقال علي رضى الله عنه الهوى عمى . قال الشاعر * حسن في كل عين من تود * وقال عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر ابن أبي طالب رضي الله عنه

ولست براء عيب ذي الودّ كله * ولا بعض ما فيه اذا كنت راضيا
فعين الرضا عن كل عيب كليلة * ولكن عين السخط تبدى المساويا

واما السبب الثانى فهو اشتغال الفكر في تمييز ما اشتبه فيطلب الراحة فى اتباع ما استسهل حتى يظن ان ذلك اوفق امر به واحمد حالَيْه اغترارا بان الاسهل محمود والاعسر مذموم فلن يعدم ان يتورّط بخدع الهوى وريبة المكر في كل مخوف حذر ومكروه عسر . ولذلك قال عامر ابن الظرب الهوى يقظان والعقل راقد فمن ثم غلب . وقال سليمان بن وهب الهوى امنع والرأي انفع وقيل في المثل العقل وزير ناصح والهوى وكيل فاضح . وقال الشاعر

اذا المرء اعطى نفسه كلما اشتهت * ولم ينهها تاقت الى كل باطل
وساقت اليه الاثم والعار بالذي * دعته اليه من حلاوة عاجل

وحسم السبب الاول ان يجعل فكر قلبه حكما على نظر عينه فان العين رائد الشهوة والشهوة من دواعى الهوى، والقلب رائد الحق والحق من دواعي العقل . وقال بعض الحكماء نظر الجاهل بعينه وناظره ونظر العاقل بقلبه وخاطره ثم يتهم نفسه في صواب ما احبت

وتحسين ما اشتهت ليتضح له الصواب ويتبين له الحق فان الحق أثقل محملا واصعب مركبا فان اشكل عليه امران اجتنب احبهما اليه وترك اسهلهما عليه فان النفس عن الحق أنفر وللهوى آثر . وقد قال العباس بن عبد المطلب اذا اشتبه عليك امران فدع احبهما اليك وخذ أثقلهما عليك وعلة هذا القول هو ان الثقيل يبطئ النفس عن التسرع اليه فيتضح مع الابطاء وتطاول الزمان صواب مااستعجم وظهور مااستبهم . وقدقال علي بن ابي طالب كرم الله وجهه من تفكر ابصر والمحبوب اسهل شئ تسرع النفس اليه وتعجل بالاقدام عليه فيقصر الزمان عن تصفحه ويفوت استدراكه لتقصير فعله فلا ينفع التصفح بعد العمل ولا الاستبانة بعد الفوت . وقال بعض الحكماء ماكان عنك معرضا فلا تكن له متعرضا . وقال الشاعر

اليس طلاب ماقد فات جهلا * وذكر المرء مالا يستطيع

ولقد وصف بعض البلغاء حال الهوى وما يقارنه من محن الدنيا فقال الهوى مطية الفتنه والدنيا دار المحنه فانزل عن الهوى تسلم واعرض عن الدنيا تغنم ولا يغرنك هواك بطيب الملاهى ولا تفتنك دنياك بحسن العواري فمدة اللهو تنقطع وعارية الدهر ترتجع ويبقى عليك ماترتكبه من المحارم وتكتسبه من المآثم . وقال علي بن عبد الله الجعفري سمعتني امرأة بالطواف وانا انشد

اهوى هوى الدين واللذات تعجبني * فكيف لي بهوى اللذات والدين

فقالت هما ضرتان فذر أيهما شئت وخذ الاخرى فاما فرق مابين الهوى والشهوة مع اجتماعهما في العلة والمعلول واتفاقهما في الدلالة والمدلول فهو ان الهوى مختص بالآراء والاعتقادات والشهوة مختصة بنيل اللذة فصارت الشهوة من نتائج الهوى وهى اخص والهوى أصل هو اعم . ونحن نسأل الله تعالى ان يكفينا دواعى الهوى ويصرف عنا سبل الردى ويجعل التوفيق لنا قائدا والعقل لنا مرشدا . فقد روى ان الله تعالى اوحى الى عيسى عليه السلام عظ نفسك فان اتعظت فعظ الناس والا فاستحي مني . وقال محمد بن كناسة

مامن روى ادبا فلم يعمل به * ويكف عن زيغ الهوى باديب
حتى يكون بما تعلّم عاملا * من صالح فيكون غير معيب
ولقلما تغنى اصابة قائل * افعاله افعال غير مصيب

وقال آخر

ياأيها الرجل المعلم غيره * هلا لنفسك كان ذا التعليم

تصف الدواء لذي السقام وذى الضنى * كما يصح به وانت سقيم
ابدأ بنفسك فانهها عن غيها * فاذا انتهت عنه فانت حكيم
فهناك تعذر ان وعظت ويقتدى * بالقول منك ويقبل التعليم
لاتنه عن خلق وتأتى مثله * عار عليك اذا فعلت عظيم

حكى ابو فروة ان طارقا صاحب شرطة خالد القسرى مرّ بابن شُبْرُمة وطارق في موكبه فقال ابن شبرمة

أراها وان كانت تحب كانها * سحابة صيف عن قريب تقشع

اللهم لى دينى ولهم دنياهم فاستعمل ابن شبرمة بعد ذلك على القضاء فقال له ابنه ابوبكر أتذكر قولك يوم كذا اذا مر بك طارق فى موكبه فقال يابنى انهم يجدون مثل ابيك ولا يجد أبوك مثلهم ان اباك اكل من حلوائهم فحط في اهوائهم اما ترى هذا الدين الفاضل كيف عوجل بالتقريع وقوبل بالتوبيخ من أخص ذويه ولعله من أبرّ بنيه فكيف بنا ونحن اطلق منه عنانا واقلق منه جنانا اذا رمقتنا اعين المتتبعين وتناولتنا ألسن المتعنتين هل نجد غير توفيق الله تعالى ملاذا وسوى عصمته معاذا

باب ادب العلم

اعلم ان العلم اشرف ما رغب فيه الراغب وافضل ماطلب وجدّ فيه الطالب وانفع ما كسبه واقتناه الكاسب لان شرفه يثمر على صاحبه وفضله ينمي على طالبه . قال الله تعالى قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لايعلمون فمنع المساواة بين العالم والجاهل لما قدخص به العالم من فضيلة العلم . وقال تعالى وما يعقلها الا العالمون فنفى ان يكون غير العالم يعقل عنه امرا او يفهم منه زجرا . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال اوحى الى ابراهيم عليه السلام اني عليم احب كل عليم . وروى أبو امامة قال سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن رجلين احدهما عالم والآخر عابد فقال صلى الله عليه وسلم فضل العالم على العابد كفضلي على ادناكم رجلا . وقال علي بن ابي طالب رضى الله عنه الناس ابناء ما يحسنون . وقال مصعب بن الزبير تعلم العلم فان يكن لك مال كان لك جمالا وان لم يكن لك مال كان لك مالا . وقال عبد الملك بن مروان لبنيه يا بني تعلموا العلم فان كنتم سادة فُقْتم وان كنتم وسطا سُدْتم وان كنتم سوقة عِشْتم

وقال بعض الحكماء العلم شرف لا قدر له والادب مال لاخوف عليه . وقال بعض الادباء العلم افضل خلف والعمل به اكمل شرف . وقال بعض البلغاء تعلم العلم فانه يقوّمك ويسدّدك صغيرا ويقدّمك ويسوّدك كبيرا ويصلح زيفك وفاسدك ويرغم عدوّك وحاسدك ويقوّم عِوَجك وميلك ويصحح همتك واملك . وقال علي رضى الله تعالى عنه قيمة كل امرئ مايحسن فاخذه الخليل فنظمه شعرا فقال

لايكون العلي مثل الدنيّ * لا ولا ذو الذكاء مثل الغبيّ
قيمةالمرء قدر مايحسن المر * ء قضاء من الامام عَلِيّ

وليس يجهل فضل العلم الا اهل الجهل لان فضل العلم انما يعرف بالعلم وهذا ابلغ في فضله لان فضله لايعلم الا به فلما عدم الجهال العلم الذي به يتوصلون الى فضل العلم جهلوا فضله واسترذلوا اهله وتوهموا ان ماتميل اليه نفوسهم من الاموال المقتناه والطرف المشتهاه اولى ان يكون اقبالهم عليها واحرى ان يكون اشتغالهم بها . وقد قال ابن المعتز في منثور الحكم العالم يعرف الجاهل لانه كان جاهلا والجاهل لايعرف العالم لانه لم يكن عالما وهذا صحيح ولاجله انصرفوا عن العلم واهله انصراف الزاهدين وانحرفوا عنه وعنهم انحراف المعاندين لان من جهل شيئاعاداه . وانشدني ابن لنكك لابي بكر بن دريد

جهلت فعاديت العلوم واهلها * كذاك يعادي العلم من هوجاهله
ومن كان يهوى ان يرى متصدّرا * ويكره لاادري أصيبت مقاتله

وقيل ليزرجمهر العلم افضل ام المال فقال بل العلم قيل فما بالنا نرى العلماء على ابواب الاغنياء ولا نكاد نرى الاغنياء على ابواب العلماء فقال ذلك لمعرفة العلماء بمنفعة المال وجهل الاغنياء بفضل العلم . وقيل لبعض الحكماء لم لايجتمع العلم والمال فقال لعز الكمال . فانشدت لبعض اهل هذا العصر

وفي الجهل قبل الموت موت لاهله * فاجسامهم قبل القبور قبور
وان امرأ لم يحي بالعلم ميت * فليس له حتى النشور نشور

ووقف بعض المتعلمين بباب عالم ثم نادى تصدقوا علينابما لايتعب ضرساولا يسقم نفسافاخرج له طعاما ونفقه فقال فاقتي الى كلامكم اشد من فاقتي الى طعامكم اني طالب هدى لاسائل ندى فاذن له العالم وافاده عن كل ماسأل عنه فخرج جذلا فرحا وهو يقول علم اوضح لبّساخير من مال اغنى نفسا واعلم ان كل العلوم شريفة ولكل علم منها فضيلة والاحاطة بجميعها محال . قيل لبعض الحكماء من يعرف كل العلوم فقال كل الناس . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم

انه قال من ظن ان للعلم غاية فقد بخسه حقه ووضعه فى غير منزلته التي وصفه الله بها حيث يقول وما أوتيتم من العلم الا قليلا . وقال بعض العلماء لو كنا نطلب العلم لنبلغ غايته كنا قد بدأنا العلم بالنقيصة ولكنا نطلبه لننقص في كل يوم من الجهل ونزداد في كل يوم من العلم . وقال بعض العلماء المتعمق في العلم كالسابح في البحر ليس يرى ارضا ولا يعرف طولا ولا عرضا . وقيل لحماد الراوية أما تشبع من هذه العلوم فقال استفرغنا فيها المجهود فلم نبلغ منها المحدود فنحن كما قال الشاعر . اذا قطعنا علما بدا علم * وانشد الرشيدي عن المهدي بيتين وقال اظنهما له

يا نفس خوضي بحار العلم اوغوصي * فالناس مابين معموم ومخصوص
لا شئ في هذه الدنيا نحيط به * الا احاطة منقوص بمنقوص

واذا لم يكن الى معرفة جميع العلوم سبيل وجب صرف الاهتمام الى معرفة اهمها والعناية باولاها وافضلها وأولى العلوم وافضلها علم الدين لان الناس بمعرفته يرشدون وبجهله يضلون اذ لا يصح اداء عبادة جهل فاعلها صفات ادائها ولم يعلم شروط اجزائها . ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فضل العلم خير من فضل العبادة وانما كان كذلك لان العلم يبعث على فضل العبادة والعبادة مع خلو فاعلها من العلم بها قد لاتكون عبادة فلزم علم الدين كل مكلف . ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم طلب العلم فريضة على كل مسلم وفيه تأويلان احدهما علم ما لا يسع جهله من العبادات والثانى جملة العلم اذا لم يقم بطلبه من فيه كفاية واذا كان علم الدين قد اوجب الله تعالى فرض بعضه على الاعيان وفرض جميعه على الكافة كان أولى مما لم يجب فرضه على الاعيان ولا على الكافة . قال الله تعالى فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون . وروى عبد الله بن عمر ان رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل المسجد فاذا هو بمجلسين احدهما يذكرون الله تعالى والآخر يتفقهون فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم كلا المجلسين على خير واحدهما احب الىّ من صاحبه اما هؤلاء فيسألون الله تعالى ويذكرونه فان شاء اعطاهم وان شاء منعهم واما المجلس الآخر فيتعلمون الفقه ويعلمون الجاهل وانما بعثت معلما وجلس الى اهل الفقه . وروى مروان بن جناح عن يونس بن ميسرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال الخير عادة والشر لجاجة ومن يرد الله به خيرا يفقهه في الدين . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال خيار أمتى علماؤها وخيار علمائها فقهاؤها . وروى معاذ ابن رفاعة عن ابراهيم بن عبد الرحمن العذري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ليحمل

هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال على خلفائي قالوا ومن خلفاؤك قال الذين يحيون سُنّتي ويعلمونها عباد الله . وروى حميد عن انس ان النبي صلى الله عليه وسلم قال التفقّه في الدين حق على كل مسلم الا فتعلّموا وعلّموا وتفقهوا ولا تموتوا جهالا . وروى سليمان ابن يسار عن ابي هريرة ان النبي صلى الله عليه وسلم قال ما عبد الله بشيء افضل من فقه في الدين ولفقيه واحد اشد على الشيطان من الف عابد ولكل شيء عماد وعماد الدين الفقه وربما مال بعض المتهاونين بالدين الى العلوم العقلية ورأى انها احق بالفضيلة وأولى بالتقدمة استثقالا لما تضمنه الدين من التكليف واسترذالا لما جاء به الشرع من التعبد والتوقيف والكلام مع مثل هذا في اصل لايتسع له هذا الفصل ولن ترى ذلك فيمن سلمت فطنته وصحت رويته لان العقل يمنع من ان يكون الناس همَلاً اوسُدًى يعتمدون على آرائهم المختلفة وينقادون لاهوائهم المتشعبة لما تؤول اليه امورهم من الاختلاف والتنازع وتفضي اليه احوالهم من التباين والتقاطع فلم يستغنوا عن دين يتألفون به ويتفقون عليه ثم العقل موجب له اومانع ولو تصوّر هذا المختلّ التصور ان الدين ضرورة في العقل وان العقل في الدين اصل لقصر عن التقصير واذعن للحق ولكن اهمل نفسه فضَلّ واضلّ وقد يتعلق بالدين علوم قد بين الشافعي فضيلة كل واحد منها فقال من تعلم القرآن عظمت قيمته ومن تعلم الفقه نبُل مقداره ومن كتب الحديث قويت حجته ومن تعلم الحساب جزل رأيه ومن تعلم العربية رق طبعه ومن لم يصن نفسه لم ينفعه عمله ولعمري ان صيانة النفس اصل الفضائل لان من اهمل صيانة نفسه ثقةً بما منحه العلم من فضيلته وتوكلا على ما يلزم الناس من صيانته سلبوه فضيلة علمه ووسموه بقبيح تبذله فلم يف ما اعطاه العلم بما سلبه التبذل لان القبيح اتمّ من الجميل والرذيلة اشهرُ من الفضيلة لان الناس لما في طبائعهم من البغضة والحسد ونزاع المنافسة تنصرف عيونهم عن المحاسن الى المساوي فلا ينصفون محسنا ولا يحابون مسيئا لا سيما من كان بالعلم موسوما واليه منسوبا فان زلته لا تقال وهفوته لا تعذر اما لقبح اثرها واغترار كثير من الناس بها . وقد قيل في منثور الحكم ان زلة العالم كالسفينة تغرق ويغرق معها خلق كثير وقيل لعيسى بن مريم عليه السلام من اشد الناس فتنة قال زلة العالم اذا زل زل بزلته عالم كثير فهذا وجه واما لان الجهال بذمه اغرى وعلى تنقيصه احرى ليسلبوه فضيلة التقدم ويمنعوه مباينة التخصيص عنادا لما جهلوه ومقتا لما باينوه لان الجاهل يرى العلم تكلفا ولوما كما ان العالم يرى الجهل تخلفا وذماً . وانشدت عن الربيع للشافعي رضى الله عنه

ومنزلة السفيه من الفقيه * كمنزلة الفقيه من السفيه
فهذا زاهد في قرب هذا * وهذا فيه ازهد منه فيه
اذا غلب الشقاء على سفيه * تقطع في مخالفة الفقيه

وقال يحيى بن خالد لابنه عليك بكل نوع من العلم فخذ منه فان المرء عدوّ ما جهل وانا اكره ان تكون عدوّ شئ من العلم وانشد

تفنن وخذ من كل علم فانما * يفوق امرؤ في كل فن له علم
فانت عدوّ للذي انت جاهل * به ولعلم انت تتقنه سلم

واذا صان ذو العلم نفسه حق صيانتها ولازم فعل ما يلزمها امن تعيير الموالي وتنقيص المعادي وجمع الى فضيلة العلم جميل الصيانة وعز النزاهة فصار بالمنزلة التي يستحقها بفضائله . وروى ابو الدرداء ان النبي صلى الله عليه وسلم قال العلماء ورثة الانبياء لان الانبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما وانما ورثوا العلم . وروى ابو هريرة ان النبي صلى الله عليه وسلم قال للانبياء على العلماء فضل درجتين وللعلماء على الشهداء فضل درجة . وقال بعض البلغاء ان من الشريعة ان يجلّ اهل الشريعة ومن الصنيعة ان ترب حسن الصنيعة فينبغي لمن استدل بفطرته على استحسان الفضائل واستقباح الرذائل ان ينفي عن نفسه رذائل الجهل بفضائل العلم وغفلة الاهمال باستيقاظ المعاناة ويرغب فى العلم رغبة متحقق لفضائله واثق بمنافعه ولا يلهيه عن طلبه كثرة مال وجده ولا نفوذ امر وعلو منزله فان من نفذ امره فهو الى العلم احوج ومن علت منزلته فهو بالعلم احق . وروى انس ابن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ان الحكمة تزيد الشريف شرفا وترفع العبد المملوك حتى تجلسه مجالس الملوك . وقد قال بعض الادباء كل عز لا يوطده علم مذله وكل علم لا يؤيده عقل مضله . وقال بعض علماء السلف اذا اراد الله بالناس خيرا جعل العلم في ملوكهم والملك في علمائهم . وقال بعض البلغاء العلم عصمة الملوك لانه يمنعهم من الظلم ويردّهم الى الحلم ويصدّهم عن الاذيه ويعطفهم على الرعيه فمن حقهم ان يعرفوا حقه ويستبطنوا اهله فاما المال فظل زائل وعارية مسترجعة وليس في كثرته فضيلة ولو كانت فيه فضيلة لخص الله به من اصطفاه لرسالته واجتباه لنبوته وقد كان اكثر انبياء الله تعالى مع ماخصهم الله به من كرامته وفضلهم على سائر خلقه فقراء لا يجدون بُلْغة ولا يقدرون على شيء حتى صاروا في الفقر مثلا . قال البحتري

فقر كفقر الانبياء وغربة * وصبابة ليس البلاء بواحد

ولعدم الفضيلة في المال منحه الله الكافر وحرمه المؤمن . قال الشاعر

كم كافـــر بالله امواله * تزداد اضعافا على كفره
ومؤمن ليس له درهـم * يزداد ايمانا على فقـــره
يا لائم الدهـــر وافعاله * مشتغلا يزري على دهره
الدهـر مأمور له آمر * ينصرف الدهر على أمره

وقد بين علي بن ابي طالب رضى الله عنه فضل مابين العلم والمـال فقال العلم خير من المال العلم يحرسك وأنت تحرس المـال العلم حاكم والمال محكوم عليـه مات خزان الاموال وبقى خزان العلم اعيانهم مفقودة واشخاصهم في القلوب موجودة . وسئل بعض العلمـاء أيمـا افضل المـال أم العلم فقال الجواب عن هذا ايمـا افضل المـال ام العقل . وقال صالح ابن عبد القدوس

لاخير فيمن كان خـير ثنائه * في الناس قولهم غني واجد

وربما امتنع الانسان من طلب العلم لكبر سنه واستحيائه من تقصيره في صغره ان يتعلم في كبره فرضي بالجهل ان يكون موسوما به وآثره على العلم ان يصير مبتدئا به وهذا من خدع الجهل وغرور الكسل لان العلم اذا كان فضيلة فرغبة ذوي الاسنان فيه أولى والابتداء بالفضـيلة فضيلة ولأن يكون شيخا متعلمـا أولى من ان يكون شيخا جاهلا . حكى ان بعض الحكماء رأى شيخا كبيرا يحب النظر في العلم ويستحي فقال له ياهذا أتستحي ان تكون في آخر عمرك أفضل ممـا كنت في أوله . وذكر ان ابراهيم بن المهدي دخل على المأمون وعنده جماعة يتكلمون في الفقه فقال ياعم ماعندك فيما يقول هؤلاء فقال يا أمير المؤمنين شغلونا في الصغر واشتغلنا في الكبر فقال لم لاتتعلمه اليوم قال أو يحسن بمثلي طلب العلم قال نعم والله لان تموت طالبا للعلم خير من ان تعيش قانعا بالجهل قال والى متى يحسن بي طلب العلم قال ماحسنت بك الحياة لان الصغير أعذر وان لم يكن في الجهل عذر لانه لم تطل به مدة التفريط ولا استمرت عليه ايام الاهمال . وقد قيل في منثور الحكم جهل الصغير معذور وعلمه محقور فاما الكبير فالجهل به أقبح ونقصه عليه أفضح لان علو السن اذا لم يكسبه فضـلا ولم يفده علمـا وكانت ايامه في الجهل ماضيه ومن الفضل خاليه كان الصغير افضل منه لان الرجاء له اكثر والامل فيه أظهر وحسـبك نقصا في رجل يكون الصغير المساوي له في الجهل افضل منه . وانشدت لبعض اهل الادب

اذا لم يكن مر السنين مترجما * عن الفضل في الانسان سميته طفلا
وما تنفع الايام حين يَعُدّها * ولم يستفد فيهن علما ولا فضلا
أرى الدهر من سوء التصرف مائلا * الى كل ذي جهل كأن به جهلا

وربما امتنع من طلب العلم لتعذّر المادّة وشغله اكتسابها عن التماس العلم وهذا وان كان اعذر من غيره مع انه قلما يكون ذلك الا عند ذي شره وعيب وشهوة مستعبدة فينبغي ان يصرف الى العلم حظّا من زمانه فليس كل الزمان زمان اكتساب ولابد للمكتسب من اوقات استراحة وايام عُطلة ومن صرف كل نفسه الى الكسب حتى لم يترك لها فراغا الى غيره فهو من عبيد الدنيا واسراء الحرص . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال لكل شيء فترة فمن كانت فترته الى العلم فقد نجا . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال كونوا علماء صالحين فان لم تكونوا علماء صالحين فجالسوا العلماء واسمعوا علما يدلكم على الهدى ويردكم عن الردى . وقال بعض العلماء من احب العلم احاطت به فضائله . وقال بعض الحكماء من صاحب العلماء وقر ومن جالس السفهاء حقر وربما منعه من طلب العلم مايظنه من صعوبته وبعد غايته ويخشى من قلة ذهنه وبعد فطنته وهذا الظن اعتذار ذوى النقص وخيفة اهل العجز لان الاخبار قبل الاختبار جهل والخشية قبل الابتلاء عجز . وقد قال الشاعر

لاتكونن للامور هيوبا * فالى خيبة يصير الهيوب

وقال رجل لابي هريرة رضى الله عنه اريد ان أتعلم العلم وأخاف ان أضيعه فقال كفى بترك العلم اضاعة وليس وان تفاضلت الاذهان وتفاوتت الفِطَن ينبغي لمن قل منها حظّه ان ييأس من نيل القليل وادراك اليسير الذي يخرج به من حد الجهالة الى أدنى مراتب التخصيص فان الماء مع لينه يؤثر في صُمّ الصخور فكيف لايؤثر العلم الزكي في نفس راغب شهي وطالب خلي لاسيما وطالب العلم مُعان . قال النبي صلى الله عليه وسلم ان الملائكة لتضع اجنحتها لطالب العلم رضا بما يطلب وربما منع ذا السفاهة من طلب العلم ان يصور في نفسه حُرّفة اهله وتضايق الامور مع الاشتغال به حتى يسمهم بالادبار ويتوسمهم بالحرمان فان رأى محبرة تطير منها وان رأى كتابا اعرض عنه وان رأى متحليا بالعلم هرب منه كأنه لم يرعالما مقبلا وجاهلا مدبرا ولقد رأيت من هذه الطبقة جماعة ذوى منازل وأحوال كنت أخفى عنهم ما يصحبني من محبرة وكتاب لئلا اكون عندهم مستثقلا وان كان البعد عنهم مؤنسا ومصلحا والقرب منهم موحشا ومفسدا . فقد قال بزرجمهر الجهل في القلب كالنز في الارض

يفسد ما حوله لكن اتبعت فيهم الحديث المروي عن ابي الاشعث عن ابى عثمان عن ثوبان عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال خالطوا الناس بأخلاقهم وخالفوهم في اعمالهم . ولذلك قال بعض البلغاء رب جهل وقيت به علما وسفه حميت به حلما وهذه الطبقة ممن لا يرجى لها صلاح ولا يؤمل لها فلاح لان من اعتقد ان العلم شين وان تركه زين وان للجهل اقبالا مجديا وللعلم ادبارا مكديا كان ضلاله مستحكما ورشاده مستبعدا وكان هو الخامس الهالك الذي قال فيه على بن ابى طالب رضى الله عنه اغد عالما او متعلما او مستمعا اومحبا ولا تكن الخامس فتهلك . وقد رواه خالد الحذاء عن عبد الرحمن بن ابى بكر عن النبى صلى الله عليه وسلم مسندا وليس لمن هذه حاله في العذل نفع ولا في الاصلاح مطمع . وقد قيل لبزرجمهر مالكم لا تعاتبون الجهال فقال انا لا نكلف العمى ان يبصروا ولا الصم ان يسمعوا وهذه الطائفة التي تنفر من العلم هذا النفور وتعاند اهله هذا العناد ترى العقل بهذه المثابة وتنفر من العقلاء هذا النفور وتعتقد ان العاقل محارف وان الاحمق محظوظ وناهيك بضلال من هذا اعتقاده في العقل والعلم هل يكون لخير اهلا او لفضيلة موضعا . وقد قال بعض البلغاء اخبث الناس المساوى بين المحاسن والمساوى وعلة هذا انهم ربما رأوا عاقلا غير محظوظ وعالما غير مرزوق فظنوا ان العلم والعقل هما السبب في قلة حظه ورزقه وقد انصرفت عيونهم عن حرمان اكثر النوكى وادبارا كثر الجهال لان في العقلاء والعلماء قلة وعليهم من فضلهم سمة ولذلك قيل العلماء غرباء لكثرة الجهال فاذا ظهرت سمة فضلهم وصادف ذلك قلة حظ بعضهم تنوهوا بالتميز واشتهروا بالتعيين فصاروا مقصودين باشارة المتعنتين ملحوظين بايماء الشامتين والجهال والحمقى لما كثروا ولم يتخصصوا انصرفت عنهم النفوس فلم يلحظ المحروم منهم بطرف شامت ولا قصد المجدود منهم باشارة عائب فلذلك ظن الجاهل المرزوق ان الفقر والضيق مختصان بالعلم والعقل دون الجهل والحمق ولو فتشت احوال العلماء والعقلاء مع قلتهم لوجدت الاقبال في اكثرهم ولو اختبرت امور الجهال والحمقى مع كثرتهم لوجدت الحرمان في اكثرهم وانما يصير ذو الحال الواسعة منهم ملحوظا مشتهرا لان حظه عجيب واقباله مستغرب كما ان حرمان العاقل العالم غريب واقلاله عجيب ولم تزل الناس على سالف الدهور من ذلك متعجبين وبه معتبرين حتى قيل لبزرجمهر ما اعجب الاشياء فقال نجح الجاهل واكداء العاقل لكن الرزق بالحظ والجد لا بالعلم والعقل حكمة منه تعالى يدل بها على قدرته واجراء الامور على مشيئته . وقد قالت الحكماء لو جرت الاقسام على قدر العقول لم تعش البهائم فنظمه ابو تمام فقال

ينال الفتى من عيشه وهو جاهل * ويكدى الفتى من دهره وهو عالم
ولو كانت الارزاق تجري على الحجى * هلكن إذن من جهلهن البهائم

وقال كعب بن زهير بن ابى سلمى

لو كنت اعجب من شيء لاعجبنى * سعى الفتى وهو مخبوء له القدر
يسعى الفتى لامور ليس يدركها * والنفس واحدة والهم منتشر

على ان العلم والعقل سعادة وإقبال وإن قل معهما المال وضاقت معهما الحال والجهل والحمق حرمان وادبار وان كثر معهما المال واتسعت معهما الحال لان السعادة ليست بكثرة المال فكم من مكثر شقى ومقل سعيد وكيف يكون الجاهل الغني سعيدا والجهل يضعه ام كيف يكون العالم الفقير شقيا والعلم يرفعه . وقد قيل في منثور الحكم كم من ذليل اعزه علمه ومن عزيز اذله جهله . وقال عبد الله بن المعتز الجاهل كروضة على مزبلة . وقال بعض الحكماء كلما حسنت نعمة الجاهل ازداد قبحا . وقال بعض العلماء لبنيه يا بني تعلموا العلم فإن لم تنالوا به من الدنيا حظا فإلأن يذم الزمان لكم احب الىّ من ان يذم الزمان بكم . وقال بعض الادباء من لم يفد بالعلم مالا كسب به جمالا . وانشد بعض اهل الادب لابن طباطبا

حسود مريض القلب يخفي أنينه * ويضحى كئيب البال عندي حزينه
يلوم على أن رحت للعلم طالبا * اجمع من عند الرواة فنونه
فاعرف ابكار الكلام وعونه * وأحفظ مما أستفيد عيونه
ويزعم ان العلم لا يكسب الغنى * ويحسن بالجهل الذميم ظنونه
فيالأمي دعنى أغالى بقيمتي * فقيمة كل الناس ما يحسنونه

وأنا أستعيذ بالله من خدع الجهل المذلة وبوادر الحمق المضلة واسأله السعادة بعقل رادع يستقيم به من زل وعلم نافع يستهدى به من ضل . فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال اذا استرذل الله عبداً حظر عليه العلم فينبغي لمن زهد في العلم ان يكون فيه راغبا ولمن رغب فيه ان يكون له طالبا ولمن طلبه ان يكون منه مستكثرا ولمن استكثر منه ان يكون به عاملا ولا يطلب لتركه احتجاجا ولا للتقصير فيه عذرا . وقد قال الشاعر

فلا تعذراني في الاساءة انه * شرار الرجال من يسيء فيعذر

ولا يسوّف نفسه بالمواعيد الكاذبة ويمنيها بانقطاع الاشغال المتصلة فان لكل وقت شغلا ولكل زمان عذرا . وقال الشاعر

نروح ونغدو لحاجاتنا * وحاجة من عاش لا تنقضى
تموت مع المرء حاجاته * وتبقى له حاجة ما بقى

ويقصد طلب العلم واثقا بتيسير الله قاصدا وجه الله تعالى بنية خالصة وعزيمة صادقة . فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال من تعلم علما لغير الله وأراد به غيرالله فليتبوأ مقعده من النار . وروى أبوهريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال تعلموا العلم قبل أن يرفع ورفعه ذهاب أهله فان احدكم لايدري متى يحتاج اليه او متى يحتاج الى ماعنده وليحذر أن يطلبه لمراء أو رياء فان المماري به مهجور لاينتفع والمرائي به محقور لا يرتفع . وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لا تعلموا العلم لتماروا به السفهاء ولا تعلموا العلم لتجادلوا به العلماء فمن فعل ذلك منكم فالنار مثواه وليس المماري به هو المناظر فيه طالبا للصواب منه ولكنه القاصد لدفع مايرد عليه من فاسد أو صحيح وفيهم جاءت السنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال لايجادل الا منافق أو مرتاب وقال الاوزاعى اذا اراد الله بقوم شرا أعطاهم الجدل ومنعهم العمل . وأنشد الرياشى لمصعب بن عبد الله

أجادل كل معترض ظنين * وأجعل دينه غرضا لديني
وأترك ماعلمت لرأي غيري * وليس الرأى كالعلم اليقين
وما أنا والخصومة وهي لبس * يصرف في الشمال وفي اليمين
فاما ما علمت فقد كفانى * وأما ما جهلت فجنبونى

وقد بين ذلك بعض العلماء فقال لصاحبه لايمنعنك حذر المراء من حسن المناظرة فان المماري هو الذي لايريد أن يتعلم منه احد ولا يرجو ان يتعلم من احد واعلم ان لكل مطلوب باعثا والباعث على المطلوب شيآن رغبة أو رهبة فليكن طالب العلم راغبا راهبا أما الرغبة ففى ثواب الله تعالى لطالبى مرضاته وحافظي مفترضاته وأما الرهبة فمن عقاب الله تعالى لتاركى أوامره ومهملي زواجره فاذا اجتمعت الرغبة والرهبة أدتا الى كنه العلم وحقيقة الزهد لان الرغبة أقوى الباعثين على العلم والرهبة أقوى السببين في الزهد . وقد قالت الحكماء أصل العلم الرغبة وثمرته السعادة وأصل الزهد الرهبة وثمرته العبادة فاذا اقترن الزهد والعلم فقد تمت السعادة وعمت الفضيلة وان افترقا فياويح مفترقين ما أضر افتراقهما وأقبح انفرداها . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال من ازداد في العلم رشدا فلم يزدد في الدنيا زهدا لم يزدد من الله الا بعدا . وقال مالك بن دينار من لم يؤت من العلم مايقمعه فما أوتي منه لاينفعه . وقال بعض الحكماء الفقيه بغير ورع كالسراج يضيء البيت ويحرق نفسه

﴿ فصل ﴾ واعلم ان للعلوم اوائل تؤدّي الى أواخرها ومداخل تفضى الى حقائقها فليبتدئ طالب العلم باوائلها لينتهي الى اواخرها وبمداخلها لتفضي الى حقائقها ولا يطلب الآخر قبل الاوّل ولا الحقيقة قبل المدخل فلا يدرك الآخر ولا يعرف الحقيقة لان البناء على غير أس لايبنى والثمر من غير غرس لايجنى ولذلك اسباب فاسدة ودواع واهية فمنها ان يكون في النفس اغراض تختص بنوع من العلم فيدعوه الغرض الى قصد ذلك النوع ويعدل عن مقدماته كرجل يؤثر القضاء ويتصدى للحكم فيقصد من علم الفقه ادب القاضى ومايتعلق به من الدعوى والبينات او يحب الاتسام بالشهادة فيتعلم كتاب الشهادات لئلا يصير موسوما بجهل مايعانى فاذا ادرك ذلك ظن أنه قد حاز من العلم جمهوره وأدرك منه مشهوره ولم ير مابقى منه الا غامضا طلبه عناء وعويصا استخراجه فناء لقصور همته على ما ادرك وانصرافها عما ترك ولو نصح نفسه لَعَلِمَ ان ماترك أهم مما ادرك لان بعض العلم مرتبط ببعض ولكل باب منه تعلّق بما قبله فلا تقوم الأواخر الا بأوائلها وقد يصح قيام الاوائل بانفسها فيصير طلب الاواخر بترك الاوائل تركا للأوائل والأواخر فاذا ليس يعرى من لوم وان كان تارك الكل أَلْوَمَ ومنها ان يحب الاشتهار بالعلم اما لتكسب او لتجمل فيقصد من العلم مااشتهر من مسائل الجدل وطريق النظر ويتعاطى علم ما اختلف فيه دون مااتفق عليه ليناظر على الخلاف وهو لا يعرف الوفاق ويجادل الخصوم وهو لا يعرف مذهبا مخصوصا ولقد رأيت من هذه الطبقة عددا قد تحققوا بالعلم تحقق المتكلمين واشتهروا به اشتهار المتبحرين اذا اخذوا في مناظرة الخصوم ظهر كلامهم واذا سئلوا عن واضح مذهبهم ضلت افهامهم حتى انهم ليخبطون في الجواب خبط عشواء فلا يظهر لهم صواب ولا يتقرر لهم جواب ثم لايرون ذلك نقصا اذا نمقوا في المجالس كلاما مرصوفا ولفقوا على المخالف حجابا مألوفا وقد جهلوا من المذاهب ما يعلم المبتدى ويتداوله الناشئ فهم دائما في لغط مُضِلّ أو غلط مُذِلّ ورأيت قوما منهم يرون الاشتغال بالمذاهب تكلفا والاستكثار منه تخلفا وحاجّني بعضهم عليه فقال لان علم حافظ المذاهب مستور والعلم المناظر عليه مشهور فقلت فكيف يكون علم حافظ المذاهب مستورا وهو سريع الجواب كثير الصواب فقال لانه ان لم يسئل سكت فلم يعرف والمناظر ان لم يسئل سأل فعرف فقلت اليس اذا سئل الحافظ فاصاب بَانَ فضله قال نعم قلت افليس اذا سئل المناظر فاخطأ بان نقصه وقد قيل عند الامتحان يُكرَم المرء او يهان فامسك عن جوابي لانه ان انكر كابر المعقول ولو اعترف لزمته الحجة والامساك اذعان والسكوت رضى وان ينقاد الى الحق اولى من ان يستفزه الباطل

وهذه طريقة من يقول اعرفوني وهو غير عروف ولا معروف وبعيد ممن لا يعرف العلم ان يعرفه. وقد قال زُهَيْر

ومهما تكن عند امرئ من خليقة * وان خالها تخفى على الناس تُعْلَم

ومن اسباب التقصير ايضا ان يغفل عن التعلم في الصغر ثم يشتغل به في الكبر فيستحي ان يبتدئ بما يبتدئ الصغير ويستنكف ان يساويه الحدث الغرير فيبدأ بأواخر العلوم وأطرافها ويهتم بحواشيها واكنافها ليتقدم على الصغير المبتدي ويساوي الكبير المنتهي وهذا ممن رضي بخداع نفسه وقنع بمداهنة حسه لان معقوله ان احس ومعقول كل ذي حس يشهد بفساد هذا التصوّر وينطق باختلال هذا التخيل لانه شيء لا يقوم في وهم ولجهل مايبتدئ به المتعلم اقبح من جهل ماينتهي اليه العالم . وقد قال الشاعر

تَرَقَّ الى صغير الامر حتى * يُرَقِّيك الصغير الى الكبير

فتعرف بالتفكر في صغير * كبيرا بعد معرفة الصغير

ولهذا المعنى واشباهه كان المتعلم في الصغر احمد . روى مروان بن سالم عن اسمعيل بن ابى الدرداء قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مَثَل الذي يتعلم في صغره كالنقش على الصخر والذي يتعلم فى كبره كالذي يكتب على الماء . وقال علي بن ابي طالب كرم الله وجهه قلب الحدث كالارض الخالية ما القي فيها من شيء قبلته وانما كان كذلك لان الصغير افرغ قلبا واقل شغلا وايسر تبذلا وأكثر تواضعا . وقد قيل في منثور الحكم المتواضع من طُلّاب العلم اكثرهم علما كما ان المكان المنخفض اكثر البقاع ماء فاما ان يكون الصغير اضبط من الكبير اذا عَرِىَ من هذه الموانع واوعى منه اذا خلا من هذه القواطع فلا . حكى ان الاحنف بن قيس سمع رجلا يقول التعليم في الصغر كالنقش على الحجر فقال الاحنف الكبير اكثر عقلا ولكنه اشغل قلبا ولعمري لقد فحص الاحنف عن المعنى ونبه على العلة لان قواطع الكبير كثيرة فمنها ماذكرنا من الاستحياء . وقد قيل في منثور الحكم من رق وجهه رق علمه . وقال الخليل بن احمد يرتع الجهل بين الحياء والكبر في العلم ومنها وفور شهواته وتقسم افكاره . وقال الشاعر

صرف الهوى عن ذي الهوى عزيز * ان الهوى ليس له تمييز

وقال بعض البلغاء ان القلب اذا علق كالرهن اذا غلق ومنها الطوارق المزعجة والهموم المذهلة . وقد قيل في منثور الحكم الهم قيد الحواس . وقال بعض البلغاء من بلغ اشدّه لاقى من العيش أشدّه ومنها كثرة اشتغاله وترادف حالاته حتى انها تستوعب زمانه وتستنفد ايامه فاذا كان ذا رئاسة الهته وان كان ذا معيشة قطعته ولذلك قيل تفقهوا

قبل أن تسودوا . وقال بزرجمهر الشغل مجهده والفراغ مفسده فينبغي لطالب العلم ان لا يني في طلبه وينتهز الفرصة به فربما شح الزمان بما سمح وضن بما منح ويبتدى من العلم باوله ويأتيه من مدخله ولا يتشاغل بطلب مالا يضر جهله فيمنعه ذلك من ادراك مالا يسعه جهله فان لكل علم فصولا مذهله وشذورا مشغله ان صرف اليها نفسه قطعته عما هو اهم منها . وقال ابن عباس رضى الله عنهما العلم اكثر من ان يحصى فخذوا من كل شيء احسنه . وقال المأمون مالم يكن العلم بارعا فبطون الصحف اولى به من قلوب الرجال . وقال بعض الحكماء بترك مالا يعنيك تدرك مايغنيك ولا ينبغي ان يدعوه ذلك الى ترك مااستصعب عليه اشعارا لنفسه أن ذلك من فضول علمه واعذارا لها في ترك الاشتغال به فان ذلك مطية النوكى وعذر المقصرين ومن اخذ من العلم ماتسهل وترك منه ماتعذر كان كالقناص اذا امتنع عليه الصيد تركه فلا يرجع الا خائبا اذ ليس يرى الصيد الا ممتنعا كذلك العلم كله صعب على من جهله سهل على من علمه لان معانيه التى يتوصل اليها مستودعة في كلام مترجم عنها وكل كلام مستعمل فهو يجمع لفظا مسموعا ومعنى مفهوما فاللفظ كلام يعقل بالسمع والمعنى تحت اللفظ يفهم بالقلب . وقد قال بعض الحكماء العلوم مطالعها من ثلاثة اوجه قلب مفكر ولسان معبر وبيان مصوّر فاذا عقل الكلام بسمعه فهم معانيه بقلبه واذا فهم المعاني سقط عنه كلفة استخراجها وبقى عليه معاناة حفظها واستقرارها لان المعانى شوارد تضل بالاغفال والعلوم وحشية تنفر بالارسال فاذا حفظها بعد الفهم انست واذا ذكرها بعد الانس رست وقال بعض العلماء من اكثر المذاكرة بالعلم لم ينس ماعلم واستفاد مالم يعلم . وقال الشاعر

اذا لم يذاكر ذو العلوم بعلمه * ولم يستفد علما نسى ماتعلما

فكم جامع للكتب في كل مذهب * يزيد مع الايام في جمعه عمى

وان لم يفهم معانى ماسمع كشف عن السبب المانع منها ليعلم العلة في تعذر فهمها فان بمعرفة أسباب الاشياء وعللها يصل الى تلافي ما شذ وصلاح مافسد وليس يخلو السبب المانع من ذلك من ثلاثة اقسام اما ان يكون لعلة في الكلام المترجم عنها واما ان يكون لعلة في المعنى المستودع فيها واما ان يكون لعلة في السامع المستخرج فان كان السبب المانع من فهمها لعلة في الكلام المترجم عنها لم يخل ذلك من ثلاثه احوال احدها أن يكون لتقصير اللفظ عن المعنى فيصير تقصير اللفظ عن ذلك المعنى سببا مانعا من فهم ذلك المعنى وهذا يكون من احد وجهين اما من حصر المتكلم وعيه واما من بلادته وقلة فهمه الحال الثاني أن يكون لزيادة اللفظ على المعنى فتصير الزيادة علة مانعة من فهم المقصود منه وهذا قد يكون من أحد وجهين

اما من هذر المتكلم واكثاره واما لسوء ظنه بفهم سامعه والحال الثالث ان يكون لمواضعة يقصدها المتكلم بكلامه فاذا لم يعرفها السامع لم يفهم معانيها واما تقصير اللفظ وزيادته فمن الاسباب الخاصة دون العامة لانك لست تجد ذلك عاما في كل الكلام وانما تجده في بعضه فان عدلت عن الكلام المقصر الى الكلام المستوفى وعن الزائد الى الكافى ارحت نفسك من تكلف ما يكد خاطرك وان اقمت على استخراجه اما لضرورة دعتك اليه عند اعواز غيره او لحمية داخلتك عند تعذر فهمه فانظر في سبب الزيادة والتقصير فان كان التقصير لحصر والزيادة لهذر سهل عليك استخراج المعنى منه لان ماله من الكلام محصول لا يجوز ان يكون المختل منه اكثر من الصحيح وفي الاكثر على الاقل دليل وان كانت زيادة اللفظ على المعنى دليلا لسوء ظن المتكلم بفهم السامع كان استخراجه اسهل وان كان تقصير اللفظ عن المعنى لسوء فهم المتكلم فهو اصعب الامور حالا وابعدها استخراجا لان مالم يفهمه مكلمك فانت من فهمه ابعد الا ان يكون بفرط ذكائك وجودة خاطرك تنبه باشارته على استنباط ما عجز عنه واستخراج ما قصر فيه فتكون فضيلة الاستيفاء لك وحق التقدم له واما المواضعة فضربان عامة وخاصة اما العامة فهي مواضعة العلماء فيما جعلوه القاباً لمعان لا يستغنى المتعلم عنها ولا يقف على معنى كلامهم الابها كما جعل المتكلمون الجواهر والاعراض والاجسام القابا تواضعوها لمعان اتفقوا عليها ولست تجد من العلوم علما يخلو من هذا وهذه المواضعة العامة تسمى عرفا واما الخاصة فمواضعة الواحد يقصد بباطن كلامه غير ظاهره فاذا كانت في الكلام كانت رمزا وان كانت في الشعر كانت لغزا فاما الرمز فلست تجده في علم معنوي ولا كلام لغوى وانما يختص غالبا باحد شيئين اما بمذهب شنيع يخفيه معتقده ويجعل الرمز سببا لتطلع النفوس اليه واحتمال التأويل فيه سببا لدفع التهمة عنه واما لما يدعى اربابه انه علم معوز وان ادراكه بديع معجز كالصنعة التي وضعها اربابها اسما لعلم الكيمياء فرمزوا باوصافه واخفوا معانيه ليوهموا الشبه به والاسف عليه خديعة للعقول الواهية والآراء الفاسدة . وقد قال الشاعر

مُنِعْتُ شيئا فاكثرت الولوع به * اَحَبُّ شيءٍ الى الانسان ما مُنعا

ثم ليكونوا برآء من عُهْدة ما قالوه اذا جربا ولو كان ما تضمن هذين النوعين واشباههما من الرموز معنى صحيحا وعلما مستفادا لخرج من الرمز الخفى الى العلم الجلي فان اغراض الناس مع اختلاف اهوائهم لا تتفق على ستر سليم واخفاء مفيد . وقد قال زهير

الستر دون الفاحشات ولا * يلقاك دون الخير من ستر

وربما استعمل الرمز من الكلام فيما يراد تفخيمه من المعانى وتعظيمه من الالفاظ ليكون احلى فى القلوب موقعا واجل في النفوس موضعا فيصير بالرمز سائرا وفي الصحف مخلدا كالذي حكى عن فيثاغورس فى وصاياه المرموزة انه قال احفظ ميزانك من البذى واوزانك من الصدى يريد بحفظ الميزان من البذى حفظ اللسان من الخنا وحفظ الاوزان من الصدى حفظ العقل من الهوى فصار بهذا الرمز مستحسنا ومدونا ولو قاله باللفظ الصريح والمعنى الصحيح لما سار عنه ولا استحسن منه وعلة ذلك ان المحجوب عن الافهام كالمحجوب عن الابصار فيما يحصل له في النفوس من التعظيم وفي القلوب من التفخيم وما ظهر منها ولم يحتجب هان واسترذل وهذا انما يصح استحلاؤه فيما قل وهو باللفظ الصريح مستقل فاما العلوم المنتشرة التى تتطلع النفوس اليها فقد استغنت بقوة الباعث عليها وشدة الداعي اليها عن الاستدعاء اليها برمز مستحلى ولفظ مستغرب بل ذلك منفر عنها لما في التشاغل باستخراج رموزها من الابطاء عن دركها فهذا حال الرمز واما اللغز فهو تحرى اهل الفراغ وشغل ذوى البطالة ليتنافسوا في تباين قرائحهم ويتفاخروا في سرعة خواطرهم فيستكدوا خواطر قد منحوا صحتها فيما لا يجدي نفعا ولا يفيد علما كاهل الصراع الذين قد صرفوا ما منحوه من صحة اجسامهم الى صراع كدود يصرع عقولهم ويهد اجسامهم ولا يكسبهم حمدا ولا يجدى عليهم نفعا انظر الى قول الشاعر

رجل مات وخلف رجلا * ابن ام ابن ابي أخت ابيه
معه أم بني اولاده * وابا أخت بني عم اخيه

اخبرني عن هذين البيتين وقد روعك صعوبة ما تضمنهما من السؤال اذا استكديت الفكر في استخراجه فعلمت انه اراد ميتا خلف ابا وزوجة وعما ما الذى افادك من العلم ونفى عنك من الجهل الست بعد علمه تجهل ما كنت جاهلا من قبله ولو ان السائل قلب لك السؤال فأخر ما قدّم وقدّم ما أخر لكنت في الجهل به قبل استخراجه كما كنت في الجهل الاوّل وقد كددت نفسك واتعبت خاطرك ثم لا تعدم ان يرد عليك مثل هذا مما تجهله فتكون فيه كما كنت قبله فاصرف تفسك تولى الله رشدك عن علوم النوكى وتكلف البطالين . فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال من حسن اسلام المرء تركه مالا يعنيه . ثم اجعل مامنّ الله به عليك من صحة القريحة وسرعة الخاطر مصروفا الى علم ما يكون انفاق خاطرك فيه مذخورا وكدّ فكرك فيه مشكورا . وقد روى سعيد بن ابى هند عن ابن عباس رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ

ونحن نستعيذ بالله من ان نغبن بفضل نعمته علينا ونجهل نفع احسانه الينا . وقد قيل في منثور الحكم من الفراغ تكون الصبوة . وقال بعض البلغاء من امضى يومه في غير حق قضاه او فرض ادّاه او مجد اثلّه او حمد حصّله او خير اسسه او علم اقتبسه فقد عق يومه وظلم نفسه . وقال بعض الشعراء

لقد هاج الفراغ عليك شغلا * واسباب البلاء من الفراغ

فهذا تعليل مافي الكلام من الاسباب المانعة من فهم معانيه حتى خرج بنا الاستيفاء والكشف الى الاغماض . واما القسم الثانى وهو ان يكون السبب المانع من فهم السامع لعلة في المعنى المستودع فلا يخلو حال المعنى من ثلاثة اقسام اما ان يكون مستقلا بنفسه او يكون مقدمة لغيره او يكون نتيجة من غيره فاما المستقل بنفسه فضربان جلىّ وخفىّ فاما الجلى فهو يسبق الى فهم متصوّره من اول وهلة وليس هو من اقسام ما يشكل على من تصوّره واما الخفي فيحتاج في ادراكه الى زيادة تأمل وفضل معاناة لينجلى عما اخفى وينكشف عما اغمض وباستعمال الفكر فيه يكون الارتياض به وبالارتياض به يسهل منه ما استصعب ويقرب منه ما بعد فان للرياضة جراءة وللدراية تأثيراً واما ماكان مقدمة لغيره فضربان احدهما ان تقوم المقدمة بنفسها وان تعدت الى غيرها فتكون كالمستقل بنفسه في تصوّره وفهمه مستدعيا لنتيجته والثانى ان يكون مفتقرا الى نتيجته فيتعذر فهم المقدمة الا بما يتبعها من النتيجة لانها تكون بعضا وتبعيض المعنى اشكل له وبعضه لا يغنى عن كله واما ما كان نتيجة لغيره فهو لا يدرك الا باوله ولا يتصوّر على حقيقته الا بمقدمته والاشتغال به قبل المقدمة عناء واتعاب الفكر في استنباطه قبل قاعدته اذى فهذا يوضح تعليل مافي المعانى من الاسباب المانعة من فهمها واما القسم الثالث وهو ان يكون السبب المانع لعلة في المستمع فذلك ضربان احدهما من ذاته والثانى من طارئ عليه فاما ماكان من ذاته فيتنوع نوعين احدهما ماكان مانعا من تصوّر المعنى والثانى ماكان مانعا من حفظه بعد تصوره وفهمه فاما ماكان مانعا من تصور المعنى وفهمه فهو البلادة وقلة الفطنة وهو الداء العياء . وقد قال بعض الحكماء اذا فقد العالم الذهن قل على الاضداد احتجاجه وكثر الى الكتب احتياجه وليس لمن بلى به الا الصبر والاقلال لانه على القليل اقدر وبالصبر احرى ان ينال ويظفر . وقد قال بعض الحكماء قدم لحاجتك بعض لجاجتك وليس يقدر على الصبر من هذا حاله الا ان يكون غالب الشهوة بعيد الهمة فيشعر قلبه الصبر لقوة شهوته وجسده احتمال التعب لبعد همته فاذا تلوح له المعنى بمساعدة الشهوة اعقبه ذلك الحاح الآملين ونشاط المدركين

فقل عنده كل كثير وسهل عليه كل عسير . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال لا تنالون ما تحبون الا بالصبر على ما تكرهون ولا تبلغون ماتهوون الا بترك ما تشتهون . وقيل في منثور الحكم اتعب قدمك فان تعب قدّمك . وقال بعض البلغاء اذا اشتد الكلف هانت الكلف . وانشد بعض اهل الادب لعلي بن ابي طالب كرم الله وجهه

لاتعجزن ولا تدخلك مضجرة * فالنجح يهلك بين العجز والضجر

وأما المانع من حفظه بعد تصوّره وفهمه فهو النسيان الحادث عن غفلة التقصير واهمال التوانى فينبغى لمن بلى به ان يستدرك تقصيره بكثرة الدرس ويوقظ غفلته بادامة النظر فقد قيل لايدرك العلم من لايطيل درسه ويكد نفسه وكثرة الدرس كَدُود لايصبر عليه الا من يري العلم مغنما والجهالة مغرما فيحتمل تعب الدرس ليدرك راحة العلم وينفى عنه معرّة الجهل فان نيل العظيم بامر عظيم وعلى قدر الرغبة تكون المطالب وبحسب الراحة يكون التعب وقد قيل طلب الراحة قلة الاستراحة . وقال بعض الحكماء أكمل الراحة ماكانت عن كد التعب واعز العلم ما كان عن ذل الطلب وربما استثقل المتعلم الدرس والحفظ واتكل بعد فهم المعاني على الرجوع الى الكتب والمطالعة فيهاعند الحاجة فلا يكون الا كمن أطلق ماصاده ثقةً بالقدرة عليه بعد الامتناع منه فلا تعقبه الثقة الا خجلا والتفريط الا ندما وهذه حال قد يدعو اليها احد ثلاثة اشياء اما الضجر من معاناة الحفظ ومراعاته وطول الامل في التوفر عليه عند نشاطه وفساد الرأى فى عزيمته وليس يعلم ان الضجور خائب وان الطويل الامل مغرور وان الفاسد الرأى مصاب والعرب تقول في امثالها حرف في قلبك خير من الف في كتبك وقالوا لاخير في علم لا يعبر معك الوادى ولا يعمر بك النادي وانشدت عن الربيع للشافعي رضى الله عنه

علمي معي حيثما يممت ينفعني * قلبي وعاء له لا بطن صندوق
ان كنت في البيت كان العلم فيه معي * اوكنت في السوق كان العلم في السوق

وربما اعتنى المتعلم بالحفظ من غير تصور ولا فهم حتى يصير حافظا لالفاظ المعاني فيما بتلاوتها وهو لايتصورها ولا يفهم ماتضمنها يروى بغير روية ويخبر عن غير خبرة فهو كالكتاب الذي لا يدفع شبهة ولا يؤيد حجة . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال همة السفهاء الرواية وهمة العلماء الرعاية . وقال ابن مسعود رضى الله عنه كونوا للعلم رعاة ولا تكونوا له رواة فقد يرعوى من لا يروى ويروى من لا يرعوى . وحدث الحسن البصري بحديث فقال له رجل يا أبا سعيد عمن قال ما تصنع بعمن أما انت فقد نالتك عظته وقامت عليك حجته

وربما اعتمد على حفظه وتصوّره وأغفل تقييد العلم في كتبه ثقة بما استقر في ذهنه وهذا خطأ منه لان الشك معترض والنسيان طارق. وقد روى أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال قيدوا العلم بالكتاب. وروى ان رجلا شكى الى النبي صلى الله عليه وسلم النسيان فقال له استعمل يدك اي اكتب حتى ترجع اذا نسيت الى ما كتبت . وقال الخليل بن احمد اجعل ما في الكتب رأس المال وما في القلب النفقة. وقال مهبود لولا ما عقدته الكتب من تجارب الاوّلين لانحلّ مع النسيان عقود الآخرين. وقال بعض البلغاء ان هذه الآداب نوافر تند عن عقل الاذهان فاجعلوا الكتب عنها حماة والاقلام لها رعاة واما الطوارئ فنوعان أحدهما شبهة تعترض المعنى فتمنع عن نفس تصوّره وتدفع عن ادراك حقيقته فينبغي أن يزيل تلك الشبهة عن نفسه بالسؤال والنظر ليصل الى تصوّر المعنى وادراك حقيقته . ولذلك قال بعض العلماء لا تخلى قلبك من المذاكرة فتعودَ عقيما ولا تعف طبعك من المناظرة فيعود سقيما . وقال بشار بن برد

شفاء العمى طول السؤال وانما * دوام العمى طول السكوت على الجهل
فكن سائلا عما عناك فانما * دعيت اخا عقل لتبحث بالعقل

والثاني افكار تعارض الخاطر فيذهل عن تصوّر المعنى وهذا سبب قل ما يعرى منه احد لا سيما فيمن انبسطت آماله واتسعت امانيه وقد يقل فيمن لم يكن له في غير العلم ارب ولا فيما سواه همة فان طرأت على الانسان لم يقدر على مكابرة نفسه على الفهم وغلبة قلبه على التصوّر لان القلب مع الاكراه اشد نفورا وابعد قبولا وقد جاء الاثر بان القلب اذا اكره عمى ولكن يعمل في دفع ما طرأ عليه من هم مذهل او فكر قاطع ليستجيب له القلب مطيعا وقد قال الشاعر

وليس يُغْنِي في المودة شافع * اذا لم يكن بين الضلوع شفيع

وقال بعض الحكماء ان لهذه القلوب تنافرا كتنافر الوحش فتألفوها بالاقتصاد في التعليم والتوسط في التقديم لتحسن طاعتها ويدوم نشاطها فهذا تعليل ما في المستمع من الاسباب المانعة من فهم المعاني . وها هنا قسم رابع يمنع من معرفة الكلام وفهم معانيه ولكنه قد يعرى من بعض الكلام فلذلك لم يدخل في جملة أقسامه ولم نستجز الاخلال بذكره لان من الكلام ما كان مسموعا لا يحتاج في فهمه الى تأمل الخط به والمانع من فهمه هو على ماذكرنا من أقسامه ومنه ما كان مستودعا بالخط محفوظا بالكتابة مأخوذا بالاستخراج فكان الخط حافظا له ومعبرا عنه. وقد روى عن ابن عباس رضى الله عنهما في قوله تعالى او اثارة من علم

قال يعني الخط . وروى عن مجاهد في قوله تعالى يؤتي الحكمة من يشاء يعني الخط ومن يؤتى الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا يعنى الخط والعرب تقول الخط احد اللسانين وحسنه احد الفصاحتين . وقال جعفر بن يحيى الخط سمط الحكمة به يفصل شذورها وينظم منثورها . وقال ابن المقفع اللسان مقصور على القريب الحاضر والقلم على الشاهد والغائب وهو للغابر الكائن مثله للقائم الدائم . وقال حكيم الروم الخط هندسة روحانية وان ظهرت بآلة جسمانية . وقال حكيم العرب الخط اصل في الروح وان ظهر بحواس الجسد . واختلف في اول من كتب الخط فذكر كعب الاحبار ان اول من كتب آدم عليه السلام كتب سائر الكتب قبل موته بثلاثمائة سنة في طين ثم طبخه فلما غرقت الارض في ايام نوح على نبينا وعليه السلام بقيت الكتابة فاصاب كل قوم كتابهم وبقى الكتاب العربى الى ان خص الله تعالى به اسماعيل فاصابه وتعلمها . وحكى ابن قتيبة ان اول من كتب ادريس على نبينا وعليه السلام وكانت العرب تعظم قدر الخط وتعده من اجلّ نافع حتى قال عِكْرِمة بلغ فداء اهل بدر اربعة آلاف حتى ان الرجل ليفادي على انه يعلم الخط لما هو مستقر في نفوسهم من عظم خطره وجلالة قدره وظهور نفعه واثره . وقد قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم اقرأ وربك الاكرم الذي علم بالقلم فوصف نفسه بالكرم وعد ذلك من نعمه العظام ومن آياته الجسام حتى اقسم به في كتابه فقال سبحانه وتعالى ن والقلم وما يسطرون فاقسم بالقلم وما يخط بالقلم واختلف في اول من كتب بالعربية . فذكر كعب الاحبار ان اول من كتب به آدم عليه السلام ثم وجدها بعد الطوفان اسماعيل على نبينا وعليه السلام . وحكى ابن عباس رضي الله عنه ان اول من كتب بها ووضعها اسماعيل عليه السلام على لفظه ومنطقه . وحكى عروة بن الزبير رضي الله عنه ان اول من كتب بها قوم من الاوائل اسماؤهم ابجد وهوز وحطى وكلمن وسعفص وقرشت وكانوا ملوك مَدْيَنَ . وحكى ابن قتيبة في المعارف ان اول من كتب بالعربي مرامر ابن مُرّة من اهل الانبار ومن الانبار انتشرت . وحكى المدائني ان اول من كتب بها مرامر ابن مرة واسلم ابن سدرة وعامر بن حدرة فمرامر وضع الصور واسلم فصل ووصل وعامر وضع الاعجام ولما كان الخط بهذا الحال وجب على من اراد حفظ العلم ان يعبأ بامرين احدهما تقويم الحروف على اشكالها الموضوعة لها والثانى ضبط ما اشتبه منها بالنُّقَطِ والاشكال المميزة لها ثم ما زاد على هذين من تحسين الخط وملاحة نظمه فانما هو زيادة حذق بصنعته وليس بشرط في صحته . وقد قال علي بن عُبَيْدة حسن الخط لسان اليد وبهجة الضمير وقال ابو العباس المُبَرِّد رداءة الخط زمانة الادب . وقال عبد الحميد البيان في اللسان

والخط في البنان . وانشدني بعض اهل العلم لاحد شعراء البصرة

اعذر اخاك على نذالة خطه * واغفر نذالته لجودة ضبطه
فاذا ابان عن المعاني لم يكن * تحسينه الا زيادة شرطه
واعلم بان الخط ليس يراد من * تركيبه الا تبين سمطه

ومحل مازاد على الخط المفهوم من تصحيح الحروف وحسن الصورة محل مازاد على الكلام المفهوم من فصاحة الالفاظ وصحة الاعراب ولذلك قالت العرب حسن الخط احد الفصاحتين وكما انه لايعذر من اراد التقدم في الكلام ان يطرح الفصاحة والاعراب وان فهم وافهم كذلك لايعذر من اراد التقدم في الخط ان يطرح تصحيح الحروف وتحسين الصورة وان فهم وافهم وربما تقدم بالخط من كان الخط من اجل فضائله واشرف خصائله حتى صار عالما مشهورا وسيدا مذكورا غير ان العلماء اطرحوا صرف الهمة الى تحسين الخط لانه يشغلهم عن العلم ويقطعهم عن التوفر عليه ولذلك تجد خطوط العلماء في الاغلب رديئة لايخط الا من اسعده القضاء . وقد قال الفضل بن سهل من سعادة المرء ان يكون رديء الخط لان الزمان الذي يفنيه بالكتابة يشغله بالحفظ والنظر وليست رداءة الخط هي السعادة وانما السعادة ان لايكون له صارف على العلم وعادة ذي الخط الحسن ان يتشاغل بتحسين خطه عن العلم فمن هذا الوجه صار برداءة خطه سعيدا وان لم تكن رداءة الخط سعادة واذا كان ذلك كذلك فقد يعرض للخط اسباب تمنع من قراءته ومعرفته كما يعرض للكلام اسباب تمنع من فهمه وصحته والاسباب المانعة من قراءة الخط وفهم ماتضمنه قد تكون من ثمانية اوجه (الوجه الاول) اسقاطه الفاظا من أثناء الكلام يصير الباقي بها مبتورا لايعرف استخراجه ولا يفهم معناه وهذا يكون اما من سهو الكاتب او من فساد نقله وهذا يسهل استنباطه على من كان مرتاضا بذلك النوع فيستدل بحواشي الكلام وما سلم منه على ماسقط او فسد لاسيما اذا قل لان الكلمة تستدعي ما يليها ومعرفة المعنى توضح عن الكلام المترجم عنه فاما من كان قليل الارتياض بذلك النوع فانه يصعب عليه استنباط المعنى منه لاسيما اذا كان كثيرا لانه يحتاج في فهم المعاني الى الفكرة والروية فيما قد استخرجه بالكتابة فاذا هو لم يعرف تمام الكلام المترجم عن المعنى قصر فهمه عن ادراكه وضل فكره من استنباطه (والوجه الثاني) زيادة الفاظ في أثناء الكلام يشكل بها معرفة الصحيح غير الزائد من معرفة السقيم الزائد فيصير الكل مشكلا وهذا لايكاد يوجد كثيرا الا ان يقصد الكاتب تعمية كلامه فيدخل في اثنائه مايمنع من فهمه فيصير ذلك رمزا يعرف بالمواضعة فاما وقوعه سهوا فقد يكون بالكلمة والكلمتين وذلك لايمنع من فهمه على المرتاض وغيره

(والوجه الثالث) اسقاط حروف من أثناء الكلمة يمنع من استخراجها على الصحة وقد يكون هذا تارة من السهو فيقل وتارة من ضعف الهجاء فيكثر والقول فيه كالقول في الوجه الاول (والوجه الرابع) زيادة حروف في أثناء الكلمة يشكل بها معرفة الصحيح من حروفها وهذا يكون تارة من سهو الكاتب فيقل فلا يمنع من استخراج الصحيح ويكون تارة لتعمية ومواضعة يقصد بها الكاتب اخفاء غرضه فيكثر كالتراجم ويكون القول فيه كالقول في الوجه الثاني (والوجه الخامس) وصل الحروف المفصولة وفصل الحروف الموصولة فيدعو ذلك الى الاشكال لان الكلمة ينبه عليها وصل حروفها ويمنع فصلها من مشاركة غيرها فان كان ذلك من سهو قل فسهل استخراجه وان كان ذلك من قلة معرفة بالخط او مَشْقا تسبق به اليد كثيرا فصعب استخراجه الا على المرتاض به . ولذلك قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه شر الكتابة المشق كما ان شر القراءة الهذرمة وان كان للتعمية والرمز لا يعرف الا بالمواضعة (والوجه السادس) تغيير الحروف عن اشكالها وابدالها باغيارها حتى يكتب الحاء على شكل الباء والصاد على شكل الراء وهذا يكون في رموز التراجم ولا يوقف عليه الا بالمواضعة الا لمن قد زاد فيه الذكاء فقدر على استخراج المعنى (والوجه السابع) ضعف الخط عن تقويم الحروف على الاشكال الصحيحة واثباتها على الاوصاف الحقيقية حتى لاتكاد الحروف تمتاز عن اغيارها حتى تصير العين الموصولة كالفاء والمفصولة كالحاء وهذا يكون من رداءة الخط وضعف اليد واستخراج ذلك ممكن بفضل المعاناة وشدة التأمل وربما اضجر قارئه واوهى معانيه . ولذلك قيل ان الخط الحسن لَيزيد الحق وضوحا (والوجه الثامن) اغفال النُقَط والاشكال التى تميز بها الحروف المشتبهة وهذا ايسر امرا واخف حالا لان من كان متميزا بصحة الاستخراج ومعرفة الخط لم تخف عليه معرفة الخط وفهم ما تضمنه مع اغفال النقط والاشكال بل استقبح الكُتّاب ذلك في المكاتبات ورأوه من تقصير الكاتب او سوء ظنه بفهم المكاتب وكان استقباحهم له فى مكاتبة الرؤساء اكثر . حكى قدامة بن جعفر ان بعض كتاب الدواوين حاسب عاملا فشكى العامل منه الى عبيد الله بن سليمان وكتب رقعة يذكر فيها احتجاجا لصحة دعواه ووضوح شكواه فوقع فيها عبيد الله بن سليمان هذا هذا فاخذها العامل وقرأها فظن ان عبيد الله اراد بهذا هذا اثباتا لصحة دعواه وصدق قوله كما يقال فى اثبات الشيء هو هو فحمل الرقعة الى كاتب الديوان واراه خط عبيد الله وقال له ان عبيد الله قد صدق قولي وصحح ماذكرت فخفى على الكاتب ذلك واطيف به على كتاب الدواوين فلم يقفوا على مراد عبيد الله ورد اليه ليسأل عن مراده به فشدد عبيد الله الكلمة الثانية

وكتب تحتها والله المستعان استعظاما منه لتقصيرهم في استخراج مراده حتى احتاج الى ابانته بالشكل فهذه حال الكتاب في استقباحهم إعجام المكاتبات بالنقط والاشكال فاما غير المكاتبات من سائر العلوم فلم يروه قبيحا بل استحسنوه لا سيما في كتب الادب التي يقصد بها معرفة صيغة الالفاظ وكيفية مخارجها مثل كتب النحو واللغة والشعر الغريب فان الحاجة الى ضبطها بالشكل والإعجام اكثر وهي فيما سواه من المعلوم ايسر وقد قال الثوري الخطوط المعجمة كالبرود المعلّمة . وقال بعض البلغاء اعجام الخط يمنع من استعجامه وشكله يؤمن من إشكاله . وقال بعض الادباءرب علم لم تعجم فصوله فاستعجم محصوله وكما استقبح الكتاب الشكل والاعجام في المكاتبات وان كان في كتب العلوم مستحسنا فكذلك استحسنوا مشق الخط في المكاتبات وان كان في كتب العلوم مستقبحا وسبب ذلك انهم لفرط ادلالهم في الصنعة وتقدمهم في الكتابة يكتفون بالاشارة ويقتصرون على التلويح ويرون الحاجة الى استيفاء شروط الابانة تقصيرا ولفضل ما يعتقدونه من التقدم بهذا الحال رأوا ما نبه عليه من سواد المداد اثرا جميلا وعلى الفضل والتخصيص دليلا . حكى ان عبيد الله بن سليمان رأى على بعض ثيابه اثر صفرة فاخذ من مداد الدواة فطلاه به ثم قال المداد بنا احسن من الزعفران وأنشد

انما الزعفران عطر العذارى * ومداد الدوى عطر الرجال

فهذه جملة كافية في الابانة عن الاسباب المانعة من فهم الكلام ومعرفة معانيه لفظا كان اوخطا والله ولي التوفيق فينبغي لطالب العلم ان يكشف عن الاسباب المانعة من فهم المعنى ليسهل عليه الوصول اليه ثم يكون من بعد ذلك سائسا لنفسه مدبرا لها في حال تعلمه فان للنفس نفورا يفضي الى تقصير ووفورا يؤل الى سرف وقيادها عسر ولها احوال ثلاث فحال عدل وانصاف وحال غلو واسراف وحال تقصير واجحاف فاما حال العدل والانصاف فهي ان تختلف قوى النفس من جهتين متقابلتين طاعة مسعدة وشفقة كافة فطاعتها تمنع التقصير وشفقتها تردّ عن السرف والتبذر وهذه احمد الاحوال لان ما منع من التقصير نماء وما صد عن السرف مستديم والنمو اذا استدام فاخلق به ان يستكمل . وقال بعض الحكماء اياك ومفارقة الاعتدال فان المسرف مثل المقصر في الخروج عن الحد واما حال الغلو والاسراف فهي ان تختص النفس بقوى الطاعة وتعدم قوى الشفقة فيبعثها اختصاص الطاعة على افراغ الجهد ويفضيها افراغ الجهد الى عجز الكلال فيؤديها عجز الكلال الى الترك والاهمال فتصير الزيادة نقصانا والربح خسرانا . وقد قالت الحكماء طالب العلم وعامل البر كآكل الطعام ان اخذ منه قوتا عصمه وان اسرف فيه ابشمه وربما كان فيه مَنِيّته كأخذ الادوية التي فيها شفاء

ومجاوزة القصد فيها السم المميت واما حال التقصير والاجحاف فهي ان تختص النفس بقوى الشفقة وتعدم قوى الطاعة فيدعوها الاشفاق الى المعصية وتمنعها المعصية من الاجابة فلا تطلب شاردا ولا تقبل عائدا ولا تحفظ مستودعا ومن لم يطلب الشارد ويقبل العائد ويحفظ المستودع فقد الموجود ولم يجد المفقود ومن فقد ما وجد فهو مصاب محزون ومن لم يجد ما فقدفهوخائب مغبون . وقدقال بعض الحكماء العجزمع الوانى والفوت مع التوانى وقد يكون للنفس مع الاحوال الثلاث حالتان مشتركتان بغلبة احدى القوتين فيكون للنفس طاعة واشفاق واحداهما اغلب من الاخرى فان كانت الطاعة اغلب كانت الى الوفور اميل وان كان الاشفاق اغلب كانت الى التقصير اقرب فاذاعرف من نفسه قدر طاعتها وخبر منها كنه اشفاقها راض نفسه لتثبت على احمد حالاتها وقد اشار الى ما وصفنا من حال النفس الفرزدق في قوله

لكل امرء نفسان نفس كريمة * وأخرى يعاصيها الفتى ويطيعها
ونفسك من نفسيك تشفع للندى * اذا قل من احرارهنّ شفيعها

وان اهمل سياستها فاغفل رياضتها ورام ان يأخذها بالعنف ويقهرها بالعسف استشاطت نافرة ولجت معاندة فلم تنقد الى طاعة ولم تنكفّ عن معصية . وقال سابق البربري

اذا زجرت لجوجا زدته علقا * ولجت النفس منه في تماديها
فمُدّ عليه اذا ما نفسه جمحت * باللين منك فان اللين يثنيها

فاذا استصعب عليه قياد نفسه ودام منه نفور قلبه مع سياستها ومعاناة رياضتها تركها ترك راحه ثم عاودها بعد الاستراحه فان اجابتها تسرع وطاعتها ترجع . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ان القلب يموت ويحيي ولو بعد حين . وقال ابن مسعود للقلوب شهوة واقبال وفترة وادبار فأتوها من قبل شهوتها ولا تأتوها من قبل فترتها . وقال الشاعر

وما سمي الانسان الا لانسه * ولا القلب الا انه يتقلب

فاما الشروط التي يتوفر بها علم الطالب وينتهى معها كمال الراغب مع ما يلاحظ به من التوفيق ويمد به من المعونة فتسعة شروط (الاول) العقل الذي يدرك به حقائق الامور (والثاني) الفطنة التي يتصور بها غوامض العلوم (والثالث) الذكاء الذي يستقر به حفظ ما تصوره وفهم ما علمه (والرابع) الشهوة التي يدوم بها الطلب ولا يسرع اليه الملل (والخامس) الاكتفاء بمادة تغنيه عن كلف الطلب (والسادس) الفراغ الذي يكون معه التوفر ويحصل به الاستكثار (والسابع) عدم القواطع المذهلة من هموم وامراض (والثامن) طول العمر واتساع المدة

لينتهي بالاستكثار الى مراتب الكمال (والتاسع) الظفر بعالم سمح بعلمه متأن في تعليمه فاذا استكمل هذه الشروط التسعة فهو اسعد طالب وانجح متعلم . وقد قال الاسكندر يحتاج طالب العلم الى اربع مدة وجدة وقريحة وشهوة وتمامها في الخامسة معلم ناصح

﴿ فصل ﴾ وسأذكر طرفا مما يتأدب به المتعلم ويكون عليه العالم اعلم ان للمتعلم تملقاً وتذللا فان استعملهما غنم وان تركهما حرم لان التملق للعالم يظهر مكنون علمه والتذلل له سبب لادامة صبره وباظهار مكنونه تكون الفائدة وباستدامة صبره يكون الاكثار . وقد روى معاذ عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ليس من اخلاق المؤمن الملق الا في طلب العلم . وقال عبد الله بن عباس رضى الله عنهما ذللت طالباً فعززت مطلوبا . وقال بعض الحكماء من لم يحتمل ذل التعلم ساعة بقي في ذل الجهل ابدا . وقال بعض حكماء الفرس اذا قعدت وانت صغير حيث تحب قعدت وانت كبير حيث لا تحب ثم ليعرف له فضل علمه وليشكر له جميل فعله . فقد روت عائشة رضى الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال من وقّر عالماً فقد وقر ربه وقال علي بن ابي طالب رضى الله عنه لا يعرف فضل اهل العلم الا اهل الفضل . وقال بعض الشعراء

ان المعلم والطبيب كلاهما * لا ينصحان اذا هما لم يُكرما
فاصبر لدائك ان اهنت طبيبه * واصبر لجهلك ان جفوت معلماً

ولا يمنعه علو منزلته ان كانت له وان كان العالم خاملا فان العلماء بعلمهم قد استحقوا التعظيم لا بالقدرة والمال . وانشدني بعض اهل الادب لابي بكر بن دريد

لا تحقرن عالما وان خلقت * اثوابه في عيون رامقه
وانظر اليه بعين ذي ادب * مهذب الرأى في طرائقه
فالمسك بينا تراه ممتهنا * بفهر عطاره وساحقه
حتى تراه في عارضَيْ ملك * وموضع التاج من مَفارقه

وليكن مقتديا بهم في اخلاقهم متشبها بهم في جميع افعالهم ليصير لها آلفاً وعليها ناشئا ولما خالفها مجانبا . فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم خيار شبانكم المتشبهون بشيوخكم وشرار شيوخكم المتشبهون بشبانكم . وروى ابن عمر رضي الله عنهما ان النبي صلى الله عليه وسلم قال من تشبه بقوم فهو منهم . وانشدني بعض اهل الادب لابى بكر بن دريد

العالم العاقل ابن نفسه * اغناه جنس علمه عن جنسه
كن ابنَ من شئت وكن مؤدبا * فانما المرء بفضل كَيْسه
وليس من تكرمه لغيره * مثل الذي تكرمه لنفسه

وليحذر المتعلم البسط على من يعلمه وان آنسه والادلال عليه وان تقدمت صحبته . قيل لبعض الحكماء من اذل الناس فقال عالم يجري عليه حكم جاهل وكلمت رسول الله صلى الله عليه وسلم جارية من السبي فقال لها من انت فقالت بنت الرجل الجواد حاتم فقال صلى الله عليه وسلم ارحموا عزيز قوم ذل ارحموا غنيا افتقر ارحموا عالما ضاع بين الجهال . ولا يظهر له الاستكفاء منه والاستغناء عنه فان في ذلك كفرا لنعمته واستخفافا بحقه وربما وجد بعض المتعلمين قوة في نفسه لجودة ذكائه وحدة خاطره فقصد من يعلمه بالاعنات له والاعتراض عليه ازدراء به وتبكيتا له فيكون كمن تقدم فيه المثل السائر لابي البطحاء

اعلمه الرماية كل يوم * فلما اشتد ساعده رماني

وهذه من مصائب العلماء وانعكاس حظوظهم ان يصيروا عند من يعلمونه مستجهلين وعند من قدموه مسترذلين . وقال صالح بن عبد القدوس

وان عناء ان تعلم جاهلا * فيحسب جهلا أنه منك اعلم
متى يبلغ البنيان يوما تمامه * اذا كنت تبنيه وغيرك يهدم
متى ينتهي عن سيء من أتى به * اذا لم يكن منه عليه تندم

وقد رجّح كثير من الحكماء حق العالم على حق الوالد حتى قال بعضهم

يافاخرا للسفاه بالسلف * وتاركا للعلاء والشرف
آباء اجسادنا هم سبب * لان جعلنا عرائض التلف
من علم الناس كان خير أب * ذاك ابو الروح لا أبو النطف

ولا ينبغي ان يبعثه معرفة الحق له على قبول الشبهة منه ولا يدعوه ترك الاعنات له على التقليد فيما اخذ عنه فانه ربما غالى بعض الاتباع فى عالمهم حتى يروا ان قوله دليل وان لم يستدل وان اعتقاده حجة وان لم يحتج فيفضى بهم الامر الى التسليم له فيما اخذ منه فلا يبعد ان تبطل تلك المقالة ان انفردت او يخرج اهلها من عداد العلماء فيما شاركت لانه قد لا يرى لهم من يأخذ عنهم ماكانوا يرونه لمن اخذوا عنه فيطالبهم بما قصروا فيه فيضعفوا عن ابانته ويعجزوا عن نصرته فيذهبوا ضائعين ويصيروا عجزة مضعوفين ولقد رأيت من هذه الطبقة رجلا يناظر في مجلس حفل وقد استدل عليه الخصم بدلالة صحيحة فكان جوابه عنها أن قال إنّ هذه دلالة فاسدة وجه فسادها ان شيخي لم يذكرها ومالم يذكره الشيخ لاخير فيه فامسك عنه المستدل تعجبا ولان شيخه كان محتشما وقد حضرت طائفة يرون فيه مثل مارأى هذا الجاهل ثم اقبل المستدل علىّ وقال لى والله لقد افحمني بجهله وصار سائر الناس المبرئين من هذه الجهالة

ما بين مستهزء ومتعجب ومستعيذ بالله من جهل مغرب فهل رأيت كذلك عالما اوغل في الجهل وادل على قلة العقل واذا كان المتعلم معتدل الرأى فيمن يأخذ عنه متوسط الاعتقاد فيمن يتعلم منه حتى لايحمله الاعنات على اعتراض المبكتين ولا يبعثه الغلو على تسليم المقلدين برئ المتعلم من المذمتين وسلم العالم من الجهتين وليس كثرة السؤال فيما التبس اعناتا ولا قبول ما صح في النفس تقليدا . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال العلم خزائن ومفتاحه السؤال فاسألوا رحمكم الله فانما يؤجر في العلم ثلاثة القائل والمستمع والآخذ . وقال عليه الصلاة والسلام هلا سألوا اذا لم يعلموا فانما شفاء العيّ السؤال فامر بالسؤال وحث عليه ونهى آخرين عن السؤال وزجر عنه فقال صلى الله عليه وسلم انهاكم عن قيل وقال وكثرة السؤال واضاعة المال . وقال عليه الصلاة والسلام اياكم وكثرة السؤال فانما اهلك من قبلكم بكثرة السؤال وليس هذا مخالفا للاول وانما أمر بالسؤال من قصد به علم ما جهل ونهى عنه من قصد به اعنات ما سمع واذا كان السؤال في موضعه ازال الشكوك ونفى الشبهة . وقد قيل لابن عباس رضى الله عنهما بم نلت هذا العلم قال بلسان سؤول وقلب عقول . وروى نافع عن ابن عمر رضى الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال حسن السؤال نصف العلم . وانشد المبرد عن ابي سليمان الغنوي

فسل الفقيه تكن فقيها مثله * لاخير في علم بغير تدبر
واذا تعسرت الامور فارجها * وعليك بالامر الذي لم يعسر

وليأخذ المتعلم حظه ممن وجد طلبته عنده من نبيه وخامل ولا يطلب الصيت وحسن الذكر باتباع اهل المنازل من العلماء اذا كان النفع بغيرهم اعم الا ان يستوي النفعان فيكون الاخذ عمن اشتهر ذكره وارتفع قدره أولى لان الانتساب اليه اجمل والاخذ عنه اشهر . وقد قال الشاعر

اذا أنت لم يشهرك علمك لم تجد * لعالمك مخلوقا من الناس يقبله
وان صانك العلم الذي قد حملته * اتاك له من يجتنيه ويحمله

واذا قرب منك العلم فلا تطلب مابعد واذا سهل من وجه فلا تطلب ما صعب واذا حمدت من خبرته فلا تطلب من لم تختبره فان العدول عن القريب الى البعيد عناء وترك الاسهل بالاصعب بلاء والانتقال من المخبور الى غيره خطر . وقد قال علي بن ابي طالب رضى الله عنه عقبى الاخرق مضره والمتعسف لاتدوم له مسره . وقال بعض الحكماء القصد اسهل من التعسف والكف اودع من التكلف وربما تتبع نفس الانسان من بعد عنه استهانة بمن قرب منه وطلب ماصعب احتقارا لما سهل عليه وانتقل الى من لم يخبره مللا لمن خبره فلا يدرك

محبوبا ولا يظفر بطائل . وقد قالت العرب في امثالها العالم كالكعبة يأتيها البعداء ويزهد فيها القرباء وانشدني بعض شيوخنا لمسيح بن حاتم

لا ترى عالما يحل بقوم * فيحلوه غير دار الهوان
قلما توجد السلامة والصحة مجموعتين في انسان
فاذا حلتا مكانا سحيقا * فهما في النفوس معشوقتان
هذه مكة المنيعة بيت الله يسعى لحجها الثقلان
ويرى ازهد البرية في الحج لها اهلها لقرب المكان

﴿ فصل ﴾ فاما مايجب أن يكون عليه العلماء من الاخلاق التي بهم أليق ولهم ألزم فالتواضع ومجانبة العُجْب لان التواضع عطوف والعجب منفر وهو بكل احد قبيح وبالعلماء أقبح لان الناس بهم يقتدون وكثيرا مايداخلهم الاعجاب لتوحدهم بفضيلة العلم ولو انهم نظروا حق النظر وعملوا بموجب العلم لكان التواضع بهم أولى ومجانبة العجب بهم أحرى لان العجب نقص ينافي الفضل لا سيما مع قول النبي صلى الله عليه وسلم ان العجب ليأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب فلا يفي ماأدركوه من فضيلة العلم بمالحقهم من نقص العجب . وقد روى عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قليل العلم خير من كثير العبادة وكفى بالمرء علما اذا عبد الله عزوجل وكفى بالمرء جهلا اذا أعجب برأيه . وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه تعلموا العلم وتعلموا للعلم السكينة والحلم وتواضعوا لمن تعلمون وليتواضع لكم من تعلمونه ولا تكونوا من جبابرة العلماء فلا يقوم علمكم بجهلكم . وقال بعض السلف من تكبر بعلمه وترفع وضعه الله به ومن تواضع بعلمه رفعه به وعلة اعجابهم انصراف نظرهم الى كثرة من دونهم من الجهال وانصراف نظرهم عمن فوقهم من العلماء فانه ليس متناهٍ في العلم الا وسيجد من هو اعلم منه اذ العلم اكثر من ان يحيط به بشر . قال الله تعالى نرفع درجات من نشاء يعنى في العلم وفوق كل ذى علم عليم . قال اهل التأويل فوق كل ذي علم من هو اعلم منه حتى ينتهي ذلك الى الله تعالى . وقيل لبعض الحكماء من يعرف كل العلم قال كل الناس . وقال الشعبي مارأيت مثلى وما اشاء ان ألقى رجلا اعلم منى الا لقيته لم يذكر الشعبي هذا القول تفضيلا لنفسه فيستقبح منه وانما ذكره تعظيما للعلم عن ان يحاط به فينبغي لمن علم ان ينظر الى نفسه بتقصير ماقصر فيه ليسلم من عجب مادرك منه . وقد قيل في منثور الحكم اذا علمت فلا تفكر فى كثرة مَن دونك مِن الجهال ولكن انظر الى من فوقك من العلماء وانشدت لابن العميد

من شاء عيشا هنيئا يستفيد به * في دينه ثم في دنياه اقبالا
فلينظرنّ الى من فوقه أدبا * ولينظرنّ الى من دونه مالا

وقلما تجد بالعلم مُعْجبا بما ادرك مفتخرا الا من كان فيه مقلاّ ومقصرا لانه قد يجهل قدره ويحسب انه نال بالدخول فيه أكثره فاما من كان فيه متوجها ومنه مستكثرا فهو يعلم من بُعْد غايته والعجز عن ادراك نهايته ما يصده عن العجب به . وقد قال الشعبي العلم ثلاثة أشبار فمن نال منه شبرا شمخ بانفه وظن انه ناله ومن نال الشبر الثاني صغرت اليه نفسه وعلم انه لم ينله واما الشبر الثالث فهيهات لا يناله أحد ابدا ومما انذرك به من حالى انني صنفت في البيوع كتابا جمعت فيه ما استطعت من كتب الناس وأجهدت فيه نفسي وكددت فيه خاطري حتى اذا تهذب واستكمل وكدت أعجب به وتصورت انني اشد الناس اضطلاعا بعلمه حضرنى وانا في مجلسى اعرابيان فسألاني عن بيع عقداه في البادية على شروط تضمنت اربع مسائل لم اعرف لواحدة منهن جوابا فاطرقت مفكرا وبحالى وحالهما معتبرا فقالا ما عندك فيما سألناك جواب وانت زعيم هذه الجماعة فقلت لا فقالا واهالك وانصرفا ثم اتيا من تتقدمه في العلم كثير من اصحابي فسألاه فاجابهما مسرعا بما اقنعهما وانصرفا عنه راضين بجوابه حامدين لعلمه فبقيت مرتبكا وبحالهما وحالى معتبرا واني لعلى ما كنت عليه من المسائل الى وقتي فكان ذلك زاجر نصيحة ونذير عظة تذلل بها قياد النفس وانخفض لها جناح العجب توفيقا منحه ورشدا اوتيته وحق على من ترك العجب بما يُحْسِن ان يدع التكلف لما لا يحسن فقديما نهى الناس عنهما واستعاذوا بالله منهما ومن أوضح ذلك بيانا استعاذة الجاحظ في كتاب البيان حيث يقول اللهم انا نعوذ بك من فتنة القول كما نعوذ بك من فتنة العمل ونعوذ بك من التكلف لما لا نحسن كما نعوذ بك من العجب بما نحسن ونعوذ بك من شر السلاطة والهذر كما نعوذ بك من شر العيّ والحصر ونحن نستعيذ بالله تعالى مثل ما استعاذ فليس لمن تكلف ما لا يحسن غاية ينتهى اليها ولا حدّ يقف عنده ومن كان تكلفه غير محدود فأخلِق به ان يَضِلّ ويُضِلّ . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال من سُئِل فأفتى بغير علم فقد ضل وأضل . وقال بعض الحكماء من العلم أن لا تتكلم فيما لا تعلم بكلام من يعلم فحسبك جهلا من عقلك ان تنطق بما لا تفهم ولقد احسن زيادة بن زيد حيث يقول

اذا ما انتهى علمي تناهيت عنده * أطال فاملى أو تناهى فاقصرا
ويخبرني عن غائب المرء فعله * كفى الفعل عما غيب المرء مخبرا

فاذا لم يكن الى الاحاطة بالعلم سبيل فلا عار أن يجهل بعضه واذا لم يكن في جهل بعضه عار لم يقبح به

أن يقول لا اعلم فيما ليس يُعلَم . وروى ان رجلا قال يارسول الله اى البقاع خير واى البقاع شر فقال لا أدري حتى أسأل جبريل . وقال على بن أبي طالب رضى الله عنه وما أبردها على القلب اذا سئل أحدكم فيما لا يعلم ان يقول الله اعلم وان العالم من عرف ان مايعلم فيما لا يعلم قليل . وقال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما اذا ترك العالم قول لا ادري أصيبت مقاتله . وقال بعض العلماء هلك من ترك لا أدري . وقال بعض الحكماء ليس لى من فضيلة العلم الاعلمي بانى لست اعلم . وقال بعض البلغاء من قال لا ادرى علم فدرى ومن انتحل مالا يدرى أهمل فهوى ولا ينبغي للرجل وان صار فى طبقة العلماء الافاضل ان يستنكف من تعلم ما ليس عنده ليسلم من التكلف . وقدقال عيسى بن مريم على نبينا وعليه السلام ياصاحب العلم تعلم من العلم ماجهلت وعلّم الجهال ماعلمت . وقال على بن أبي طالب رضى الله عنه خمس خذوهن عني فلو ركبتم الفلك ماوجدتموهن الاعندى الا لا يرجونّ احد الاربه ولا يخافنّ الاذنبه ولا يستنكف العالم ان يتعلم لما ليس عنده واذا سئل احدكم عما لايعلم فليقل لا اعلم ومنزلة الصبر من الايمان بمنزلة الرأس من الجسد . وقال عبدالله بن عباس رضى الله عنهما لوكان احدكم يكتفي من العلم لاكتفى منه موسى على نبينا وعليه السلام ولما قال هل اتبعك على ان تعلمن مما علمت رشدا وقيل للخليل بن احمد بم ادركت هذا العلم قال كنت اذا لقيت عالما اخذت منه واعطيته وقال بزرجمهر من العلم ان لا تحقر شيئا من العلم ومن العلم تفضيل جميع العلم . وقال المنصور لشريك انى لك هذا العلم قال لم ارغب عن قليل استفيده ولم ابخل بكثير افيده على ان العلم يقتضي مابقي منه ويستدعى ما تأخر عنه وليس للراغب فيه قناعة ببعضه . وروى عون ابن عبد الله عن بن مسعود رضى الله عنه انه قال منهومان لايشبعان طالب علم وطالب دنيا اما طالب العلم فانه يزداد للرحمن رضاء ثم قرأ انما يخشى الله من عباده العلماء واما طالب الدنيا فانه يزداد طغيانا ثم قرأ كلا ان الانسان ليطغى أن رآه استغنى وليكن مستقلا للفضيلة منه ليزداد منها ومستكثرا للنقيصة فيه لينتهي عنها ولا يقنع من العلم بما ادرك لان القناعة فيه زهد والزهد فيه ترك والترك له جهل . وقد قال بعض الحكماء عليك بالعلم والاكثار منه فان قليله اشبه شيء بقليل الخير وكثيره اشبه شيء بكثيره ولن يعيب الخير الا القلة فاما كثرته فانها امنية . وقال بعض البلغاء من فضّل علمك استقلالك لعلمك ومن كمال عقلك استظهارك على عقلك ولا ينبغي ان يجهل من نفسه مبلغ علمها ولا يتجاوز بها قدر حقها ولان يكون بها مقصرا فيذعن بالانقياد أولى من ان يكون بها مجاوزا فيكف عن الازدياد لان من جهل حال نفسه كان لغيرها اجهل وقد قالت عائشة رضي الله عنها يارسول الله متى يعرف الانسان ربه

قال اذا عرف نفسه وقد قسم الخليل بن احمد أحوال الناس فيما علموه أو جهلوه اربعة أقسام متقابلة لايخلو الانسان منها فقال الرجال أربعة رجل يدري ويدري أنه يدري فذلك عالم فاسألوه ورجل يدري ولا يدرى انه يدرى فذلك ناس فذكروه ورجل لايدرى ويدري أنه لايدرى فذلك مسترشد فارشدوه ورجل لايدرى ولايدرى أنه لايدرى فذلك جاهل فارفضوه وأنشد أبو القاسم الآمدى

اذا كنت لاتدرى ولم تك بالذي * يسائل من يدرى فكيف اذا تدرى
جهلت ولم تعلم بانك جاهل * فمن لى بان تدرى بانك لاتدرى
اذا كنت من كل الامور معميا * فكن هكذا ارضا يطأك الذى يدرى
ومن أعجب الاشياء أنك لا تدرى * وانك لا تدرى بانك لا تدرى

وليكن من شيمته العمل بعلمه وحث النفس على أن تأتمر بما يأمر به ولايكن ممن قال الله تعالى فيهم مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا . فقد قال قتادة في قوله تعالى وانه لذو علم لما علمناه يعني انه عامل بما علم . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ويل لجماع القول وويل للمصرين يريد الذين يستمعون القول ولا يعملون به . وروى عبدالله بن وهب عن سفيان أن الخضر على نبينا وعليه السلام قال لموسى عليه السلام يا ابن عمران تعلم العلم لتعمل به ولا تتعلمه لتحدث به فيكون عليك بوره ولغيرك نوره . وقال علي ابن أبي طالب انما زهد الناس في طلب العلم لما يرون من قلة انتفاع من علم بما علم . وقال أبو الدرداء أخوف ما أخاف اذا وقفت بين يدى الله أن يقول قد علمت فماذا عملت اذ علمت وكان يقال خير من القول فاعله وخير من الصواب قائله وخير من العلم حامله . وقيل في منثور الحكم لم ينتفع بعلمه من ترك العمل به . وقال بعض العلماء ثمرة العلم ان يعمل به وثمرة العمل أن يؤجر عليه . وقال بعض الصلحاء العلم يهتف بالعمل فان أجابه أقام والا ارتحل . وقال بعض العلماء خير العلم مانفع وخير القول ماردع . وقال بعض الادباء ثمرة العلوم العمل بالمعلوم . وقال بعض البلغاء من تمام العلم استعماله ومن تمام العمل استقلاله فمن استعمل علمه لم يخل من رشاد ومن استقل عمله لم يقصر عن مراد . وقال حاتم الطائى

ولم يحمدوا من عالم غير عامل * خلافا ولا من عامل غير عالم
رأوا طرقات المجد عوجا فظيعة * وأفظع عجز عندهم عجز حازم

لانه لما كان علمه حجة على من أخذ عنه واقتبسه منه حتى يلزمه العمل به والمصير اليه كان عليه أحج وله ألزم لان مرتبة العلم قبل مرتبة القول كما ان مرتبة العلم قبل مرتبة العمل .

ويقال للعالم اتئد حتى تشفع للناس ومن آداب العلماء ان لا يبخلوا بتعليم ما يُحسِنون ولايمتنعوا من افادة مايعلمون فان البخل به لؤم وظلم والمنع منه حسد واثم وكيف يسوغ لهم البخل بما مُنِحوه جودا من غير بخل وأوتوه عفوا من غير بذل ام كيف يجوز لهم الشح بما ان بذلوه زاد ونمى وان كتموه تناقص ووهى ولو استن بذلك مَن تقدمهم لَما وصل العلم اليهم ولا انقرض عنهم بانقراضهم ولصاروا على مرور الايام جهالا وبتقلب الاحوال وتناقصها ارذالا . وقد قال الله تعالى واذا أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولاتكتمونه . وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال لا تمنعوا العلم اهله فان في ذلك فساد دينكم والتباس بصائركم ثم قرأ ان الذين يكتمون ما انزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب اولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون . وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال من كتم علما يحسنه أُلجمه الله يوم القيامة بلجام من نار . وروي عن علي ابن ابي طالب كرم الله وجهه انه قال ما اخذ الله العهد على اهل الجهل ان يتعلموا حتى اخذ العهد على اهل العلم ان يعلموا . وقال بعض الحكماء اذا كان من قواعد الحكمة بذل ماينقصه البذل فأحرى ان يكون من قواعدها بذل ما يزيده البذل . وقال بعض العلماء كما ان الاستفادة نافلة للمتعلم كذلك الافادة فريضة على المعلم . وقد قيل في منثور الحكم من كتم علما فكأنه جاهل . وقال خالد بن صفوان انى لا فرح بافادتى المتعلم اكثر من فرحى باستفادتى من العلم . ثم له بالتعليم نفعان احدهما ما يرجوه من ثواب الله تعالى فقد جعل النبي صلى الله عليه وسلم التعليم صدقة فقال تصدقوا على اخيكم بعلم يرشده ورأي يسدده . وروى ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال تعلموا وعلِّموا فان اجر العالم والمتعلم سواء قيل وما اجرهما قال مائة مغفرة ومائة درجة في الجنة والنفع الثانى زيادة العلم واتقان الحفظ فقد قال الخليل بن احمد اجعل تعليمك دراسة لعلمك واجعل مناظرة المتعلم تنبيها على ماليس عندك . وقال ابن المعتز في منثور الحكم النار لا ينقصها ما أُخِذ منها ولكن يُخمِدها ان لا تجد حطبا كذلك العلم لا يفنيه الاقتباس ولكن فقد الحاملين له سبب عدمه فاياك والبخل بما تعلم . وقال بعض العلماء علم علمك وتعلم علم غيرك فاذا علمت ما جهلت وحفظت ما علمت فاعلم ان المتعلمين ضربان مستدعى وطالب فاما المستدعى الى العلم فهو من استدعاه العالم الى التعليم لما ظهر له من جودة ذكائه وبان له من قوة خاطره فاذا وافق استدعاء العالم شهوة المتعلم كانت نتيجتها درك النجباء وظفر السعداء لان العالم باستدعائه متوفر والمتعلم بشهوته مستكثر واما طالب العلم لداع يدعوه وباعث يحدوه فان كان الداعي دينيا وكان المتعلم فطنا ذكيا وجب على العالم ان يكون عليه مقبلا

وقد قال أبو العتاهية رحمه الله

اسمع الى الاحكام تحملها الرواة اليك عنكا
واعلم هديت بانها * حجج تكون عليك منكا

ثم لينتخب ان يقول مالا يفعل وان يأمر بما لا يأتمر به وان يسر غير مايظهر ولايجعل قول الشاعر هذا

اعمل بقولي وان قصرت في عملي * ينفعك قولي ولا يضررك تقصيري

عذرا له في تقصير يضره وان لم يضر غيره فان اضرار النفس يغريها ويحسن لها مساويها فان من قال مالا يفعل فقد مكر ومن امر بمالا يأتمر فقد خدع ومن اسر غير مايظهر فقد نافق . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال المكر والخديعة وصاحباها في النار على ان امره بما لا يأتمر مطرح وانكاره مالا ينكره من نفسه مستقبح بل ربما كان ذلك سببا لاغراء المأمور بترك ما امره به عنادا وارتكاب مانهى عنه كيادا . وحكى ان اعرابيا اتى ابن ابى ذئب فسأله عن مسألة طلاق فافتاه بطلاق امرأته فقال انظر حسنا قال نظرت وقد بانت فولى الاعرابى وهو يقول

اتيت ابن ذئب ابتغى الفقه عنده * فطلق حبي البت تبت انامله
اطلق في فتوى ابن ذئب حليلتي * وعند ابن ذئب اهله وحلائله

فظن بجهله انه لايلزمه الطلاق بقول من لم يلتزم الطلاق فما ظنك بقول يجب فيه اشتراك الآمر والمأمور كيف يكون مقبولا منه وهو غير عامل به ولا قابل له كلا . وقال احمد بن يوسف

وعامل بالفجور يأمر بالبر كهاد يخوض في الظلم
او كطبيب قد شفه سقم * وهو يداوى من ذلك السقم
ياواعظ الناس غير متعظ * ثوبك طهر اوّ لا فلا تلم

(وقال آخر)

عوّد لسانك قلة اللفظ * واحفظ كلامك ايما حفظ
اياك ان تعظ الرجال وقد * اصبحت محتاجا الى الوعظ

واما الانقطاع عن العلم الى العمل والانقطاع عن العمل الى العلم اذا عمل بموجب العلم فقد حكى عن الزهرى فيه مايغنى عن تكلف غيره وهو انه قال العلم افضل من العمل لمن جهل والعمل افضل من العلم لمن علم واما فضل مابين العلم والعبادة اذا لم يخل بواجب ولم يقصر في فرض . فقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال يبعث العالم والعابد فيقال للعابد ادخل الجنة

وعلى تعليمه متوفرا لا يخفى عليه مكنونا ولا يطوى عنه مخزونا وان كان بليدا بعيد الفطنة فينبغي ان لا يمنع من اليسير فيحرم ولا يحمل عليه بالكثير فيظلم ولا يجعل بلادته ذريعة لحرمانه فان الشهوة باعثة والصبر مؤثر . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال لا تمنعوا العلم اهله فتظلموا ولا تضعوه في غير اهله فتأثموا . وقال بعض الحكماء لا تمنعوا العلم احدا فان العلم امنع لجانبه فاما ان لم يكن الداعي دينيا نظر فيه فان كان مباحا كرجل دعاه الى طلب العلم حب النباهة وطلب الرئاسة فالقول فيه يقارب القول الاول في تعليم من قبل لان العلم يُعطّفه الى الدين في ثاني حال وان لم يكن مبتدئا به في اول حال . وقد حكى عن سفيان الثوري انه قال تعلمنا العلم لغير الله تعالى فابى ان يكون الا لله . وقال عبدالله بن المبارك طلبنا العلم للدنيا فدلّنا على ترك الدنيا وان كان الداعي محظورا كرجل دعاه الى طلب العلم شرّ كامن ومكر باطن يريد ان يستعملهما في شبه دينيه وحيل فقهيه لا تجد اهل السلامة منها مخلصا ولا عنها مدفعا كما قال النبي صلى الله عليه وسلم اهلك أمتي رجلان عالم فاجر وجاهل متعبد وقيل يا رسول الله اي الناس شرّ قال العلماء اذا فسدوا فينبغي للعالم اذا راى من هذه حاله ان يمنعه عن طلبته ويصرفه عن بغيته فلا يعينه على امضاء مكره واعمال شرّه . فقد روى انس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال واضع العلم في غير اهله كمقلد الخنازير اللؤلؤ والجوهر والذهب . وقال عيسى بن مريم على نبينا وعليه السلام لا تلقوا الجوهر للخنزير فالعلم افضل من اللؤلؤ ومن لا يستحقه شر من الخنزير . وحكى ان تلميذا سأل عالما عن بعض العلوم فلم يفده فقيل له لِمَ منعته فقال لكل تربة غرس ولكل بناء أس . وقال بعض البلغاء لكل ثوب لابس ولكل علم قابس . وقال بعض الادباء ارثُ لروضة توسطها خنزير وابكِ لعلم حواه شرير وينبغي ان يكون للعالم فِراسة يتوسم بها المتعلم ليعرف مبلغ طاقته وقدر استحقاقه ليعطيه ما تحمله بذكائه او يضعف عنه ببلادته فانه اروح للعالم وانجح للمتعلم . وقد روى ثابت عن انس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان لله عبادا يعرفون الناس بالتوسم . وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه اذا انا لم اعلم عالم ار فلا علمت ما رأيت وقال عبدالله بن الزبير لا عاش بخير من لم ير برأيه عالم ير بعينيه . وقال ابن الرومي

المعي يرى باول رأى * آخر الامر من وراء المغيب
لوذعي له فؤاد ذكي * ماله في ذكائه من ضريب
لايروى ولايقلب طرفا * واكف الرجال في تقليب

واذا كان العالم في توسم المتعلمين بهذه الصفة وكان بقدر استحقاقهم خبيرا لم يضع له عناء

ولم يخب على يديه صاحب وان لم يتوسمهم وخفيت عليه احوالهم ومبلغ استحقاقهم كانوا واياه فى عناء مكد وتعب غير مجد لانه لايعدم ان يكون فيهم ذكى محتاج الى الزيادة وبليد يكتفى بالقليل فيضجر الذكى منه ويعجز البليد عنه ومن يردّد اصحابه بين عجز وضجر ملّوه وملهم . وقد حكى عبدالله بن وهب ان سفيان بن عبدالله قال قال الخضر لموسى عليهما السلام ياطالب العلم ان القائل اقل ملالة من المستمع فلا تمل جلساءك اذا حدثتهم ياموسى واعلم ان قلبك وعاء فانظر ماتحشو في وعائك . وقال بعض الحكماء خير العلماء من لايقل ولا يمل . وقال بعض العلماء كل علم كثر على المستمع ولم يطاوعه الفهم ازداد القلب به عمى وانما ينفع سمع الآذان اذا قوى فهم القلوب في الابدان وربما كان لبعض السلاطين رغبة في العلم لفضيلة نفسه وكرم طبعه فلا يجعل ذلك ذريعة في الانبساط عنده والادلال عليه بل يعطي مايستحقه بسلطانه وعلو يده فان للسلطان حق الطاعة والاعظام وللعالم حق القبول والاكرام ثم لاينبغي ان يبتدئه الا بعد الاستدعاء ولا يزيده على قدر الاكتفاء فربما احب بعض العلماء اظهار علمه للسلطان فاكثره فصار ذلك ذريعة الى مله ومفضيا الى بعده فان السلطان متقسم الافكار مستوعَب الزمان فليس له في العلم فراغ المنقطعين اليه ولا صبر المنفردين به . وقد حكى الاصمعي رحمه الله قال قال لي الرشيد ياعبد الملك انت اعلم منا ونحن اعقل منك لاتعلمنا في ملا ولا تسرع الى تذكيرنا في خلا واتركنا حتى نبتدئك بالسؤال فاذا بلغت من الجواب حد الاستحقاق فلا تزد الا ان يستدعى ذلك منك وانظر الى ماهو الطف في التأديب وانصف في التعليم وبلغ باوجز لفظ غاية التقويم وليخرج تعليمه مخرج المذاكرة والمحاضرة لامخرج التعليم والافادة لان لتأخير التعلم خجلة تقصير يجل السلطان عنها فان ظهر منه خطأ او زلله في قول او عمل لم يجاهره بالرد وعرض باستدراك زلله واصلاح خلله . وحكى ان عبد الملك بن مروان قال للشعبي كم عطاءك قال الفين قال لحنت قال لما ترك امير المؤمنين الاعراب كرهت ان اعرب كلامي عليه ثم ليحذر اتباعه فيما يجانب الدين ويضاد الحق موافقة لرأيه ومتابعة لهواه فربما زلت اقدام العلماء في ذلك رغبة او رهبة فضلوا واضلوا مع سوء العاقبة وقبح الآثار . وقد روى الحسن البصرى رحمه الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لاتزال هذه الامة تحت يد الله وفي كنفه مالم يمار قراؤها امراءها ولم يُزَكِّ صلحاؤها فجارها ولم يمار اخيارها اشرارها فاذا فعلوا ذلك رفع عنهم يده ثم سلط عليهم جبابرتهم فساموهم سوء العذاب وضربهم بالفاقة والفقر وملأ قلوبهم رعبا . ومن آدابهم نزاهة النفس عن شبه المكاسب والقناعة بالميسور

عن كد المطالب فان شبهة المكسب اثم وكد الطلب ذل والاجر اجدر به من الاثم والعز اليق به من الذل . وانشدني بعض اهل الادب لعلي بن عبد العزيز القاضي رحمه الله تعالى

يقولون لي فيك انقباض وانما * رأوا رجلا عن موقف الذل احجما
ارى الناس من داناهم هان عندهم * ومن اكرمته عزة النفس اكرما
ولم اقض حق العلم ان كان كلما * بدا طمع صيرته لي سلما
وما كل برق لاح لي يستفزني * ولا كل من لاقيت ارضاه منعما
اذا قيل هذا منهل قلت قد ارى * ولكن نفس الحر تحتمل الظما
انهنهها عن بعض مالا يشينها * مخافة اقوال العدا فيم اولما
ولم ابتذل في خدمة العلم مهجتي * لاخدم من لاقيت لكن لاخدما
أأشقى به غرسا واجنيه ذلة * اذاً فاتباع الجهل قد كان احزما
ولو ان اهل العلم صانوه صانهم * ولو عظموه في النفوس لعظما
ولكن اهانوه فهان ودنسوا * محيّاه بالاطماع حتى تجهما

على ان العلم عوض من كل لذة ومغن عن كل شهوة ومن كان صادق النية فيه لم يكن له همة فيما يجد بُدًّا منه . وقال بعض البلغاء من تفرد بالعلم لم توحشه خلوه ومن تسلى بالكتب لم تفته سلوه ومن آنسه قراءة القرآن لم توحشه مفارقة الاخوان . وقال بعض العلماء لا سمير كالعلم ولا ظهير كالحلم . ومن آدابهم ان يقصدوا وجه الله بتعليم من علموا ويطلبوا ثوابه بارشاد من ارشدوا من غير ان يعتاضوا عليه عوضا ولا يلتمسوا عليه رزقا . قال الله تعالى ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا . قال ابو العالية لاتأخذوا عليه اجرا وهو مكتوب عندهم في الكتاب الاول يابن آدم علم مجانا كما علمت مجانا . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال اجر المعلم كأجر الصائم القائم وحسب من هذا اجره ان يلتمس عليه اجرا . ومن آدابهم نصح من علموه والرفق بهم وتسهيل السبيل عليهم وبذل المجهود في رفدهم ومعونتهم فان ذلك اعظم لاجرهم واثنى لذكرهم وانشر لعلومهم وارسخ لمعلومهم . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال لعلي كرم الله وجهه ياعلي لأن يهدى الله بك رجلا خير مما طلعت عليه الشمس . ومن آدابهم ان لا يعنفوا متعلما ولا يحقروا ناشئا ولا يستصغروا مبتدئا فان ذلك ادعى اليهم واعطف عليهم واحث على الرغبة فيما لديهم . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال علموا ولا تعنفوا فان المعلم خير من المعنف . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال وقروا من تتعلمون منه ووقروا من تعلّمونه . ومن آدابهم ان لا يمنعوا طالبا

ولا يؤيسوا متعلما لما في ذلك من قطع الرغبة فيهم والزهد فيما لديهم واستمرار ذلك مفض الى انقراض العلم بانقراضهم . فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال الا انبئكم بالفقيه كل الفقيه قالوا بلى يارسول الله قال من لم يقنط الناس من رحمة الله تعالى ولا يؤيسهم من روح الله ولا يدع القرآن رغبة الى ما سواه ألا لا خير في عبادة ليس فيها تفقه ولا علم ليس فيه تفهم ولا قراءة ليس فيها تدبر فهذه جملة كافية والله ولى التوفيق

باب ادب الدين

اعلم ان الله سبحانه وتعالى انما كلف الخلق متعبداته والزمهم مفترضاته وبعث اليهم رسله وشرع لهم دينه لغير حاجة دعته الى تكليفهم ولا ضرورة قادته الى تعبدهم وانما قصد نفعهم تفضلا منه عليهم كما تفضل بما لا يحصى عدّا من نعمه بل النعمة فيما تعبدهم به اعظم لان نفع ماسوى المتعبدات مختص بالدنيا العاجلة ونفع المتعبدات يشتمل على نفع الدنيا والآخرة وما جمع نفع الدنيا والآخرة كان اعظم نعمة واكثر تفضلا وجعل ماتعبدهم به مأخوذا من عقل متبوع وشرع مسموع فالعقل متبوع فيما لا يمنع منه الشرع والشرع مسموع فيما لا يمنع منه العقل لان الشرع لا يرد بما يمنع منه العقل والعقل لا يتبع فيما يمنع منه الشرع فلذلك توجه التكليف الى من كمل عقله فارسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون فبلغهم رسالته والزمهم حجته وبين لهم شريعته وتلا عليهم كتابه فيما احله وحرمه واباحه وحظره واستحبه وكرهه وامر به ونهى عنه وما وعد به من الثواب لمن اطاعه واوعد به من العقاب لمن عصاه فكان وعده ترغيبا ووعيده ترهيبا لان الرغبة تبعث على الطاعة والرهبة تكف عن المعصية والتكليف يجمع امرا بطاعة ونهيا عن معصية ولذلك كان التكليف مقرونا بالرغبة والرهبة وكان ما تخلل كتابه من قصص الانبياء السالفة واخبار القرون الخالية عظة واعتبارا تقوى معهما الرغبة وتزداد بهما الرهبة وكان ذلك من لطفه بنا وتفضله علينا فالحمد لله الذي نعمه لا تحصى وشكره لا يؤدّى ثم جعل الى رسوله صلى الله عليه وسلم بيان ما كان مجملا وتفسير ما كان مشكلا وتحقيق ما كان محتملا ليكون له مع تبليغ الرسالة ظهور الاختصاص به ومنزلة التفويض اليه . قال الله تعالى وانزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم ولعلهم يتفكرون ثم جعل الى العلماء استنباط ما نبه على معانيه واشار الى اصوله بالاجتهاد فيه الى علم المراد فيمتازوا بذلك عن غيرهم ويختصوا بثواب اجتهادهم

قال الله تعالى يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين اوتوا العلم درجات وقال الله تعالى وما يعلم تأويله الا الله والراسخون في العلم فصار الكتاب اصلا والسنة فرعا واستنباط العلماء ايضاحا وكشفا . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال القرآن اصل علم الشريعة نصه ودليله والحكمة بيان رسول الله صلى الله عليه وسلم والامة المجتمعة حجة على من شذعنها وكان من رأفته بخلقه وتفضله على عباده ان اقدرهم على ماكلفهم ورفع الحرج عنهم فيما تعبدهم ليكونوا مع ماقد اعدّه لهم ناهضين بفعل الطاعات ومجانبة المعاصي . قال الله تعالى لايكلف الله نفسا الا وسعها وقال وما جعل عليكم في الدين من حرج . وجعل ما كلفهم به ثلاثة اقسام قسما امرهم باعتقاده وقسما امرهم بفعله وقسما امرهم بالكف عنه ليكون اختلاف جهات التكليف ابعث على قبوله واعون على فعله حكمةً منه ولطفا وجعل ما امرهم باعتقاده قسمين قسما اثباتا وقسما نفيا فاما الاثبات فاثبات توحيده وصفاته واثبات بعثته رسله وتصديق محمد صلى الله عليه وسلم فيما جاء به واما النفي فنفي الصاحبة والولد والحاجة والقبائح اجمع وهذان القسمان اول ماكلفه العاقل وجعل ما امرهم بفعله ثلاثة اقسام قسما على ابدانهم كالصلاة والصيام وقسما في اموالهم كالزكاة والكفارة وقسما على اموالهم وابدانهم كالحج والجهاد ليسهل عليهم فعله ويخف عنهم اداؤه نظرا منه تعالى لهم وتفضلا منه عليهم وجعل ما امرهم بالكف عنه ثلاثة اقسام قسما لاحياء نفوسهم وصلاح أبدانهم كنهيه عن القتل وأكل الخبائث والسموم وشرب الخمور المؤدية الى فساد العقل وزواله وقسما لائتلافهم واصلاح ذات بينهم كنهيه عن الغضب والغلبة والظلم والسرف المفضي الى القطيعة والبغضاء وقسما لحفظ أنسابهم وتعظيم محارمهم كنهيه عن الزنا ونكاح ذوات المحارم فكانت نعمته فيما حظره علينا كنعمته فيما أباحه لنا وتفضله فيما كفنا عنه كتفضله فيما أمرنا به فهل يجد العاقل في رؤيته مساغا أن يقصر فيما امر به وهو نعمة عليه أو يرى فسحة في ارتكاب ما نهى عنه وهو تفضل منه عليه وهل يكون من انعم عليه بنعمة فاهملها مع شدة فاقته اليها الا مذموما في العقل مع ماجاء من وعيد الشرع ثم من لطفه بخلقه وتفضله على عباده أن جعل لهم من جنس كل فريضة نفلا وجعل له من الثواب قسطا وندبهم اليه ندبا وجعل لهم بالحسنة عشرا ليضاعف ثواب فاعله ويضع العقاب عن تاركه ومن لطيف حكمته ان جعل لكل عبادة حالتين حالة كمال وحالة جواز رفقا منه بخلقه لما سبق في علمه أن فيهم العجل المبادر والبطيء المثاقل ومن لا صبر له على اداء الاكمل ليكون ما اخل به من هيئات عبادته غير قادح في فرض ولا ما نع من أجر فكان ذلك من نعمه علينا

وحسن نظره الينا وكان أول ما فرض بعد تصديق نبيه صلى الله عليه وسلم عبادات الابدان وقد قدمها على ما يتعلق بالاموال لان النفوس على الاموال أشح وبما يتعلق بالابدان أسمح وذلك الصلاة والصيام فقدم الصلاة على الصيام لان الصلاة أسهل فعلا وأيسر عملا وجعلها مشتملة على خضوع له وابتهال اليه فالخضوع له رهبة منه والابتهال اليه رغبة فيه ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم اذا قام احدكم الى صلاته فانما يناجي ربه فلينظر بم يناجيه وروى عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه انه كان كلما دخل عليه وقت صلاة اصفر لونه مرة واحمر أخرى فقيل له في ذلك فقال أتتنى الامانة التى عرضت على السموات والارض والجبال فأبين ان يحملنها وأشفقن منها وحملتها أنا فلا أدري أؤسئ فيها ام أحسن ثم جعل لها شروطا لازمة من رفع حدث وازالة نجس ليستديم النظافة للقاء ربه والطهارة لاداء فرضه ثم ضمنها تلاوة كتابه المنزل ليتدبر ما فيه من أوامره ونواهيه ويعتبر اعجاز ألفاظه ومعانيه ثم علقها باوقات راتبة وازمان مترادفة ليكون ترادف أزمانها وتتابع أوقاتها سبباً لاستدامة الخضوع له والابتهال اليه فلا تنقطع الرهبة منه ولا الرغبة فيه واذا لم تنقطع الرغبة والرهبة استدام صلاح الخلق وبحسب قوة الرغبة والرهبة يكون استيفاؤها حال الكمال أو التقصير فيها حال الجواز . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم الصلاة مكيال فمن وفى وفى له ومن طفف فقد علتم ما قال الله في المطففين . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال من هانت عليه صلاته كانت على الله تعالى عز وجل أهون . وأنشدت لبعض الفصحاء في ذلك

أقبل على صلواتك الخمس * كم مصبح وعساه لا يمسى
واستقبل اليوم الجديد بتوبة * تمحوا ذنوب صبيحة الامس
فليفعلن بوجهك الغض البلى * فعل الظلام بصورة الشمس

ثم فرض الله تعالى الصيام وقدمه على زكاة الاموال لتعلق الصيام بالابدان وكان في ايجابه حث على رحمة الفقراء واطعامهم وسد جوعاتهم لما عاينوه من شدة المجاعة في صومهم وقد قيل ليوسف على نبينا وعليه السلام أتجوع وأنت على خزائن الارض فقال أخاف ان اشبع فانسى الجائع ثم لما في الصوم من قهر النفس واذلالها وكسر الشهوة المستولية عليها واشعار النفس ما هي عليه من الحاجة الى يسير الطعام والشراب والمحتاج الى الشيء ذليل به وبهذا احتج الله تعالى على من اتخذ عيسى على نبينا وعليه السلام وأمه الهين من دونه فقال ما المسيح بن مريم الا رسول قد خلت من قبله الرسل وامه صديقة كانا يأكلان الطعام فجعل احتياجهما

الى الطعام نقصا فيهما عن ان يكونا الهين وقد وصف الحسن البصري رحمه الله تعالى نقص الانسان بالطعام والشراب فقال مسكين ابن آدم محتوم الاجل مكتوم الامل مستور العلل يتكلم بلحم وينظر بشحم ويسمع بعظم أسير جوعه صريع شبعه تؤذيه البقه وتنتنه العرقه وتقتله الشرقه لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا فانظر الى لطفه بنا فيما اوجبه من الصيام علينا كيف أيقظ العقول له وقد كانت عنه غافلة او متغافلة ونفع النفوس به ولم تكن منتفعه ولا نافعة ثم فرض زكاة الاموال وقدمها على فرض الحج لان في الحج مع انفاق المال سفرا شاقا فكانت النفس الى الزكاة اسرع اجابة منها الى الحج فكان في ايجابها مواساة للفقراء ومعونة لذوي الحاجات تكفهم من البغضاء وتمنعهم من التقاطع وتبعثهم على التواصل لان الآمل وصول والراجي هائب واذا زال الامل وانقطع الرجاء واشتدت الحاجة وقعت البغضاء واشتد الحسد فحدث التقاطع بين ارباب الاموال والفقراء ووقعت العداوة بين ذوي الحاجات والاغنياء حتى تفضي الى التغالب على الاموال والتغرير بالنفوس هذا مع مافي اداء الزكاة من تمرين النفس على السماحة المحمودة ومجانبة الشح المذموم لان السماحة تبعث على اداء الحقوق والشح يصد عنها وما يبعث على اداء الحقوق فأجدر به حمدا وما صد عنها فأخلق به ذمّا . وقد روى ابو هريرة رضى الله عنه ان النبي صلى الله عليه وسلم قال شر ما اعطى العبد شح هالع وجبن خالع . فسبحان من دبرنا بلطيف حكمته واخفى عن فطنتنا جزيل نعمته حتى استوجب من الشكر باخفائها اعظم مما استوجبه بابدائها . ثم فرض الحج فكان آخر فروضه لانه يجمع عملا على بدن وحقا في مال فجعل فرضه بعد استقرار فروض الابدان وفروض الاموال ليكون استئناسهم بكل واحد من النوعين ذريعة الى تسهيل ماجمع بين النوعين فكان في ايجابه تذكير ليوم الحشر بمفارقة المال والاهل وخضوع العزيز والذليل في الوقوف بين يديه واجتماع المطيع والعاصي في الرهبة منه والرغبة اليه واقلاع اهل المعاصي عما اجترحوه وندم المذنبين على ما اسلفوه فقل من حج الا واحدث توبة من ذنب واقلاعا من معصية ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم من علامة الحجة المبرورة ان يكون صاحبها بعدها خيرا منه قبلها وهذا صحيح لان الندم على الذنوب مانع من الاقدام عليها والتوبة مكفرة لما سلف منها فاذا كف عما كان يقدم عليه انباء عن صحة توبته وصحة التوبة تقتضي قبول حجته ثم نبه بما يعانى فيه من مشاق السفر المؤدي اليه على موضع النعمة برفاهة الاقامة وانسة الاوطان ليحنوا على من سُلِبَ هذه النعمة من ابناء السبيل ثم اعلم بمشاهدة حرمه الذي انشأ منه دينه وبعث فيه رسوله صلى الله عليه وسلم ثم بمشاهدة دار الهجرة التي

أعز الله بها أهل طاعته وأذل بنصرة نبيه محمد عليه الصلاة والسلام اهل معصيته حتى خضع له عظماء المتجبرين وتذلل له زعماء المتكبرين أنه لم ينتشر عن ذلك المكان المنقطع ولا قوي بعد الضعف البين حتى طبق الارض شرقا وغربا الا بمعجزة ظاهرة ونصر عزيز فاعتبر ألهمك الله الشكر ووفقك للتقوى انعامه عليك فيما كلفك واحسانه اليك فيما تعبدك فقد وكلتك الى فطنتك واحلتك على بصيرتك بعد ان كنت لك رائدا صدوقا وناصحا شفوقا هل تحسن نهوضا بشكره اذافعلت ماأمرك وتقبلت ماكلفك كلا انه لايوليك نعمة توجب الشكر الا وصلها قبل شكر ماسلف بنعمة توجب الشكر في المؤتنف . وقال الحسن بن علي رضى الله عنهما نعم الله اكثر من ان تشكر الا ماأعان عليه وذنوب ابن آدم اكثر من ان تغفر الا ماعفى عنه . وأنشدت لمنصور بن اسماعيل الفقيه المصري رحمه الله تعالى

شكر الاله نعمة * موجبة لشكره

فكيف شكري بره * وشكره من بره

واذا كنت عن شكر نعمه عاجزا فكيف بك اذا قصرت فيما امرك او فرطت فيما كلفك ونفعه اعود عليك لو فعلته هل تكون لسوابغ نعمه الا كفورا وببداية العقول الا مزجورا وقد قال الله تعالى يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها . قال مجاهد اى يعرفون ماعدد الله عليهم من نعمه وينكرونها بقولهم انهم ورثوها عن آبائهم واكتسبوها بافعالهم . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال يقول الله يابن آدم ما انصفتنى اتحبب اليك بالنعم وتمقت الىّ بالمعاصي خيرى اليك نازل وشرك الىّ صاعد كم من ملك كريم يصعد اليّ منك بعمل قبيح . وقال بعض صلحاء السلف قد اصبح بنا من نعم الله تعالى مالا نحصيه مع كثرة مانعصيه فلاندري ايهما نشكر أجميل ماينشر أم قبيح مايستر فحق على من عرف موضع النعمة أن يقبلها ممتثلا لما كلف منها وقبولها يكون بادائها ثم يشكر الله تعالى على ماانعم من اسدائها فان بنا من الحاجة الى نعمه اكثر مما كلفنا من شكر نعمه فان نحن ادينا حق النعمة في التكليف تفضل باسداء النعمة من غير جهة التكليف فلزمت النعمتان ومن لزمته النعمتان فقد أوتى حظ الدنيا والآخرة وهذا هو السعيد بالاطلاق وان قصرنا في اداء ماكلفنا من شكره قصر عنا مالا تكليف فيه من نعمه فنفرت النعمتان ومن نفرت عنه النعمتان فقد سلب حظ الدنيا والآخرة فلم يكن له في الحياة حظ ولا في الموت راحة وهذا هو الشقى بالاستحقاق وليس يختار الشقوة على السعادة ذو لب صحيح ولا عقل سليم . وقد قال الله تعالى ليس بامانيكم ولا امانى اهل الكتاب من يعمل سوأ يجز به . وروى الاعمش عن سليم قال قال ابو بكر الصديق رضى الله عنه

يارسول الله ماأشد هذه الآية من يعمل سوأ يجز به فقال ياأبا بكر ان المصيبة في الدنيا جزاء واختلف المفسرون في تأويل قوله تعالى سنعذبهم مرتين فقال بعضهم احد العذابين الفضيحة في الدنيا والثانى عذاب القبر . وقال عبد الرحمن بن يزيد احد العذابين مصائبهم فى الدنيا في اموالهم واولادهم والثاني عذاب الآخرة في النار وليس وان نال اهل المعاصي لذة من عيش او ادركوا امنية من دنيا كانت عليهم نعمة بل قد يكون ذلك استدراجا ونقمة . وروى ابن لهيعة عن عقبة بن مسلم بن عامر ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اذا رأيت الله تعالى يعطي العباد مايشاؤن على معاصيهم اياه فانما ذلك استدراج منه لهم ثم تلا فلما نسوا ماذكروا به فتحنا عليهم ابواب كل شئ حتى اذا فرحوا بما اوتوا اخذناهم بغتة فاذاهم مُبلِسون . فاما المحرمات التى يمنع الشرع منها واستقر التكليف عقلا او شرعا بالنهي عنها فتنقسم قسمين منها ماتكون النفوس داعية اليها والشهوات باعثة عليها كالسفاح وشرب الخمر فقد زجر الله عنها لقوة الباعث عليها وشدة الميل اليها بنوعين من الزجر احدهما حدّ عاجل يرتدع به الجرئ والثاني وعيد آجل يزدجر به التقي ومنها ماتكون النفوس نافرة منها والشهواة مصروفة عنها كأكل الخبائث والمستقذرات وشرب السموم المتلفات فاقتصر الله في الزجر عنها بالوعيد وحده دون الحد لان النفوس مستعدة في الزجر عنها ومصروفة عن ركوب المحظور منها ثم اكد الله زواجره بانكار المنكرين لها فاوجب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ليكون الامر بالمعروف تأكيدا لاوامره والنهي عن المنكر تأييدا لزواجره لان النفوس الاشرة قد الهتها الصبوة عن اتباع الاوامر واذهلتها الشهوة عن تذكار الزواجر وكان انكار المجانسين أزجرلها وتوبيخ المخاطبين أبلغ فيها ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم ما اقر قوم المنكر بين اظهرهم الا عمهم الله بعذاب محتضر . واذا كان ذلك فلا يخلو حال فاعلى المنكر من أحد الامرين أحدهما أن يكونوا آحادا متفرقين وأفرادا متبددين لم يتحزبوا فيه ولم يتظافروا عليه وهم رعية مقهورون وأشذاذ مستضعفون فلا خلاف بين الناس ان امرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر مع المكنة وظهور القدرة واجب على من شاهد ذلك من فاعليه او سمعه من قائليه وانما اختلفوا في وجوب ذلك على منكريه هل وجب عليهم بالعقل او بالشرع فذهب بعض المتكلمين الى وجوب ذلك بالعقل لانه لما وجب بالعقل ان يمتنع من القبيح وجب ايضا بالعقل ان يمنع غيره منه لان ذلك أدعي الى مجانبته وأبلغ في مفارقته . وقد روي عبد الله بن المبارك رحمه الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان قوما ركبوا سفينة فاقتسموا فأخذ كل واحد منهم موضعا فنقر رجل منهم موضعه بفأس

فقالوا ما تصنع فقال هو مكاني أصنع فيه ما شئت فلم يأخذوا على يديه فهلك وهلكوا .
وذهب آخرون الى وجوب ذلك بالشرع دون العقل لأن العقل لو اوجب النهى عن المنكر ومنع غيره من القبيح لوجب مثله على الله تعالى ولما جاوز ورود الشرع باقرار اهل الذمة على الكفر وترك النكير عليهم لان واجبات العقول لا يجوز ابطالها بالشرع وفي ورود الشرع بذلك دليل على أن العقل غير موجب لانكاره فاما اذا كان في ترك انكاره مضرة لاحقة بمنكره وجب انكاره بالعقل على القولين معا وأما ان لحق المنكِر مضرة من انكاره ولم تلحقه من كفه واقراره لم يجب عليه الانكار بالعقل ولا بالشرع أما العقل فلانه يمنع من اجتلاب المضار التى لا يوازيها نفع وأما الشرع فقد روى ابو سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال أنكِر المنكَر بيدك فان لم تستطع فبلسانك فان لم تستطع فبقلبك وذلك أضعف الايمان . فان أراد الاقدام على الانكار مع لحوق المضرة به نظر فان لم يكن اظهار النكير مما يتعلق باعزاز دين الله ولا اظهار كلمة الحق لم يجب عليه النكير اذا خشي بغالب الظن تلفا أو ضررا ولم يخش منه النكير أيضا وان كان في اظهار النكير اعزاز دين الله تعالى واظهار كلمة الحق حسن منه النكير مع خشية الاضرار والتلف وان لم يجب عليه اذا كان الغرض قد يحصل له بالنكير وان انتصر او قتل وعلى هذا الوجه قال النبي صلى الله عليه وسلم ان من أفضل الاعمال كلمة حق عند سلطان جائر فاما اذا كان يقتل قبل حصول الغرض قبح في العقل أن يتعرض لانكاره وكذلك لو كان الانكار يزيد المنهي اغراء بفعل المنكر ولجاجا في الاكثار منه قبح في العقل انكاره والحال الثانية ان يكون فعل المنكَر من جماعة قد تظافروا عليه وعصبة قد تحزبت ودعت اليه وقد اختلف الناس في وجوب انكاره على مذاهب شتى فقالت طائفة من اصحاب الحديث وأهل الآثار لا يجب انكاره والاولى بالانسان أن يكون كافا ممسكا وملازما لبيته وَادِعًا غيرَ منكر ولا مستفز وقالت طائفة أخرى ممن يقول بظهور المنتظر لا يجب انكاره ولا التعرض لازالته الا أن يظهر المنتظر فيتولى انكاره بنفسه ويكونوا أعوانه وقالت طائفة أخرى منهم الاصم لا يجوز للناس انكاره الا أن يجتمعوا على امام عدل فيجب عليهم الانكار معه وقال جمهور المتكلمين انكار ذلك واجب والدفع عنه لازم على شروطه في وجود اعوان يصلحون له فاما مع فقد الاعوان فعلى الانسان الكف لان الواحد قد يقتل قبل بلوغ الغرض وذلك قبيح في العقل أن يتعرض له . فهذا ما أكد الله تعالى به أوامره وأيد به زواجره من الامر بالمعروف والنهى عن المنكر وما يختلف من أحوال الآمرين به والناهين عنه ثم ليس يخلو حال الناس فيما أمروا به ونهوا عنه من فعل الطاعات

واجتناب المعاصي من أربعة أحوال فمنهم من يستجيب الى فعل الطاعات ويكف عن ارتكاب المعاصي وهذا أكمل أحوال أهل الدين وأفضل صفات المتقين فهذا يستحق جزاء العاملين وثواب المطيعين . روى محمد بن عبدالملك المدائني عن نافع عن ابن عمر رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الذنب لاينسى والبر لايبلى والديان لا يموت فكن كما شئت وكما تدين تدان . وقد قيل كل يحصد ما يزرع ويجزى بما يصنع بل قالوا زرع يومك حصاد غدك . ومنهم من يمتنع من فعل الطاعات ويقدم على ارتكاب المعاصي وهي أخبث احوال المكلفين فهذا يستحق عذاب اللاهي عن فعل ماامر به من طاعته وعذاب المجترئ على ماأقدم عليه من معاصيه وقد قال ابن شبرمة عجبت لمن يحتمي من الطيبات مخافة الداء كيف لايحتمي من المعاصي مخافة النار فاخذ ذلك بعض الشعراء فقال

جسمك قد افنيته بالحمى * دهرا من البارد والحار

وكان اولى بك ان تحتمى * من المعاصى حذر النار

وقال ابن صباوة انا نظرنا فوجدنا الصبر على طاعة الله تعالى اهون من الصبر على عذاب الله تعالى وقال آخر اصبروا عباد الله على عمل لا غنى بكم عن ثوابه واصبروا عن عمل لا صبر لكم على عقابه وقيل للفضيل بن عياض رضى الله عنه رضى الله عنك فقال كيف يرضى عنى ولم أرضه . ومنهم من يستجيب الى فعل الطاعات ويقدم على ارتكاب المعاصي فهذا يستحق عذاب المجترئ لانه تورط بغلبة الشهوة على الاقدام على المعصية وان سلم من التقصير في فعل الطاعة . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال أقلعوا عن المعاصي قبل ان يأخذكم الله هتا بتا الهت الكسر والبت القطع ولذلك قال بعض العلماء أفضل الناس من لم تفسد الشهوة دينه ولم تترك الشبهة يقينه وقال حماد بن زيد عجبت لمن يحتمى من الاطعمة لمضراتها كيف لا يحتمي من الذنوب لمعراتها . وقال بعض الصلحاء أهل الذنوب مرضى القلوب . وقيل للفضيل بن عياض رحمه الله ماأعجب الاشياء فقال قلب عرف الله عز وجل ثم عصاه . وقال بعض الاولياء يدل بالطاعة العاصى وينسى عظيم المعاصى . وقال رجل لابن عباس رضى الله عنه ايما احب اليك رجل قليل الذنوب قليل العمل او رجل كثير الذنوب كثير العمل فقال ابن عباس رضى الله عنه لاأعدل بالسلامة شيئا . وقيل لبعض الزهاد ما تقول في صلاة الليل فقال خف الله بالنهار ونم بالليل . وسمع بعض الزهاد رجلا يقول لقوم اهلككم النوم فقال بل اهلكتكم اليقظة . وقيل لابي هريرة رضى الله عنه ما التقوى فقال أجزت في أرض فيها شوك فقال نعم فقال كيف كنت تصنع فقال كنت اتوقي قال فتوق الخطايا . وقال عبدالله

ابن المبارك

أيضمن لي فتى ترك المعاصى * وأرهنه الكفالة بالخلاص
أطاع الله قوم واستراحوا * ولم يتجرعوا غصص المعاصي

ومنهم من يمتنع من فعل الطاعات ويكف عن ارتكاب المعاصي فهذا يستحق عذاب اللاهي عن دينه المنذر بقلة يقينه . وروى أبو ادريس الخولانى عن ابى ذر الغفاري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال كانت صحف موسى (على نبينا وعليه السلام) كلها عبرا عجبت لمن ايقن بالنار ثم يضحك وعجبت لمن أيقن بالقدر ثم يتعب وعجبت لمن رأى الدنيا وتقلبها باهلها ثم يطمئن اليها وعجبت لمن أيقن بالموت ثم يفرح وعجبت لمن ايقن بالحساب غدا ثم لا يعمل . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال اجتهدوا في العمل فان قصر بكم ضعف فكفوا عن المعاصي وهـذا واضح المعنى لان الكف عن المعاصي ترك وهو أسهل وعمل الطاعات فعل وهو اثقل ولذلك لم يجز الله تعالى ارتكاب المعصية بعذر ولا بغير عذر لانه ترك والترك لا يعجز المعذور عنه وانما اباح ترك الاعمال بالاعذار لان العمل قد يعجز المعذور عنه . وقال بكر بن عبد الله رحم الله امرأ كان قويا فاعمل قوته في طاعة الله تعالى أو كان ضعيفا فكف عن معصية الله تعالى . وقال عبـد الاعلى بن عبد الله الشامي رحمه الله تعالى

العمـر ينقص والذنوب تزيد * وتقال عثرات الفتى فيعود
هل يستطيع جحود ذنب واحد * رجل جوارحه عليه شهود
والمرء يسأل عن سنيه فيشتهي * تقليلها وعن الممات يحيد

واعـلم أن لاعمال الطاعات ومجانبة المعاصى آفتين احداهما تكسب الوزر والاخرى توهن الاجر فاما المكسبة للوزر فاعجاب بمـا سلف من عمله وقدم من طاعتـه لان الاعجاب به يفضى الى حالتين مذمومتين احداهما أن المعجب بعمله ممـتنٌ به والممتن على الله تعالى جاحد لنعمه . قال ابن عباس رضى الله عنهما أوحى الله تعالى الى نبي من أنبيائه اما زهدك في الدنيا فقد استعجلت به الراحة وأما انقطاعك اليّ فهو عز لك فهذان لك وبقيت أنا والثانيـة أن المعجب بعمله مدل به والمدل بعمله مجترئ والمجترئ على الله عاص . وقال مورق العجلى خير من العجب بالطاعة أن لايأتي بطاعة . وقال بعض السلف ضاحك معترف بذنبه خير من باك مدل على ربه وباك نادم على ذنبه خير من ضاحك معترف بلهوه . واما الموهنة للاجر فالثقة بما أسلف والركون الى ما قدم لان الثقـة تؤل الى أمرين شينين أحدهما يحدث الاتكا على

ما مضى وتقصيرا فيما يُستقبل ومن قصر واتكل لم يرج أجرا ولم يؤد شكرا والثاني أن الواثق آمِن والآمن من الله تعالى غير خائف ومن لم يخف الله تعالى هانت عليه اوامره وسهلت عليه زواجره . وقال الفضيل بن عياض رهبة المرء من الله تعالى على قدر علمه بالله تعالى . وقال مورق العجلى لان أبيت نائماً واصبح نادماً أحب اليّ من أن أبيت قائما واصبح ناعما . وقال الحكماء مابينك وبين ان لايكون فيك خيرالا ان ترى ان فيك خيرا . وقيل لرابعة العدوية رحمها الله هل عملت عملا قط ترين انه يقبل منك قالت ان كان شيء فنحوفي ان يردعليّ عملي . وقال ابن السماك رحمة الله عليه انا لله فيما مضى ما اعظم فيه الخطر وانا لله فيما بقى ما اقل منه الحذر . وحكى ان بعض الزهاد وقف على جمع فنادى باعلى صوته يامعشر الاغنياء لكم اقول استكثروا من الحسنات فان ذنوبكم كثيرة ويامعشر الفقراء لكم اقول اقلوا من الذنوب فان حسناتكم قليلة . فينبغى احسن الله اليك بالتوفيق ان لا تضيع صحة جسمك وفراغ وقتك بالتقصير في طاعة ربك والثقة بسالف عملك فاجعل الاجتهاد غنيمة صحتك والعمل فرصة فراغك فليس كل الزمان مستعدا ولا مافات مستدركا وللفراغ زيغ او ندم وللخلوة ميل او اسف . وقال عمر بن الخطاب الراحة للرجال غفلة وللنساء غلمة . وقال بزرجمهر ان يكن الشغل مجهدة فالفراغ مفسدة . وقال بعض الحكماء اياكم والخلوات فانها تفسد العقول وتعقد المحلول . وقال بعض البلغاء لا تمض يومك فى غير منفعة ولا تضع مالك في غير صنعة فالعمر اقصر من ان ينفد في غير المنافع والمال اقل من ان يصرف في غير الصنائع والعاقل اجل من ان يفنى ايامه فيما لا يعود عليه نفعه وخيره وينفق امواله فيما لا يحصل له ثوابه واجره وابلغ من ذلك قول عيسى بن مريم علي نبينا وعليه السلام البر ثلاثة المنطق والنظر والصمت فمن كان منطقه في غير ذكر فقد لغا ومن كان نظره في غير اعتبار فقد سها ومن كان صمته في غير فكر فقد لهى واعلم ان للانسان فيما كلف من عباداته ثلاث احوال احداها ان يستوفيها من غير تقصير فيها ولا زيادة عليها والثانية ان يقصر فيها والثالثة ان يزيد عليها فاما الحال الاولى فهي ان يأتى بها على حال الكمال من غير زيادة فيها ولا زيادة تطوع على راتبتها فهى اوسط الاحوال واعدلها لانه لم يكن منه تقصير فيذم ولا تكثير فيعجز . وقد روى سعيد بن ابي سعيد رضي الله عنه عن ابى هريرة رضى الله عنه ان النبي صلى الله عليه وسلم قال سدّدوا وقاربوا وبشروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة . وقال الشاعر

عليك باوساط الامور فانها * نجاة ولا تركب ذلولا ولا صعبا

وأما الحال الثانية وهو أن يقصر فيها فلا يخلو حال تقصيره من اربعة احوال احداهنّ أن يكون لعذر أعجزه عنه أو مرض أضعفه عن أداء ماكلف به فهذا يخرج عن حكم المقصرين ويلحق بأحوال العاملين لاستقرار الشرع على سقوط مادخل تحت العجز . وقد جاء الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال مامن عامل كان يعمل عملا فيقطعه عنه مرض الا وكل الله تعالى به من يكتب له ثواب عمله . والحال الثانية أن يكون تقصيره فيه اغترارا بالمسامحة فيه ورجاء العفو عنه فهذا مخدوع العقل مغرور بالجهل فقد جعل الظن ذخرا والرجاء عدة فهو كمن قطع سفرا بغير زاد ظنا بانه سيجده في المفاوز الجدبة فيفضى به الظن الى الهلكة وهلا كان الحذر أغلب عليه وقد ندب الله تعالى اليه . وحكى ان اسرائيل بن محمد القاضي قال لقيني مجنون كان في الخرابات فقال يا اسرائيل خف الله خوفا يشغلك عن الرجاء فان الرجاء يشغلك عن الخوف وفر الى الله ولا تفر منه . وقيل لمحمد بن واسع رحمه الله ألا تبكي فقال تلك حلية الآمنين . وحكى أن أبا حازم الاعرج أخبر سليمان بن عبد الملك بوعيد الله للمذنبين فقال سليمان أين رحمة الله قال قريب من المحسنين . وقال عبد الله بن عباس رضى الله عنهما ماانتفعت ولا اتعظت بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بمثل كتاب كتبه الي علي بن أبي طالب كرم الله وجهه أما بعد فان الانسان ليسره درك ما لم يكن ليفوته ويسوءه فوت مالم يكن ليدركه فلا تكن بما نلته من دنياك فرحا ولا لما فاتك منها ترحا ولا تكن ممن يرجو الآخرة بغير عمل ويؤخر التوبة بطول الامل فكأن قد والسلام . وقال محمود الوراق رحمه الله

أخاف على المحسن المتقي * وأرجو لذى الهفوات المسي
فذلك خوفي على محسن * فكيف على الظالم المعتدي
على أن ذا الزيغ قد يستفيق * ويستأنف الزيغ قلب التقي

والحال الثالثة أن يكون تقصيره فيه ليستوفي ما أخل به من بعد فيبدأ بالسيئة في التقصير قبل الحسنة في الاستيفاء اغترارا بالامل في امهاله ورجاء لتلافي مااسلف من تقصيره واخلاله فلا ينتهي به الامل الى غايه ولا يفضي به الى نهايه لان الامل هو في ثاني حال كهو في اول حال . فقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال من يؤمل ان يعيش غدا فانه يؤمل ان يعيش ابدا ولعمري ان هذا صحيح لان لكل يوم غدا فاذا يفضي به الامل الى الفوت من غير درك ويؤديه الرجاء الى الاهمال من غير تلاف فيصير الامل خيبة والرجاء اياسا . وقد روى عمرو بن شعيب عن ابيه عن جده ان النبي صلى الله عليه وسلم قال اول صلاح هذه الامة بالزهد واليقين وفسادها بالبخل والامل . وقال الحسن البصري رحمه الله ما اطال عبد الامل

الا أساء العمل وقال رجل لبعض الزهاد بالبصرة ألك حاجة ببغداد قال ما احب أن ابسط أملي الى ان تذهب الى بغداد وتجيء . وقال بعض الحكماء الجاهل يعتمد على امله والعاقل يعتمد على عمله . وقال بعض البلغاء الامل كالسراب غر من رآه وخاب من رجاه . وقال محمد ابن يزدان دخلت على المأمون وكنت يومئذ وزيره فرأيته قائما وبيده رقعة فقال يا محمد أقرأت ما فيها فقلت هي في يد أمير المؤمنين فرمى بها اليّ فاذا فيها مكتوب

انك في دار لها مدة * يقبل فيها عمل العامل
أما ترى الموت محيطا بها * يقطع فيها أمل الآمل
تعجل بالذنب لما تشتهي * وتأمل التوبة من قابل
والموت يأتي بعد ذا بغتة * ما ذاك فعل الحازم العاقل

فلما قرأتها قال المأمون رحمه الله تعالى هذا من أحكم شعر قرأته . وقال ابوحازم الاعرج نحن لانريد ان نموت حتى نتوب ونحن لانتوب حتى نموت . وقال بعض البلغاء زائد الاهمال رائد الامهال . والحال الرابعة أن يكون تقصيره فيه استثقالا للاستيفاء وزهدا في التمام واقتصارا على ما سنح وقلة اكتراث بما بقي فهذا على ثلاثة اضرب احدها أن يكون ما اخل به وقصر فيه غير قادح في فرض ولا مانع من عبادة كمن اقتصر في العبادة على فعل واجباتها وعمل مفترضاتها وأخل بمسنوناتها وهيآتها فهذا مسيء فيما ترك اساءة من لا يستحق وعيدا ولا يستوجب عتابا لان أداء الواجب يسقط عنه العقاب واخلاله بالمسنون يمنع من اكمال الثواب . وقد قال بعض الحكماء من تهاون بالدين هان ومن غالب الحق لان . وقال الشاعر

ويصون توبته ويترك غير ذلك لايصونه
واحق ما صان الفتى * ورعا أمانته ودينه

والضرب الثاني ان يكون ما اخل به من مفروض عبادته لكن لا يقدح ترك ما بقي فيما مضى كمن اكمل عبادات واخل بغيرها فهذا أسوأ حالا ممن تقدمه لما استحقه من الوعيد واستوجبه من العقاب والضرب الثالث ان يكون ما اخل به من مفروض عبادته وهو قادح فيما عمل منها كالعبادة التي يرتبط بعضها ببعض فيكون المقصر في بعضها تاركا لجميعها فلا يحتسب له ما عمل لاخلاله بما بقي فهذا أسوأ احوال المقصرين وحاله لاحقة بأحوال التاركين بل قد تكلف مالا يسقط فرضا ولا يؤدي حقا فقد ساوى التاركين في استحقاق الوعيد وزاد عليهم في تكلف ما لايفيد فصار من الاخسرين اعمالا الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ثم لعله لا يفطن لشانه ولا يشعر بخسران وقد خسر الدنيا والآخرة ويفطن لليسير من ماله

ان وهى واختل . وأنشدنى بعض اهل العلم

أبنيّ ان من الرجال بهيمـــة * في صورة الرجل السميع المبصر

فطن بكل مصيبة في ماله * واذا يصاب بدينـه لم يشـعر

وأما الحال الثالثة وهو ان يزيد فيما كلف فهذا على ثلاثة اقسام احدها ان تكون الزيادة رياء للناظرين وتصنعا للمخلوقين حتى يستعطف به القلوب النافرة ويخدع به العقول الواهية فيتبهرج بالصلحاء وليس منهم ويتدلس في الاخيار وهو ضـدهم . وقد ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم للمرائى بعمله مثلا فقال المتشبع بمـا لايملك كلابس ثوب زور يريد بالمتشبع بما لا يملك المتزين بمـا ليس فيه وقوله كلابس ثوب زور هو الذي يلبس ثياب الصلحاء فهو برياءه محروم الاجر مذموم الذكر لانه لم يقصد وجه الله تعالى فيؤجر عليه ولا يخفى رياؤه على الناس فيحمد به قال الله تعالى فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه احدا قال جميع اهل التأويل معنى قوله ولا يشرك بعبادة ربه احدا اي لايرائي بعمله احدا فجعل الرياء شركا لانه جعل مايقصد به وجه الله تعالى مقصودا به غير الله تعالى .وقال الحسن البصري رحمـه الله تعالى في قوله تعـالى ولا تجهر بصـلاتك ولا تخافت بها قال لاتجهر بها رياء ولا تخافت بها حياء وكان سفيان بن عيينة رحمه الله يتأول قوله تعالى ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي أن العدل استواء السريرة والعلانية في العمل لله تعالى والاحسان ان تكون سريرته احسن من علانيته والفحشاء والمنكر ان تكون علانيته احسن من سريرته وكان غيره يقول العدل شهادة ان لااله الا الله والاحسان الصبر على امره ونهيه وطاعة الله في سره وجهره وايتاء ذي القربى صلة الارحام وينهى عن الفحشاء يعـنى الزنا والمنكر القبائح والبغى الكبر والظلم وليس يخرج الرياء بالاعمـال من هذا التأويل ايضا لانه من جملة القبائح .وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال أخوف ماأخاف على أمتي الرياء الظاهر والشهوة الخفية . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال اشد الناس عذابا يوم القيامة من يُرى ان فيه خيرا ولا خير فيه .وقال علي ابن ابي طالب كرم الله وجهه لاتعمل شيئا من الخير رياء ولا تتركه حياء. وقال بعض العلمـاء كل حسنة لم يُرَد بها وجه الله تعـالى فعلتها قبح الرياء وثمرتها سوء الجزاء وقد يفضى الرياء بصاحبه الى استهزاء الناس به كما حكى ان طاهر بن الحسين قال لابي عبد الله المروزي منذكم صرت الى العراق ياأبا عبد الله قال دخلت العراق منذ عشرين سنة وانا منذ ثلاثين سنة صائم فقال يا أبا عبـد الله سألتـك عن مسألة فاجبت عن مسألتين . وحكى الاصمعي رحمـه الله

أن اعرابيا صلى فاطال والى جانبه قوم فقالوا ما أحسن صلاتك فقال وأنا مع ذلك صائم

صلى فاعجبني وصام فرابني * نح القلوص عن المصلي الصائم

فانظر الى هذا الرياء مع قبحه ما أدله على سخف عقل صاحبه وربما ساعد الناس مع ظهور رياءه على الاستهزاء بنفسه كالذي حكي ان زاهدا نظر الى رجل في وجهه سجّادة كبيرة واقفا على باب السلطان فقال مثل هذا الدرهم بين عينيك وانت واقف ههنا فقال انه ضُرب على غير السكة وهذا من أجوبة الخلاعة التي يدفع بها تهجين المذمة ولقد استحسن الناس من الاشعث ابن قيس قوله وقد خفف صلاته مرة فقال بعض اهل المسجد خففت صلاتك جدا فقال انه لم يخالطها رياء فتخلص من تنقيصهم بنفي الرياء عن نفسه ورفع التصنع في صلاته وقد كان الانكار لولا ذلك متوجها عليه واللوم لاحقا به ومر ابو أمامة ببعض المساجد فاذا رجل يصلي وهو يبكي فقال له أنت أنت لو كان هذا في بيتك فلم ير ذلك منه حسنا لانه أتهمه بالرياء ولعله كان بريئا منه فكيف بمن صار الرياء اغلب صفاته واشهر سماته مع انه آثم فيما عمل أنم من هبوب النسيم بما حمل ولذلك قال عبدالله بن المبارك افضل الزهد اخفاء الزهد وربما أحس ذو الفضل من نفسه ميلا الى المراآة فبعثه الفضل على هتك ما نازعته النفس من المراآة فكان ذلك ابلغ في فضله كالذي حكي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه انه احس على المنبر بريح خرجت منه فقال ايها الناس اني قد مثلت بين ان اخافكم في الله تعالى وبين ان اخاف الله فيكم فكان أن اخاف الله فيكم احب الي ّ ألا واني قد فسوت وها أنا نازل أعيد الوضوء فكان ذلك منه زجرا لنفسه لتكف عن نزاعها الى مثله . وقال عمر بن عبد العزيز لمحمد بن كعب القرظي عظني فقال لا ارضى نفسي لك واعظا لاني اجلس بين الغنى والفقير فاميل على الفقير وأوسع للغني ولان طاعة الله تعالى في العمل لوجهه لا لغيره . وحكي أن قوما ارادوا سفرا فحادوا عن الطريق فانتهوا الى راهب فقالوا قد ضللنا فكيف الطريق فقال ههنا وأومأ بيده الى السماء . والقسم الثاني ان يفعل الزيادة اقتداء بغيره وهذا قد تثمره مجالسة الاخيار الافاضل وتحدثه مكاثرة الاتقياء الاماثل . ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم المرء على دين خليله فلينظر احدكم من يخالل . فاذا كاثرهم المجالس وطاولهم المؤانس احب أن يقتدي بهم في افعالهم ويتأسى بهم في اعمالهم ولا يرضى لنفسه ان يقصر عنهم ولا أن يكون في الخير دونهم فتبعثه المنافسة على مساواتهم وربما دعته الحمية الى الزيادة عليهم والمكاثرة لهم فيصيروا سببا لسعادته وباعثا على استزادته والعرب تقول لولا الوئام لهلك الانام اى لولا أن الناس يرى بعضهم بعضا فيقتدي بهم في الخير لهلكوا . ولذلك قال بعض البلغاء من خير الاختيار

صحبة الاخيار ومن شر الاختيار مودة الاشرار وهذا صحيح لان للمصاحبة تأثيرا في اكتساب الاخلاق فتصلح أخلاق المرء بمصاحبة أهل الصلاح وتفسد بمصاحبة أهل الفساد . ولذلك قال الشاعر

رأيت صلاح المرء يصلح أهله * ويعديهم عند الفساد اذا فسد
يعظم في الدنيا بفضل صلاحه * ويحفظ بعد الموت في الاهل والولد

وانشدنى بعض اهل الادب لابي بكر الخوارزمي

لا تصحب الكسلان في حالاته * كم صالح بفساد آخر يفسد
عدوى البليد الى الجليد سريعة * والجمر يوضع في الرماد فيخمد

والقسم الثالث ان يفعل الزيادة ابتداء من نفسه التماسا لثوابها ورغبة في الزلفة بها فهذا من نتائج النفس الزاكيه ودواعى الرغبة الوافيه الدالّين على خلوص الدين وصحة اليقين وذلك أفضل أحوال العاملين واعلى منازل العابدين وقد قيل الناس في الخير أربعة منهم من يفعله ابتداء ومنهم من يفعله اقتداء ومنهم من يتركه استحسانا ومنهم من يتركه حرمانا فمن فعله ابتداء فهو كريم ومن فعله اقتداء فهو حكيم ومن تركه استحسانا فهو ردى ومن تركه حرمانا فهو شقي ثم لما يفعله من الزيادة حالتان احداهما ان يكون مقتصدا فيها وقادرا على الدوام عليها فهى افضل الحالتين واعلى المنزلتين عليها انقرض اخيار السلف وتتبعهم فيها فضلاء الخلف . وقد روت عائشة رضي الله عنها ان النبي صلى الله عليه وسلم قال ايها الناس افعلوا من الاعمال ما تطيقون فان الله لايمل من الثواب حتى تملوا من العمل وخير الاعمال مادیم عليه والعرب تقول القصد والدوام وانت السابق الجواد ولان من كان صحيح الرغبة في ثواب الله تعالى لم يكن له مسرة الافي طاعته . وقال عبد الله بن المبارك قلت لراهب متى عيدكم قال كل يوم لا اعصى الله فيه فهو يوم عيد انظر الى هذا القول منه وان لم يكن من مقاصد الطاعة ما ابلغه في حب الطاعة واحثه على بذل الاستطاعة . وخرج بعض الزهاد في يوم عيد في هيئة رثة فقيل لم تخرج في مثل هذا اليوم في مثل هذه الهيئة والناس متزينون فقال ما يتزين لله تعالى بمثل طاعته والحالة الثانية ان يستكثر منها استكثار من لا ينهض بدوامها ولا يقدر على اتصالها فهذا ربما كان بالمقصر اشبه لان الاستكثار من الزيادة اما ان يمنع من اداء اللازم فلا يكون الا تقصيراً لانه تطوع بزيادة احدثت نقصا وبنفل منع فرضا واما ان يعجز عن استدامة الزيادة ويمنع من ملازمة الاستكثار من غير اخلال بلازم ولا تقصير في فرض فهى اذا قصيرة المدى قليلة اللبث ولقليل العمل في طويل الزمان افضل عند الله عزوجل من كثير العمل في قصير الزمان

لان المستكثر من العمل في الزمان القصير قد يعمل زمانا ويترك زمانا فربما صار في زمان تركه لاهيا أو ساهيا والمقلل في الزمان الطويل مستيقظ الافكار مستديم التذكار . وقد روى أبو صالح عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ان للاسلام شرة وللشرة فترة فمن سدد وقارب فارجوه ومن اشير اليه بالاصابع فلا تعدّوه . فجعل للاسلام شرة وهي الايغال في الاكثار وجعل للشرة فترة وهي الاهمال بعد الاستكثار فلم يخل بما أثبت من أن تكون هذه الزيادة تقصيراً أو اخلالا ولا خير في واحد منهما واعلم جعل الله العلم حاكما لك وعليك والحق قائدا لك واليك ان الدنيا اذا وصلت فتبعات موبقة واذا فارقت ففجعات محرقه وليس لوصلها دوام ولا من فراقها بد فَرُضْ نفسك على قطيعتها لتسلم من تَبِعاتها وعلى فراقها لتأمن فجعاتها فقد قيل المرء مقترض من عمره المنقرض مع ان العمر وان طال قصير والفراغ وان تم يسير وانشدت لعلي بن محمد رحمه الله تعالى

اذا كملت للمرء ستون حجة * فلم يَحظَّ من ستين الا بسدسها
ألم تر أن النصف بالليل حاصل * وتذهب أوقات المقيل بخمسها
فتأخذ أوقات الهموم بحصة * وأوقات أوجاع تميت بمسها
فحاصل مايبقي له سدس عمره * اذا صدقته النفس عن علم حدسها

ورياضة نفسك لذلك تترتب على أحوال ثلاث وكل حالة منها تتشعب وهي لتسهيل مايليها سبب فالحالة الاولى أن تصرف حب الدنيا عن قلبك فانها تلهيك عن آخرتك ولاتجعل سعيك لها فتمنعك حظك منها وتوقّ الركون اليها ولا تكن آمنا لها . فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال من اشرب قلبه حب الدنيا وركن اليها التاط منها بشغل لايفرغ عناه وامل لايبلغ منتهاه وحرص لايدرك مداه . وقال عيسى بن مريم على نبينا وعليه السلام الدنيا لابليس مزرعة واهلها له حراث . وقال علي بن ابى طلب مثل الدنيا مثل الحية لين مسها قاتل سمها فاعرض عما اعجبك منها لقلة مايصحبك منها وضع عنك همومها لما أيقنت من فراقها وكن أحذر ما تكون لها وانت آنس ما تكون بها فان صاحبها كلما اطمأن منها الى سرور أشخصه عنها مكروه وان سكن منها الى ايناس أزاله عنها ايحاش . وقال بعض البلغاء الدنيا لا تصفو لشارب ولا تبقى لصاحب ولا تخلو من فتنة ولا تخلي من محنة فاعرض عنها قبل ان تعرض عنك واستبدل بها قبل ان تستبدل بك فان نعيمها يتنقل واحوالها تتبدل ولذاتها تفنى وتبعاتها تبقى . وقال بعض الحكماء انظر الى الدنيا نظر الزاهد المفارق لها ولا تتأملها تأمل العاشق الوامق بها . وقال بعض الشعراء

ألا انما الدنيا كاحلام نائم * وما خير عيش لايكون بدائم
تأمل اذا ما نلت بالامس لذة * فافنيتها هل أنت الا كحالم
فكم غافل عنه وليس بغافل * وكم نائم عنه وليس بنائم

وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال من هوان الدنيا على الله أن لا يعصى الا فيها ولا ينال ما عنده الا بتركها . وروى سفيان أن الخضر قال لموسى عليهما السلام ياموسى اعرض عن الدنيا وانبذها وراءك فانها ليست لك بدار ولا فيها محل قرار وانما جعلت الدنيا للعباد ليتزودوا منها للمعاد . وقال عيسى بن مريم عليه السلام الدنيا قنطرة فاعبروها ولا تعمروها . وقال علي كرم الله وجهه يصف الدنيا اولها عناء وآخرها فناء حلالها حساب وحرامها عقاب من صح فيها أمن ومن مرض فيها ندم ومن استغنى فيها فتن ومن افتقر فيها حزن ومن ساعاها فاتته ومن قعد عنها أتته ومن نظر اليها اعمته ومن نظر بها بصرته . وقال بعض البلغاء ان الدنيا تقبل اقبال الطالب وتدبر ادبار الهارب وتصل وصال الملول وتفارق فراق العجول فخيرها يسير وعيشها قصير واقبالها خديعة وادبارها فجيعة ولذاتها فانية وتبعاتها باقية فاغتنم غفوة الزمان وانتهز فرصة الامكان وخذ من نفسك لنفسك وتزود من يومك لغدك . وقال وهب بن منبه مثل الدنيا والآخرة مثل ضرتين ان ارضيت احداهما اسخطت الاخرى . وقال عبد الحميد الدنيا منازل فراحل ونازل . وقال بعض الحكماء الدنيا اما نقمة نازله واما نعمة زائله . وقيل في منشور الحكم من الدنيا على الدنيا دليل وقال الشاعر

تمنع من الايام ان كنت حازما * فانك منها بين ناه وآمر
اذا ابقت الدنيا على المرء دينه * فما فاته منها فليس بضائر
فلن تعدل الدنيا جناح بعوضة * ولا وزن ذر من جناح لطائر
فما رضي الدنيا ثوابا لمؤمن * ولا رضى الدنيا جزاء لكافر

وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال الدنيا يومان يوم فرح ويوم هم وكلاهما زائل عنك فدعوا ما يزول واتعبوا نفوسكم في العمل لما لا يزول . وقال عيسى بن مريم عليه السلام لاتنازعوا اهل الدنيا في دنياهم فينازعوكم في دينكم فلا دنياهم اصبتم ولا دينكم ابقيتم . وقال علي بن ابى طالب لا تكن ممن يقول في الدنيا بقول الزاهدين ويعمل فيها عمل الراغبين فان اعطى منها لم يشبع وان منع منها لم يقنع يعجز عن شكر ما أوتى ويبتغى الزيادة فيما بقى وينهى الناس ولا ينتهى ويأمر بما لا يأتي يحب الصالحين ولا يعمل بعملهم ويبغض

الصالحين وهو منهم . وقال الحسن البصري الدنيا كلها غم فما كان منها من سرور فهو ربح . وقال بعض العلماء ان الدنيا كثيرة التغيير سريعة التنكير شديدة المكر دائمة الغدر فاقطع أسباب الهوى عن قلبك واجعل أبعد أملك بقية يومك وكن كأنك ترى ثواب اعمالك . وقال بعض الحكماء الدنيا اما مصيبة موجعة واما منية مفجعة . وقال الشاعر

خل دنياك انها * يعقب الخيرَ شرُّها
هي أم تعق من * نسلها مَن يبرُّها
كل نفس فانها * تبتغي ما يسرها
والمنايا تسوقها * والاماني تغرها
فاذا استحلت الجنى * أعقب الحلوَ مُرُّها
يستوي في ضريحه * عبد ارض وحرها

فاذا رُضْتَ نفسك من هذه الحالة بما وصفت اعتضت منها بثلاث خلال احداهن ان تكفي اشفاق المحب وحذر الوامق فليس لمشفق ثقة ولا لحاذر راحة والثانية ان تأمن الاغترار بملاهيها فتسلم من عادية دواهيها فان اللاهي بها مغرور والمغرور فيها مذعور والثالثة ان تستريح من تعب السعي لها ووصب الكد فيها فان من احب شيأ طلبه ومن طلب شيأ كدّ له والمكدود فيها شقي ان ظفر ومحروم ان خاب . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال لكعب يا كعب الناس غاديان فغاد بنفسه فمعتقها وموبق نفسه فموثقها . وقال عيسى بن مريم عليهما السلام تعملون للدنيا وانتم ترزقون فيها بغير عمل ولا تعملون للآخرة وانتم لاترزقون فيها الا بعمل . وقال بعض البلغاء من نكد الدنيا أن لاتبقى على حاله ولا تخلو من استحاله تصلح جانبا بافساد جانب وتسر صاحبا بمساءة صاحب فالركون اليها خطر والثقة بها غرر . وقال بعض الحكماء الدنيا مرتجعة الهبة والدهر حسود لايأتي على شئ الا غيّره ولمن عاش حاجة لاتنقضي ولما بلغ مزدك من الدنيا افضل ماسمت اليه نفسه نبذها وقال هذا سرور لولا وانه غرور نعيم لولا انه عديم وملك لولا انه هلك وغناء لولا انه فناء وجسيم لولا انه ذميم ومحمود لولا انه مفقود وغنى لولا انه منى وارتفاع لولا انه اتضاع وعلاء لولا انه بلاء وحسن لولا انه حزن وهو يوم لو وثق له بغد . وقال بعض الحكماء قد ملك الدنيا غير واحد من راغب وزاهد فلا الراغب فيها استبقت ولا عن الزاهد فيها كفت . وقال ابو العتاهية

هي الدار دار الاذى والقذى * ودار الفناء ودار الغير

فلو نِلتَها بحذافيرها * لَمَتَ ولم تقض منها الوطر
أيا من يؤمل طول الخلود * وطول الخلود عليه ضرر
اذا ما كبرت وبان الشباب * فلا خير في العيش بعد الكبر

وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال اللهم اني اعوذ بك من علم لا ينفع ونفس لا تشبع وقلب لا يخشع وعين لا تدمع هل يتوقع احدكم الا غنى مطغيا او فقرا منسيا او مرضا مفسدا او هرما مقيدا او الدجال فهو شر غائب ينتظر او الساعة والساعة ادهى وامر . وحكى ان الله تعالى اوحى الى عيسى بن مريم عليه السلام ان هب لي من قلبك الخشوع ومن بدنك الخضوع ومن عينك الدموع فاني قريب . وقال عيسى بن مريم عليه السلام اوحى الله الى الدنيا من خدمني فاخدميه ومن خدمك فاستخدميه . وقال بعض البلغاء زد من طول املك في قصير عملك فان الدنيا ظل الغمام وحُلْم النيام فمن عرفها ثم طلبها فقد اخطأ الطريق وحُرِم التوفيق . وقال بعض الحكماء لا يؤمننك اقبال الدنيا عليك من ادبارها عنك ولا من دولة لك من ادالة منك . وقال آخر ما مضى من الدنيا كالم يكن ومابقي منها كما قد مضى وقيل لزاهد قد خلعت الدنيا فكيف سَخَتْ نفسك عنها فقال ايقنت اني أخرج منها كارها فرأيت أن اخرج منها طائعا . وقيل لحرقة بنت النعمان مالك تبكين فقالت رايت لاهلي غضارة ولن تمتلئ دار فرحا الا امتلأت ترحا . وقال ابن السماك من جرعته الدنيا حلاوتها بميله اليها جرعته الآخرة مرارتها لتجافيه عنها . وقال صاحب كليلة ودمنة طالب الدنيا كشارب ماء البحر كلما ازداد شربا ازداد عطشا وكان عمر بن عبد العزيز يتمثل بهذه الابيات

نهارك يا مغرور سهو وغفلة * وليلك نوم والاسى لك لازم
تسر بما يفنى وتفرح بالمنى * كما سر باللذات في النوم حالم
وشغلك فيما سوف تكره غبه * كذلك في الدنيا تعيش البهائم

وسمع رجل رجلا يقول لصاحبه لا اراك الله مكروها فقال كأنك دعوت على صاحبك بالموت ان صاحبك ما صاحب الدنيا فلا بد ان يرى مكروها . وقال ابو العتاهية

ان الزمان ولو يلين لاهله لمخاشن
خطواته المتحركا * ت كأنهن سواكن

والحال الثانية من احوال رياضتك لها ان تصدق نفسك فيما منحتك من رغائبها واناتلتك من غرائبها فتعلم ان العطية فيها مرتجعة والمنحة فيها مستردة بعد ان تبقي عليك ما احتقبت من اوزار وصولها اليك وخسران خروجها عنك . فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال

لا تزول قدما ابن آدم حتى يسئل عن ثلاث شبابه فيم ابلاه وعمره فيم افناه وماله من اين اكتسبه وفيم انفقه . وروى عن عيسى بن مريم عليه السلام أنه قال في المال ثلاث خصال قالوا وما هن ياروح الله قال يكسبه من غير حله قالوافان كسبه من حله قال يضعه في غير حقه قالوا فان وضعه في حقه قال يشغله عن عبادة ربه ودخل ابو حازم على بِشْر بن مروان فقال يا أبا حازم ماالمخرج مما نحن فيه قال تَنظُرُ ماعندك فلا تضعه الا في حقه وما ليس عندك فلا تأخذه الا بحقه قال ومن يطيق هذا يا أبا حازم قال فمن اجل ذلك ملئت جهنم من الجنة والناس اجمعين . وعيرت اليهود عيسى بن مريم عليه السلام بالفقر فقال من الغنى دهيتم ودخل قوم منزل عابد فلم يجدوا شيئا يقعدون عليه فقال لو كانت الدنيا دارمقام لاتخذنا لها اثاثا. وقيل لبعض الزهاد ألا توصى قال بماذا اوصى والله مالنا شيء ولا لنا عند احدشيء ولا لاحد عندنا شيء انظر الى هذه الراحة كيف تعجلها والى السلامة كيف صار اليها ولذلك قيل الفقر ملك ليس فيه محاسبة . وقيل لعيسى بن مريم عليهما السلام ألا تتزوج فقال انما تحب التكاثر في دار البقاء وقيل لو دعوت الله تعالى أن يرزقك حمارا فقال انا اكرم على الله من ان يجعلني خادم حمار . وقيل لابي حازم رضى الله عنه ما مالك قال شيئان الرضى عن الله والغنى عن الناس وقيل له انك لمسكين فقال كيف اكون مسكينا ومولاى له ما في السموات وما في الارض وما بينهما وما تحت الثرى . وقال بعض الحكماء رُبَّ مغبوطٍ بمسرة هى داؤه ومرحوم من سقم هو شفاؤه . وقال بعض الادباء الناس اشتات ولكل جمع شتات . وقال بعض البلغاء الزهد بصحة اليقين وصحة اليقين بنور الدين فمن صح يقينه زهدا في الثراء ومن قوي دينه ايقن بالجزاء فلا تغرنك صحة نفسك وسلامة امسك فمدة العمر قليلة وصحة النفس مسحيلة . وقال بعض الشعراء

رب مغروس يعاش به * عدمته عين مغترسه
وكذاك الدهر مأتمه * اقرب الاشياء من عرسه

فاذا رضت نفسك من هذه الحال بما وصفت اعتضت منها ثلاث خلال احداهن نصح نفسك وقد استسلمت اليك والنظر لها وقد اعتمدت عليك فان غاش نفسه مغبون والمنحرف عنها مأفون والثانية الزهد فيما ليس لك لتكفي تكلف طلبه وتسلم من تبعات كسبه والثالثة انتهاز الفرصة في مالك ان تضعه في حقه وان تؤتيه لمستحقه ليكون لك ذخرا ولا يكون عليك وزرا . فقد روى ان رجلا قال يارسول الله اني اكره الموت قال ألك مال قال نعم قال قدم مالك فان قلب المؤمن عند ماله . وقالت عائشة رضي الله عنها ذبحنا شاة فتصدقنا بها فقلت يارسول الله

ما بقي الاكتفها قال كلها بقي الاكتفها . وحكى ان عبد الله بن عبيد الله بن عتبة بن مسعود باع دارا بثمانين الف درهم فقيل له اتخذ لولدك من هذا المال ذخرا فقال انا اجعل هذا المال ذخرا لي عند الله عز وجل واجعل الله ذخرا لولدى وتصدق بها وعوتب سهل بن عبدالله المروزي فى كثرة الصدقة فقال لو ان رجلا اراد ان ينتقل من دار الى دار أكان يبقى في الاولى شيئا . وقال سليمان ابن عبد الملك لابي حازم ما لنا نكره الموت قال لانكم اخربتم آخرتكم وعمرتم دنياكم فكرهتم ان تنتقلوا من العمران الى الخراب . وقيل لعبدالله بن عمر ترك زيد بن خارجة مائة الف درهم فقال لكنها لا تتركه . وقال الحسن البصري رحمه الله ما انعم الله على عبد نعمة الا وعليه فيها تبعة الا سليمان بن داود عليه السلام فان الله تعالى قال له هذا عطاؤنا فامنن او امسك بغير حساب وقال ابو حازم ان عوفينا من شر ما أعطينا لم يضرنا فقد ما زُوِيَ عنا . وقال بعض السلف قدموا كلا ليكون لكم ولا تخلفوا كلا فيكون عليكم . وقال ابراهيم نعم القوم السؤال يدقون أبوابكم يقولون أتوجهون للآخرة شيئا . وقال سعيد بن المسيب مربي صلة بن أشيم فما تمالكت ان نهضت اليه فقلت يا أبا الصهباء ادعُ لي فقال رغبك الله فيما يبقى وزهدك فيما يفنى ووهب لك اليقين الذي لا تسكن النفس الا اليه ولا يعوّل في الدين الا عليه ولما ثقل عبد الملك بن مروان رأى غسالا يلوي بيده ثوبا فقال وددت اني كنت غسالا لا أعيش الا بما أكتسبه يوما فيوما فبلغ ذلك ابا حازم فقال الحمد لله الذى جعلهم يتمنون عند الموت ما نحن فيه ولا نتمنى نحن عنده ماهم فيه . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال يقول ابن آدم مالي مالي وهل لك يا ابن آدم من مالك الا ما اكلت فافنيت أو لبست فابليت أو أعطيت فامضيت . وقال خالد بن صفوان بت ليلتي اتمنى فكسبت البحر الاخضر والذهب الاحمر فاذا يكفيني من ذلك رغيفان وكوزان وطمران . وقال مورق العجلي يا ابن آدم تؤتى كل يوم برزقك وانت تحزن وينقص عمرك وانت لا تحزن تطلب ما يطغيك وعندك ما يكفيك . وقال أبو حازم انما بيننا وبين الملوك يوم واحد أما أمس فقد مضى فلا يجدون لذته وانا وهم من غد على وجل وانما هو اليوم فما عسى أن يكون . وقال بعض السلف تعز عن الشيء اذا مُنِعته لقلة ما يصحبك اذا اعطيته . وقال بعض الحكماء من ترك نصيبه من الدنيا استوفى حظه من الآخرة . وقال آخر ترك التلبس بالدنيا قبل التشبث بها اهون من رفضها بعد ملابستها . وقال آخر ليكن طلبك للدنيا اضطرارا وتذكرك في الامور اعتبارا وسعيك لمعادك ابتدارا . وقال آخر الزاهد لا يطلب المفقود حتى يفقد الموجود وقال آخر من آمن بالآخرة لم يحرص على الدنيا ومن أيقن بالمجازاة لم يؤثر على الحسنى وقال آخر من حاسب نفسه ربح ومن غفل عنها خسر . وقال أبو العتاهية

ارى الدنيا لمن هى في يديه * عذابا كلما كثرت لديه
تهين المكرمين لها بصغر * وتكرم كل من هانت عليه
اذا استغنيت عن شيء فدعه * وخذ ما انت محتاج اليه

وحكى الاصمعي رحمه الله قال دخلت على الرشيد رحمة الله عليه يوما وهو ينظر في كتاب ودموعه تسيل على خده فلما ابصرني قال أرأيت ماكان مني قلت نعم يا امير المؤمنين فقال أماانه لوكان لامر الدنيا ماكان هذا ثم رمى اليّ بالقرطاس فاذا فيه شعر ابى العتاهية رحمه الله تعالى

هل انت معتبر بمن خربت * منه غداة قضى دساكره
وبمن اذل الدهر مصرعه * فتبرأت منه عساكره
وبمن خلت منه اسرته * وتعطلت منه منابره
اين الملوك واين عزهم * صاروا مصيرا انت صائره
يا مؤثر الدنيا للذته * والمستعد لمن يفاخره
نل ما بدا لك ان تنال من الدنيا فان الموت آخره

فقال الرشيد رحمة الله عليه والله لكأنى اخاطب بهذا الشعر دون الناس فلم يلبث بعد ذلك الا يسيرا حتى مات رحمه الله ثم الحالة الثالثة من احوال رياضتك لها ان تكشف لنفسك حال أجلك وتصرفها عن غرور املك حتى لا يطيل لك الامل اجلا قصيرا ولا ينسيك موتا ولا نشورا . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال في بعض خطبه ايها الناس ان الايام تطوى والاعمار تفنى والابدان تبلى وان الليل والنهار يتراكضان كتراكض البريد يقربان كل بعيد ويخلقان كل جديد وفي ذلك عباد الله ما ألهى عن الشهوات ورغب في الباقيات الصالحات . وقال مسعر كم من مستقبل يوما وليس يستكمله ومنتظر غدا وليس من اجله ولو رأيتم الاجل ومسيره لابغضتم الأمل وغروره . وقال رجل من الانصار للنبي صلى الله عليه وسلم من اكيس الناس قال اكثرهم ذكرا للموت واشدهم استعدادا له اولئك الاكياس ذهبوا بشرف الدنيا وكرامة الآخرة . وقال عيسى بن مريم عليه السلام كما تنامون كذلك تموتون وكما تستيقظون كذلك تبعثون . وقال علي بن ابى طالب كرم الله وجهه ايها الناس اتقوا الله الذي ان قلتم سمع وان اضمرتم علم وبادروا الموت الذى ان هربتم ادركم وان اقمتم اخذكم . وقال العلاء بن المسيب ليس قبل الموت شيء الا والموت اشد منه وليس بعد الموت شيء الا والموت ايسر منه . وقال بعض الحكماء ان للباقي بالماضى معتبرا وللآخر بالاول مزدجرا والسعيد لا يركن الى الخدع ولا يغتر بالطمع . وقال بعض الصلحاء

ان بقاءك الى فناء وفناءك الى بقاء فخذ من فناءك الذي لا يبقى لبقائك الذي لا يفنى . وقال بعض العلماء أى عيش يطيب وليس للموت طيب . وقال بعض البلغاء كل امرئ يجرى من عمره الى غاية تنتهى اليها مدة اجله وتنطوي عليها صحيفة عمله فخذ من نفسك لنفسك وقس يومك بامسك وكف عن سيئاتك وزد في حسناتك قبل ان تستوفي مدة الاجل وتقصر عن الزيادة في السعى والعمل . وقيل في منثور الحكم من لم يتعرض للنوائب تعرضت له . وقال ابو العتاهية

ما للمقابر لا تجيـ * ـب اذا دعاهن الكئيب
حفر مسقفة علي * هن الجنادل والكثيب
فيهن ولدان وأط * فال وشبان وشيب
كم من حبيب لم تكن * نفسي بفرقته تطيب
غادرته في بعضهن مجندلا وهو الحبيب
وسلوت عنه وانما * عهدي برؤيته قريب

ووعظ النبي صلى الله عليه وسلم رجلا فقال أقلل من الدنيا تعش حرا وأقلل من الذنوب يهن عليك الموت وانظر حيث تضع ولدك فان العرق دساس وقال الرشيد لابن السماك رحمهما الله تعالى عظنى وأوجز فقال اعلم انك اول خليفة يموت . وعزى اعرابى رجلا عن ابن صغير له فقال الحمد لله الذي نجاه مما ههنا من الكدر وخلصه مما بين يديه من الخطر . وقال بعض السلف من عمل للآخرة احرزها والدنيا ومن آثار الدنيا حرمها والآخرة . وقال بعض الصلحاء استغنم تنفس الاجل وامكان العمل واقطع ذكر المعاذير والعلل فانك في اجل محدود ونفس معدود وعمر غير ممدود . وقال بعض الحكماء الطبيب معذور اذا لم يقدر على دفع المحذور . وقال بعض البلغاء اعمل عمل المرتحل فان حادى الموت يحدوك ليوم ليس يعدوك . وروى عن على بن ابي طالب رضي الله عنه انه قال بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم

غر جهولا أمله * يموت من جا أجله * ومن دنا من حتفه * لم تغن عنه حيله
وما بقاء آخر * قد غاب عنه اوله * والمرء لا يصحبه * في القبر الا عمله

(وقال ابو العتاهية)

لاتأمن الموت في لحظ ولا نفس * وان تمنعت بالحجاب والحرس
واعلم بان سهام الموت قاصدة * لكل مدرع منها ومترس
ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها * ان السفينة لاتجري على اليبس

فاذا رضت نفسك من هذه الحالة بما وصفت اعتضت منها ثلاث خلال احداهن أن تكفي تسويف أمل يرديك وتسويل محال يؤذيك فان تسويف الامل غرار وتسويل المحال ضرار والثانية أن تستيقظ لعمل آخرتك وتغتنم بقية أجلك بخير عملك فان من قصر امله واستقل أجله حسن عمله والثالثة أن يهون عليك نزول ما ليس عنه محيص ويسهل عليك حلول ما ليس الى دفعه سبيل فان من تحقق امرا توطأ لحلوله فهان عليه عند نزوله . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لابي ذر نبه بالتفكر قلبك وجاف عن النوم جنبك واتق الله ربك . وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لابي ذر رضى الله عنه عظني فقال ارض بالقوت وخف من الفوت واجعل صومك الدنيا وفطرك الموت . وقال عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ما رايت يقينا لا شك فيه اشبه بشك لا يقين فيه من يقين نحن فيه فلئن كنا مقرين انا لحمقى ولئن كنا جاحدين انا لهلكى . وقال الحسن البصري رحمة الله عليه نهارك ضيفك فاحسن اليه فانك ان احسنت اليه ارتحل بحمدك وان اسأت اليه ارتحل بذمك وكذلك ليلك . وقال الجاحظ في كتاب البيان وجد مكتوبا في حجر يا ابن آدم لو رأيت يسير ما بقى من اجلك لزهدت في طويل ما ترجو من أملك ولرغبت في الزيادة من عملك ولقصرت من حرصك وحيلك وانما يلقاك غدا ندمك لو قد زلت بك قدمك واسلمك اهلك وحشمك وتبرأ منك القريب وانصرف عنك الحبيب . ولما حضر بشر بن منصور الموت فرح فقيل له أتفرح بالموت فقال أتجعلون قدومي على خالق أرجوه كمقامي مع مخلوق أخافه . وقيل لابي بكر الصديق رضى الله عنه في مرضه الذي مات فيه لو ارسلت الى الطبيب فقال قد رآني قالوا فما قال لك قال قال اني فعال لما اريد . وقيل للربيع بن خيثم وقد اعتل ندعوك بالطبيب قال قد أردت ذلك فذكرت عادا وثمود وأصحاب الرس وقرونا بين ذلك كثيرا وعلمت انه كان فيهم الداء والمداوي فهلكوا جميعا . وسئل انو شروان متى يكون عيش الدنيا ألذ قال اذا كان الذي ينبغى ان يعمله في حياته معمولا . وقال بعض الحكماء من ذكر المنية نسي الامنية . وقال بعض الادباء عن الموت تسل وهو كريشة تسل . وقال بعض البلغاء الامل حجاب الاجل . وانشد بعض اهل الادب ما ذكر انه لعلي رضى الله عنه

ولو أنا اذا متنا تركنا * لكان الموت راحة كل حي
ولكنا اذا متنا بعثنا * ونسئل بعد ذا عن كل شى

(وقال بعض الشعراء)

ألا انما الدنيا مقيل لراكب * قضى وطرا من منزل ثم هجرا

وراح ولا يدرى علام قدومه * ألا كل ما قدمت تلقي موفرا

وروى سعيد بن مسعود رضى الله عنه أن أبا الدرداء رضى الله عنه قال يا رسول الله أوصنى فقال صلى الله عليه وسلم اكسب طيبا واعمل صالحا واسأل الله تعالى رزق يوم بيوم واعدد نفسك من الموتى . وكتب الربيع بن خيثم الى أخ له قدم جهازك وأفرغ من زادك وكن وصى نفسك والسلام . وقال بعض السلف أصاب الدنيا من حذرها وأصابت الدنيا من امنها . ومر محمد بن واسع رحمة الله عليه بقوم فقيل هؤلاء زهاد فقال ما قدر الدنيا حتى يحمد من زهد فيها . وقال بعض الحكماء السعيد من اعتبر بامسه واستظهر لنفسه والشقي من جمع لغيره وبخل على نفسه . وقال بعض البلغاء لا تبت عن غير وصية وان كنت من جسمك في صحة ومن عمرك في فسحة فان الدهر خائن وكل ما هو كائن كائن . وقال بعض الشعراء

من كان يعلم ان الموت مدركه * والقبر مسكنه والبعث مخرجه
وانه بين جنات ستبهجه * يوم القيامة او نار ستنضجه
فكل شيء سوى التقوى به سمج * وما أقام عليه منه اسمجه
ترى الذي اتخذ الدنيا له وطنا * لم يدر ان المنايا سوف تزعجه

وروى جعفر بن محمد عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال في بعض خطبه ايها الناس ان لكم نهاية فانتهوا الى نهايتكم وان لكم معالم فانتهوا الى معالمكم وان المؤمن بين مخافتين اجل قد مضى لا يدري ما الله صانع فيه واجل قد بقى لا يدري ما الله قاض فيه فليتزود العبد من نفسه لنفسه ومن دنياه لآخرته ومن الحياة قبل الموت فان الدنيا خلقت لكم وانتم خلقتم للآخرة فوالذي نفس محمد بيده ما بعد الموت من مستعتب ولا بعد الدنيا دار الا الجنة او النار . وقال الحسن البصري رحمة الله عليه امس اجل واليوم عمل وغدا امل . فأخذ ابو العتاهية هذا المعنى فنظمه شعرا

ليس فيما مضى ولا في الذي يأ * تيك من لذة لمستحليها
انما أنت طول عمرك ما عمرت في الساعة التى أنت فيها
علل النفس بالكفاف والا * طلبت منك فوق ما يكفيها

وقيل لزاهد مالك تمشي على العصا ولست بكبير ولا مريض فقال اني اعلم أني مسافر وأنها دار بلغة وأن العصا من آلة السفر . فأخذه بعض الشعراء فقال

حملت العصا لا الضعف اوجب حملها * علىّ ولا أنى تحنيت من كبر
ولكنني ألزمت نفسي حملها * لاعلمها أني مقيم على سفر

وقال بعض المتصوفة الدنيا ساعة فاجعلها طاعة . وقال ذوالقرنين عليه السلام رتعنا في الدنيا جاهلين وعشنا فيها غافلين واخرجنا منها كارهين . وقال عبد الحميد المرء أسير عمر يسير . وقيل في بعض المواعظ عجبا لمن يخاف العقاب كيف لا يكف عن المعاصي وعجبا لمن يرجو الثواب كيف لا يعمل . وقال بعض الحكماء المسئ ميت وان كان في دار الحياة والمحسن حي وان كان في دار الاموات وكل بالاثر يومه او غده . وقال بعض السلف الله المستعان على ألسنة تصف وقلوب تعرف واعمال تخالف . وقال آخر الليل والنهار يعملان فيك فاعمل فيهما . وقال آخر اعملوا لآخرتكم في هذه الايام التي تسير كأنها تطير . وقال آخر الموت قصاراك فخذ من دنياك لاخراك . وقال آخر عباد الله الحذرَ الحذر فوالله لقد ستر حتى كأنه قد غفر ولقد امهل حتى كأنه قد اهمل . وقال آخر الايام صحائف أعمالكم فخلدوها أجمل أفعالكم . وقيل في منثور الحكم اقبل نصح المشيب وان عجل وقيل ما طلعت شمس الا وعظت بامس . وقال محمد بن بشير رحمه الله

مضى أَمْسُكَ الادنى شهيدا معدّلا * ويومك هذا بالفعال شهيد
فان تك بالامس اقترفت اساءة * فثنّ باحسان وأنت حميد
ولا ترج فعل الخير منك الى غد * لعل غدا يأتي وانت فقيد

وروى ابو هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ما رأيت مثل الجنة نام طالبها وما رأيت مثل النار نام هاربها . وقال عيسى بن مريم عليهما السلام ألا ان اولياء الله الذين لاخوف عليهم ولاهم يحزنون الذين نظروا الى باطن الدنيا حين نظر الناس الى ظاهرها والى آجل الدنيا حين نظر الناس الى عاجلها فاماتوا منها ما خشوا ان يميت قلوبهم وتركوا منها ما علموا انه سيتركهم . وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه الناس طالبان يطلبان فطالب يطلب الدنيا فارفضوها في نحره فانه ربما ادرك الذي يطلبه منها فهلك بما اصاب منها وطالب يطلب الآخرة فاذا رأيتم طالبا يطلب الآخرة فنافسوه فيها . ودخل ابو الدرداء رضى الله عنه الشام فقال يا أهل الشام اسمعوا قول اخ ناصح فاجتمعوا عليه فقال مالى أراكم تبنون ما لا تسكنون وتجمعون ما لا تأكلون ان الذين كانوا قبلكم بنوا مشيدا واملوا بعيدا وجمعوا كثيرا فاصبح املهم غرورا وجمعهم ثبورا ومساكنهم قبورا . وقال ابو حازم ان الدنيا غرت اقواما فعملوا فيها بغير الحق فعاجلهم الموت فخلفوا ما لهم لمن لا يحمدهم وصاروا لمن لا يعذرهم وقد خلقنا بعدهم فينبغي ان ننظر للذي كرهناه منهم فنجتنبه والذي غبطناهم به فنستعمله . ومر بعض الزهاد بباب ملك فقال باب جديد وموت عتيد وسفر بعيد . ومر بعض الزهاد

برجل قد اجتمع عليه الناس فقال ما هذا قالوا مسكين سرق منه رجل جبة ومر به آخر فاعطاه جبة فقال صدق الله ان سعيكم لشتى . وقال بعض الحكماء ما انصف من نفسه من أيقن بالحشر والحساب وزهد في الاجر والثواب . وقال آخر بطول الامل تقسو القلوب وباخلاص النية تقل الذنوب . وقال آخر اياك والمنى فانها من بضائع النوكى وتثبط عن الآخرة والاولى . وقال آخر قصر أملك فان العمر قصير وأحسن سيرتك فالبر يسير . وقال عبدالله ابن المعتز رحمه الله

نسير الى الآجال في كل ساعة * وايامنا تطوى وهن رواحل
ولم نر مثل الموت حقا كأنه * اذا ما تخطته الامانيّ باطل
وما أقبح التفريط في زمن الصبا * فكيف به والشيب في الراس نازل
ترحل عن الدنيا بزاد من التقى * فعمرك ايام تعد قلائل

وكان عبد الملك بن مروان يتمثل بهذين البيتين

فاعمل على مهل فانك ميت * واكدح لنفسك ايها الانسان
فكأن ما قد كان لم يك اذ مضى * وكأن ما هو كائن قد كان

ونظر سليمان بن عبد الملك في المرآة فقال انا الملك الشاب فقال له جارية له

أنت نعم المتاع لو كنت تبقى * غير أن لا بقاء للانسان
ليس فيما بدا لنا منك عيب * كان في الناس غير أنك فاني

وروى عبد العزيز بن عبد الصمد عن ابان عن أنس قال خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على ناقته الجدعاء فقال ايها الناس كأن الموت فيها على غيرنا كتب وكأن الحق فيها على غيرنا وجب وكأن الذين نشيّع من الاموات سفر عما قليل الينا راجعون نبوّئهم اجداثهم ونأكل تراثهم كأنا مخلدون بعدهم قد نسينا كل واعظة وامنا كل جائحة طوبى لمن شغله عيبه عن عيب غيره وانفق من مال كسبه من غير معصية ورحم اهل الدين والمسكنة وخالط اهل الفقه والحكمة طوبى لمن ادب نفسه وحسنت خليقته وصلحت سريرته طوبى لمن عمل بعلم وانفق من فضل وامسك من قوله ووسعته السنة ولم يعدها الى بدعة . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال زوروا القبور تذكروا بها الآخرة وغسلوا الموتى فان معالجة الاجساد الخاوية موعظة بليغة . وحفر الربيع بن خيثم في داره قبرا فكان اذا وجد في قلبه قسوة جاء فاضطجع فى القبر فمكث ما شاء الله ثم يقول رب ارجعون لعلى اعمل صالحا فيما تركت ثم يرد على نفسه فيقول قد أرجعتك فجدّى فمكث كذلك ما شاء الله

وقال ابو محرز الطفاوى كفتك القبور مواعظ الامم السالفة . وقيل لبعض الزهاد ما ابلغ العظات قال النظر الى محلة الاموات فاخذه ابو العتاهية فقال

وعظتك اجداث صمت * ونعتك أزمنة خفت
وتكلمت عن اوجه * تبلى وعن صور سبت
وارتك قبرك في الحيا * ة وانت حى لم تمت
يا شامتا بمنيتي * ان المنية لم تفت
فلربما انقلب الشما * ت فحل بالقوم الشمت

ووجد على قبر مكتوبا قهرنا من قهرنا فصرنا للناظرين عبرة . وعلى آخر من امّل البقاء وقد رأى مصارعنا فهو مغرور . وقيل في منثور الحكم ما اكثر من يعرف الحق ولا يطيعه وقال بعض الحكماء من لم يمت لم يفت وقال بعض الصلحاء لنا من كل ميت عظة بحاله وعبرة بماله . وقال بعض العلماء من لم يتعظ بموت ولد لم يتعظ بقول احد . وقال بعض البلغاء ما نقصت ساعة من أمسِكَ الا ببضعة من نفسك فاخذه ابو العتاهية فقال

ان مع الدهر فاعلمن غدا * فانظر بما ينقضي مجيء غده
ما ارتد طرف امرئ بلذته * الا وشيء يموت من جسده

ولما مات الاسكندر قال بعض الحكماء كان الملك أمس انطق منه اليوم وهو اليوم اوعظ منه امس فاخذ ابو العتاهية هذا المعنى فقال

كفى حزنا بدفنك ثم اني * نفضت تراب قبرك عن يديا
وكانت في حياتك لي عظات * وانت اليوم اوعظ منك حيا

وقال بعض الحكماء لو كان للخطايا ريح لافتضح الناس ولم يتجالسوا فاخذ هذا المعنى أبو العتاهية فقال

أحسن الله بنا ان الخطايا لا تفوح
فاذا المستور منا * بين ثوبيه فضوح

وهذا جميعه مأخوذ من قول النبي صلى الله عليه وسلم لو تكاشفتم ما تدافنتم . وكتب رجل الى أبي العتاهية فقال

ياأبا اسحق انى * واثق منك بودك
فأعِنّي بابي انـ * ـت على عيبي برشدك

(فاجابه بقوله)

أطع الله بجهـــدك * راغبا اودون جهدك
أعطِ مَوْلاك الذي تط * لب من طاعة عبدك

وقال بعض الحكماء من سره بنوه ساءته نفسه فاخذ هذا المعني ابو العتاهية فقال

ابن ذي الابن كلما زاد منه * مشرع زاد في فنـاء ابيه
ما بقاء الاب الملح عليـه * بدبيب البلا شـباب بنيه

وفي معناه ماحكى عن زر بن حبيش انه عاش مائة وعشرين سنة فلما حضرته الوفاة انشد يقول

اذا الرجال ولدت اولادهـا * وارتعشت من كبر اجسادها
وجعلت اسـقامها تعتادها * تلك زروع قد دنا حصادها

(وكتب رجل الى صالح بن عبد القدوس)

الموت باب وكل الناس داخـله * فليت شعرى بعد الباب ما الدار

(فاجابه بقوله)

الدار جنات عدن ان عملت بمـا * يرضي الاله وان خالفت فالنار
هما محـلان ما للنـاس غـيرهما * فانظر لنفسك ماذا انت مختار

باب ادب الدنيا

اعلم ان الله تعالى لنافذ قدرته وبالغ حكمته خلق الخلق بتدبيره وفطرهم بتقديره فكان من لطيف ما دبره وبديع ما قدره انه خلقهم محتاجين وفطرهم عاجزين ليكون بالغنى منفردا وبالقدرة مختصا حتى يشعرنا بقدرته انه خالق ويعلمنا بغناه انه رازق فنذعن بطاعته رغبة ورهبة ونقر بنقائصنا عجزا وحاجة ثم جعل الانسان اكثر حاجة من جميع الحيوان لان من الحيوان مايستقل بنفسه عن جنسـه والانسان مطبوع على الافتقار الى جنسه واستعانته صفة لازمة لطبعه وخلقة قائمة في جوهره ولذلك قال الله سبحانه وتعالى وخلق الانسان ضعيفا يعنى عن الصبر عما هو اليه مفتقر واحتمال ما هو عنه عاجز ولما كان الانسان اكثر حاجة من جميع الحيوان كان اظهر عجزا لان الحاجة الى الشئ افتقار اليه والمفتقر الى الشئ عاجز به .

وقال بعض الحكماء المتقدمين استغناؤك عن الشيء خير من استغنائك به وانما خص الله تعالى الانسان بكثرة الحاجة وظهور العجز نعمة عليه ولطفا به ليكون ذل الحاجة ومهانة العجز

يمنعانه من طغيان الغنى وبغي القدرة لان الطغيان مركوز في طبعه اذا استغنى والبغى مُسْتَوْلٍ عليه اذا قدر وقد انبأ الله تعالى بذلك عنه فقال كلا ان الانسان ليطغى ان رآه استغنى ثم ليكون اقوى الامور شاهدا على نقصه واوضحها دليلا على عجزه . وانشدني بعض اهل الادب لابن الرومى رحمه الله

اعيرتني بالنقص والنقص شامل * ومن ذا الذي يعطى الكمال فيكمل
واشهد انى ناقص غير اننى * اذا قيس بى قوم كثير تقللوا
تفاضل هذا الخلق بالفضل والحجا * ففى أيما هذين انت مفضل
ولو منح الله الكمال ابن آدم * لخلده والله ما شاء يفعل

ولما خلق الله الانسان ماس الحاجة ظاهر العجز جعل لنيل حاجته اسبابا ولدفع عجزه حيلة دله عليها بالعقل وارشده اليها بالفطنة . قال الله تعالى والذى قدر فهدى . قال مجاهد قدر احوال خلقه فهدى الى سبيل الخير والشر . وقال ابن مسعود في قوله تعالى وهديناه النجدين يعنى الطريقين طريق الخير وطريق الشر ثم لما كان العقل دالا على اسباب ماتدعو اليه الحاجة جعل الله تعالى الادراك والظفر موقوفا على ما قسم وقدر كيلا يعتمدوا في الارزاق على عقولهم وفي العجز على فطنهم لتدوم له الرغبة والرهبة ويظهر منه الغنى والقدرة وربما غرب هذا المعنى على من ساء ظنه بخالقه حتى صار سببا لضلاله كما قال الشاعر

سبحان من انزل الايام منزلها * وصير الناس مرفوضا ومرموقا
فعاقل فطن اعيت مذاهبه * وجاهل خرق تلقاه مرزوقا
هذا الذي ترك الالباب حائرة * وصير العاقل النحرير زنديقا

ولوحسن ظن العاقل فى صحة نظره لعلم من علل المصالح ما صار به صديقا لا زنديقا لان من علل المصالح ماهو ظاهر ومنها ما هو غامض ومنها ماهو مغيب حكمة استأثر بها . ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم حسن الظن بالله من عبادة الله ثم ان الله تعالى جعل اسباب حاجاته وحيل عجزه فى الدنيا التى جعلها دار تكليف وعمل كماجعل الآخرة دار قرار وجزاء فلزم لذلك ان يصرف الانسان الى دنياه حظا من عنايته لانه لاغنى له عن التزود منها لآخرته ولا له بد من سد الخلة فيها عند حاجته وليس في هذا القول نقض لما ذكرنا قبل من ترك فضولها وزجر النفس عن الرغبة فيها بل الراغب فيها ملوم وطالب فضولها مذموم والرغبة انما تختص بما جاوز قدر الحاجة والفضول انما ينطلق على ما زاد على قدر الكفاية . وقد قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم فاذا فرغت فانصب والى ربك فارغب . قال اهل التأويل فاذا فرغت

من امور دنياك فانصب في عبادة ربك وليس هذا القول منه ترغيبا لنبيه صلى الله عليه وسلم فيها ولكن ندبه الى أخذ البلغة منها وعلى هذا المعنى قال صلى الله عليه وسلم ليس خيركم من ترك الدنيا للآخرة ولا الآخرة للدنيا ولكن خيركم من اخذ من هذه وهذه. وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال نعم المطية الدنيا فارتحلوها تبلغكم الآخرة .وذم رجل الدنيا عند علي بن ابى طالب كرم الله وجهه فقال رضى الله عنه الدنيا دار صدق لمن صدقها ودار نجاة لمن فهم عنها ودار غنى لمن تزود منها .وحكى مقاتل أن ابراهيم الخليل على نبينا وعليه الصلاة والسلام قال يارب حتى متى اتردد في طلب الدنيا فقيل له أمسك عن هذا فليس طلب المعاش من طلب الدنيا . وقال سفيان الثوري رحمة الله عليه مكتوب في التوراة اذا كان في البيت بُرٌّ فتعبد واذا لم يكن فاطلب ياابن آدم حَرِّك يدك يسبب لك رزقك .وقال بعض الحكماء ليس من الرغبة اكتساب مايصون العرض فيها .وقال بعض الادباء ليس من الحرص اجتلاب مايقوت البدن . وقال محمود الوراق

لاتتبع الدنيا وأيامها * ذما وان دارت بك الدائره
من شرف الدنيا ومن فضلها * أنّ بها تستدرك الآخره

فاذا قد لزم بما بيّنّاه النظر في أمور الدنيا فواجب ستر احوالها والكشف عن جهة انتظامها واختلالها لنعلم اسباب صلاحها وفسادها ومواد عمرانها وخرابها لتنفى عن اهلها شُبَهَ الحيره وتنجلي لهم أسباب الخيره فيقصدوا الامور من أبوابها ويعتمدوا صلاح قواعدها وأسبابها . واعلم أن صلاح الدنيا معتبر من وجهين اوّلهما ماينتظم به أمور جملتها والثانى مايصلح به حال كل واحد من اهلها فهما شيئان لاصلاح لاحدهما الا بصاحبه لان من صلحت حاله مع فساد الدنيا واختلال امورها لن يعدم أن يتعدى اليه فسادها ويقدح فيه اختلالها لان منها يستمد ولها يستعد ومن فسدت حاله مع صلاح الدنيا وانتظام امورها لم يجد لصلاحها لذة ولا لاستقامتها اثرا لان الانسان دنياه نفسه فليس يرى الصلاح الا اذا صلحت له ولا يجد فساد الا اذا فسدت عليه لان نفسه اخص وحاله امسّ فصار نظره الى مايخصه مصروفا وفكره على مايمسه موقوفا واعلم ان الدنيا لم تكن قط لجميع اهلها مسعدة ولا عن كافة ذويها معرضة لان اعراضها عن جميعهم عطب واسعادها لكافتهم فساد لائتلافهم بالاختلاف والتباين واتفاقهم بالمساعدة والتعاون فاذا تساوى جميعهم لم يجد احدهم الى الاستعانة بغيره سبيلا وبهم من الحاجة والعجز ماوصفنا فيذهبوا ضيعة ويهلكوا عجزا واذا تباينوا واختلفوا صاروا مؤتلفين بالمعونة متواصلين بالحاجة لان ذا الحاجة وصول

والمحتاج اليه موصول . وقد قال الله تعالى ولا يزالون مختلفين الا من رحم ربك ولذلك خلقهم . قال الحسن مختلفين في الرزق فهذا غني وهذا فقير ولذلك خلقهم يعني للاختلاف بالغنى والفقر . وقال الله تعالى والله فضل بعضكم على بعض في الرزق غير أن الدنيا اذا صلحت كان اسعادها موفورا واعراضها ميسورا الا أنها اذا منحت هنئت واودعت واذا استردّت رفقت وأبقت واذا فسدت الدنيا كان اسعادها مكرا واعراضها غدرا لانها اذا منحت كدّت وأتعبت واذا استردّت استأصلت واجحفت ومع هذا فصلاح الدنيا مصلح لسائر اهلها لوفور اماناتهم وظهور دياناتهم وفسادها مفسد لسائر اهلها لقلة اماناتهم وضعف دياناتهم وقد وجد ذلك في مشاهد الحال تجربة وعرفا كما يقتضيه دليل الحال تعليلا وكشفا فلا شيء انفع من صلاحها كما لا شيء اضر من فسادها لان ما تقوى به ديانات الناس وتتوفر اماناتهم فلا شيء احق به نفعا كما أن مابه تضعف دياناتهم وتذهب اماناتهم فلا شيء اجدر به ضررا . وانشدت لابي بكر بن دريد

الناس مثل زمانهم * قدّ الحذاء على مثاله
ورجال دهرك مثل دهـ * ـرك في تقلبه وحاله
وكذا اذا فسد الزما * ن جرى الفساد على رجاله

واذ قد بلغ بنا القول الى ذلك فسنبدأ بذكر ما يصلح الدنيا ثم نتلوه بوصف ما يصلح به حال الانسان فيها . اعلم أن مابه تصلح الدنيا حتى تصير احوالها منتظمة وامورها ملتئمة ستة اشياء هي قواعدها وان تفرعت وهي دين متبع وسلطان قاهر وعدل شامل وأمن عام وخصب دائم وامل فسيح . فاما القاعدة الاولى فهي الدين المتبع فلأنه يصرف النفوس عن شهواتها ويعطف القلوب عن ارادتها حتى يصير قاهرا للسرائر زاجرا للضمائر رقيبا على النفوس في خلواتها نصوحا لها في ملماتها وهذه الامور لا يوصل بغير الدين اليها ولا يصلح الناس الا عليها فكان الدين اقوى قاعدة في صلاح الدنيا واستقامتها واجدى الامور نفعا في انتظامها وسلامتها ولذلك لم يخل الله تعالى خلقه مذ فطرهم عقلاء من تكليف شرعي واعتقاد ديني ينقادون لحكمه فلا تختلف بهم الآراء ويستسلمون لامره فلا تتصرف بهم الاهواء وانما اختلف العلماء رضى الله عنهم في العقل والشرع هل جاآ مجيئا واحدا ام سبق العقل ثم تبعه الشرع فقالت طائفة جاء العقل والشرع معا مجيئا واحدا لم يسبق احدهما صاحبه . وقالت طائفة اخرى سبق العقل ثم تبعه الشرع لان بكمال العقل يستدل على صحة الشرع . وقد قال الله تعالى أيحسب الانسان ان يترك سُدًى وذلك لا يوجد منه الا عند كمال

عقله فثبت أن الدين من أقوى القواعد في صلاح الدنيا وهو الفرد الاوحد في صلاح الآخرة وماكان به صلاح الدنيا والآخرة فحقيق بالعقل أن يكون به متمسكا وعليه محافظا . وقال بعض الحكماء الادب أدبان ادب شريعة وادب سياسة فادب الشريعة ما ادى الفرض وأدب السياسة ما عمر الارض وكلاهما يرجع الى العدل الذى به سلامة السلطان وعمارة البلدان لان من ترك الفرض فقد ظلم نفسه ومن خرب الارض فقد ظلم غيره . وقال سعيد ابن حميد ما صحة أبدا بنافعة حتى يصح الدين والخلق . واما القاعدة الثانية فهى سلطان قاهر تتألف من رهبته الاهواء المختلفة وتجتمع لهيبته القلوب المتفرقة وتنكف بسطوته الايدي المتغالبة وتمتنع من خوفه النفوس العادية لان في طباع الناس من حب المغالبة على ما آثروه والقهر لمن عاندوه ما لا ينكفون عنه الا بمانع قويّ ورادع ملىّ . وقد أفصح المتنبي بذلك في قوله

لا يسلم الشرف الرفيع من الاذى * حتى يراق على جوانبه الدم

والظلم من شِيَم النفوس فان تجد * ذا عفة فلعلة لا يظلم

وهذه العلة المانعة من الظلم لاتخلو من أحد أربعة أشياء اما عقل زاجر أو دين حاجر اوسلطان رادع او عجز صادّ فاذا تأملتها لم تجد خامسا يقترن بها ورهبة السلطان ابلغها لان العقل والدين ربما كانا مضعوفين أو بدواعي الهوى مغلوبين فتكون رهبة السلطان اشد زجرا وأقوى ردعا . وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال السلطان ظل الله في الارض يأوي اليه كل مظلوم . وروى عنه صلى الله عليه وسلم انه قال ان الله لَيَزَعُ بالسلطان اكثر مما يزع بالقرآن وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ان لله حُرّاسا فى السماء وحراسا في الارض فحراسه في السماء الملائكة وحراسه في الارض الذين يقبضون ارزاقهم يذبون عن الناس . وروى عن النبي صلي الله عليه وسلم انه قال الامام الجائر خير من الفتنة وكل لاخير فيه وفي بعض الشر خير . وقال ابو هريرة رضى الله عنه سبت العجم بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم فنهى عن ذلك وقال لا تسبوها فانها عمرت بلاد الله تعالى فعاش فيها عباد الله تعالى . وقال بعض البلغاء السلطان في نفسه امام متبوع وفي سيرته دين مشروع فان ظلم لم يعدل أحد في حكم وان عدل لم يجسر أحد على ظلم . وقال بعض الادباء ان اقرب الدعوات من الاجابة دعوة السلطان الصالح واولى الحسنات بالاجر والثواب امره ونهيه في وجوه المصالح فهذه آثار السلطان فيأحوال الدنيا ومايتنظم به امورها ثم لما في السلطان من حراسةالدين والدنيا والذب عنهما ودفع الاهواء منه وحراسة التبديل فيه وزجر من شذ عنه بارتداد او بغى فيه بعناد او سعى فيه بفساد وهذه امور ان لم تحسم عن الدين بسلطان قوي

ورعاية وافية اسرع فيه تبديل ذوي الاهواء وتحريف ذوي الآراء فليس دين زال سلطانه الا بدلت احكامه وطمست اعلامه وكان لكل زعيم فيه بدعة ولكل عصر فيه وهاية أثر كما ان السلطان ان لم يكن على دين تجتمع به القلوبُ حتى يرى اهله الطاعة فيه فرضا والتناصر عليه حتما لم يكن للسلطان لبث ولا لايامه صفو وكان سلطان قهر ومفسدة دهر ومن هذين الوجهين وجب اقامة امام يكون سلطان الوقت وزعيم الامة ليكون الدين محروسا بسلطانه والسلطان جاريا على سنن الدين واحكامه . قال عبد الله بن المعتز الملك بالدين يبقى والدين بالملك يقوى واختلف الناس هل وجب بالعقل او بالشرع فقالت طائفة وجب بالعقل لانه معلوم من حال العقلاء على اختلافهم الفزع الى زعيم مندوب للنظر في مصالحهم وذهب آخرون الى وجوبه بالشرع لان المقصود بالامام القيام بامور شرعية كاقامة الحدود واستيفاء الحقوق وقد كان يجوز الاستغناء عنها بان لا يراد التعبد بها فبأن يجوز الاستغناء عما لا يراد الا لها أولى وعلى هذا اختلفوا في وجوب بعثة الانبياء فمن قال بوجوب ذلك بالعقل قال بوجوب بعثة الانبياء ومن قال بوجوب ذلك بالشرع منع من وجوب بعثة الانبياء لانه لما كان المقصود ببعثتهم تعريف المصالح الشرعية وكان يجوز من المكلفين ان لا تكون هذه الامور مصلحة لهم لم يجب بعثة الانبياء اليهم فاما اقامة امامين او ثلاثة في عصر واحد وبلد واحد فلا يجوز اجماعا فاما في بلدان شتى وامصار متباعدة فقد ذهبت طائفة شاذة الى جواز ذلك لان الامام مندوب للمصالح واذا كان اثنان في بلدين او ناحيتين كان كل واحد منهما أقوم بما في يديه وأضبط لما يليه ولانه لما جاز بعثة نبيين في عصر واحد ولم يؤدّ ذلك الى ابطال النبوة كانت الامامة اولى ولا يؤدى ذلك الى ابطال الامامة وذهب الجمهور الى ان اقامة امامين في عصر واحدلا يجوز شرعا لماروى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال اذا بويع اميران فاقتلوا احدهما . وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال اذا وليتم ابا بكر تجدوه قويا في دين الله عز وجل ضعيفا في بدنه واذا وليتم عمر تجدوه قويا في دين الله عز وجل قويا في بدنه وان وليتم عليا تجدوه هاديا مهديا فبين بظاهر هذا هذا الكلام ان اقامة جميعهم في عصر واحد لا يصح ولو صح لاشار اليه ولنبه عليه والذي يلزم سلطان الامة من امورها سبعة اشياء احدها حفظ الدين من تبديل فيه والحث على العمل به من غير اهمال له والثاني حراسة البيضة والذب عن الامة من عدو في الدين او باغي نفس او مال والثالث عمارة البلدان باعتماد مصالحها وتهذيب سبلها ومسالكها والرابع تقدير ما يتولاه من الاموال بسنن الدين من غير تحريف في اخذها واعطائها والخامس معاناة المظالم والاحكام بالتسوية بين اهلها واعتماد النصفة في فصلها

والسادس اقامة الحدود على مستحقها من غير تجاوز فيها ولا تقصير عنها والسابع اختيار خلفائه في الامور أن يكونوا من اهل الكفاية فيها والامانة عليها فاذا فعل من أفضى اليه سلطان الامة ما ذكرنا من هذه الاشياء السبعة كان مؤديا لحق الله تعالى فيهم مستوجبا لطاعتهم ومناصحتهم مستحقا لصدق ميلهم ومحبتهم وان قصر عنها ولم يقم بحقها وواجبها كان بها مؤاخذا ثم هو من الرعية على استبطان معصية ومقت يتربصون الفرص لاظهارها ويتوقعون الدوائر لاعلانهما . وقد قال الله تعالى قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم او يلبسكم شيعا . وفي قوله تعالى عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم تأويلان أحدهما أن العذاب الذي هو من فوقهم أمراء السوء والذي من تحت أرجلهم عبيد السوء وهذا قول ابن عباس رضي الله عنهما والثاني أن العذاب الذي هو من فوقهم الرجم والذي من تحت ارجلهم الخسف وهذا قول مجاهد وسعيد بن جبير وفي قوله تعالى أو يلبسكم شيعا تأويلان أحدهما أنه الاهواء المختلفة وهذا قول ابن عباس رضي الله عنهما والثانى أنه الفتن والاختلاط وهذا قول مجاهد . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ما من أمير على عشرة الا وهو يجيء يوم القيامة مغلولة يداه الى عنقه حتى يكون عمله هو الذى يطلقه او يوبقه . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال خير أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم وشر أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم وتلعنونهم ويلعنونكم وهذا صحيح لانه اذا كان ذا خير احبهم واحبوه واذا كان ذا شر ابغضهم وابغضوه . وقد كتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه الى سعد بن ابى وقاص رضي الله عنه ان الله تعالى اذا احب عبدا حببه الله الى خلقه فاعرف منزلتك من الله تعالى بمنزلتك من الناس واعلم ان مالك عند الله مثل ما لله عندك فكان هذا موضحا لمعنى ما ذكرنا واصل هذا أن خشية الله تبعث على طاعته في خلقه وطاعته في خلقه تبعث على محبته فلذلك كانت محبتهم دليلا على خيره وخشيته وبغضهم دليلا على شره وقلة مراقبته . وقد قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه لبعض خلفائه اوصيك ان تخشى الله في الناس ولا تخشى الناس في الله . وقال عمر بن عبد العزيز لبعض جلسائه اني اخاف الله فيما تقلدت فقال له لست اخاف عليك ان تخاف الله وانما اخاف عليك ان لا تخاف الله وهذا واضح لان الخائف من الله تعالى مأمون . كالذى روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه انه قال لابى مريم السلولي وكان هو الذي قتل اخاه زيدا والله انى لا احبك حتى تحب الارض الدم قال أفيمنعني ذلك حقا قال لا قال فلا ضير انما يأسى على الحب النساء . وروى عبد الرحمن ابن محمد قال اصدق طلحة بن عبد الله ام كلثوم بنت ابى بكر مائة الف درهم وهو اول من

اصدق هذا القدر فمر بالمال على عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال ما هذا قالوا صداق ام كلثوم ابنة ابي بكر فقال ادخلوه بيت المال فاخبر بذلك طلحة وقيل له كلمه في ذلك فقال ما أنا بفاعل لئن كان عمر يرى له فيه حقا لايردّه لكلامي وان كان لايرى فيه حقا ليردّنه قال فلما اصبح عمر امر بالمال فدفع الى ام كلثوم . وحكى ان الرشيد حبس ابا العتاهية فكتب على حائط الحبس

اما والله انّ الظلم شؤم * وما زال المسيء هو الظلوم
الى دَيّان يوم الدين نمضى * وعند الله تجتمع الخصوم
ستعلم في المعاد اذا التقينا * غدا عند المليك مَن الظلوم

فاخبر الرشيد بذلك فبكى بكاء شديدا ودعى بابي العتاهية فاستحله ووهب له الف دينار واطلقه واما القاعدة الثالثة فهى عدل شامل يدعو الى الالفة ويبعث على الطاعة وتتمر به البلاد وتنمو به الاموال ويكثر معه النسل ويأمن به السلطان فقد قال الهرمزان لعمر حين رآه وقد نام متبذلا عدلت فامنت فنمت وليس شيء اسرع في خراب الارض ولا افسد لضمائر الخلق من الجور لانه ليس يقف على حد ولا ينتهى الى غاية ولكل جزء منه قسط من الفساد حتى يستكمل . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال بئس الزاد الى المعاد العدوان على العباد . وقال صلى الله عليه وسلم ثلاث منجيات وثلاث مهلكات فاما المنجيات فالعدل في الغضب والرضى وخشيه الله في السر والعلانية والقصد في الغنى والفقر واما المهلكات فشح مطاع وهوى متبع واعجاب المرء بنفسه . وحكى ان الاسكندر قال لحكماء الهند وقد رأى قلة الشرائع بها لم صارت سنن بلادكم قليلة قالوا لاعطائنا الحق من انفسنا ولعدل ملوكنا فينا فقال لهم ايما افضل العدل او الشجاعة قالوا اذا استعمل العدل اغنى عن الشجاعة . وقال بعض الحكماء بالعدل والانصاف تكون مدة الائتلاف . وقال بعض البلغاء ان العدل ميزان الله الذي وضعه للخلق ونصبه للحق فلا تخالفه في ميزانه ولا تعارضه في سلطانه واستعن على العدل بخلتين قلة الطمع وكثرة الورع فاذا كان العدل من احدى قواعد الدنيا التي لا انتظام لها الا به ولا صلاح فيها الا معه وجب ان نبدأ بعدل الانسان في نفسه ثم بعدله في غيره فاما عدله فى نفسه فيكون بحملها على المصالح وكفها عن القبائح ثم بالوقوف في احوالها على اعدل الامرين من تجاوز او تقصير فان التجاوز فيها جور والتقصير فيها ظلم ومن ظلم نفسه فهو لغيره اظلم ومن جار عليها فهو على غيره اجور . وقد قال بعض الحكماء من توانى في نفسه ضاع واما عدله في غيره فقد ينقسم حال الانسان مع غيره على ثلاثة اقسام فالقسم الاول عدل الانسان فيمن دونه كالسلطان في رعيته

والرئيس مع صحابته فعدله فيهم يكون باربعة أشياء باتباع الميسور وحذف المعسور وترك التسلط بالقوة وابتغاء الحق في الميسور فان اتباع الميسور أدوم وحذف المعسور أسلم وترك التسلط أعطف على المحبة وابتغاء الحق أبعث على النصرة وهذه امور ان لم تسلم للزعيم المدبر كان الفساد بنظره أكثر والاختلاف بتدبيره أظهر . روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال اشد الناس عذابا يوم القيامة من اشركه الله في سلطانه فجار في حكمه . وقال بعض الحكماء الملك يبقى على الكفر ولا يبقى على الظلم . وقال بعض الادباء ليس للجائر جار ولا تعمر له دار . وقال بعض البلغاء أقرب الاشياء صرعة الظلوم وانفذ السهام دعوة المظلوم . وقال بعض حكماء الملوك العجب من ملك استفسد رعيته وهو يعلم أن عزه بطاعتهم . وقال ازدشير ابن بابك اذا رغب الملك عن العدل رغبت الرعية عن طاعته . وعوتب انوشروان على ترك عقاب المذنبين فقال هم المرضى ونحن الاطباء فاذا لم نداوهم بالعفو فمن لهم . والقسم الثانى عدل الانسان مع من فوقه كالرعية مع سلطانها والصحابة مع رئيسها فقد يكون بثلاثة اشياء باخلاص الطاعة وبذل النصرة وصدق الولاء فان اخلاص الطاعة اجمع للشمل وبذل النصرة ادفع للوهن وصدق الولاء انفى لسوء الظن وهذه امور ان لم تجتمع في المرء تسلط عليه من كان يدفع عنه واضطر الى اتقاء من يتقى به كما قال البحترى

متى احوجت ذا كرم تخطى * اليك ببعض اخلاق اللئام

وفي استمرار هذا حل نظام جامع وفساد صلاح شامل وقال ابرويس اطع من فوقك يطعك من دونك . وقال بعض الحكماء الظلم مسلبة النعم والبغى مجلبة النقم . وقال بعض الحكماء انا الله تعالى لا يرضى عن خلقه الا بتأدية حقه وحقه شكر النعمة ونصح الامة وحسن الصنيعة ولزوم الشريعة . والقسم الثالث عدل الانسان مع اكفائه ويكون بثلاثة اشياء بترك الاستطالة ومجانبة الادلال وكف الاذى لان ترك الاستطالة أألف ومجانبة الادلال اعطف وكف الاذى انصف وهذه امور ان لم تخلص في الاكفاء اسرع فيهم تقاطع الاعداء ففسدوا وافسدوا . وقد روى عمر بن عبد العزيز عن ابن عباس رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الا انبئكم بشرار الناس قالوا بلى يارسول الله قال من اكل وحده ومنع رِفْده وجلد عبده (وفي نسخة بدل هذا من لا يرجى خيره ولا يؤمن شره) ثم قال الا انبئكم بشر من ذلك قالوا بلى يا رسول الله قال من يبغض الناس ويبغضونه . وروى ان عيسى ابن مريم عليهما السلام قام خطيبا فى بني اسرائل فقال يا بني اسرائيل لا تتكلموا بالحكمة عند الجهال فتظلموها ولا تمنعوها اهلها فتظلموهم ولا تكافئوا ظالما فيبطل فضلكم

يا بنى اسرائيل الامور ثلاثة امر تبين رشده فاتبعوه وامر تبين غيه فاجتنبوه وامر اختلفتم فيه فردّوه الى الله تعالى وهذا الحديث جامع لآداب العدل في الاحوال كلها . وقال بعض الحكماء كل عقل لا يدارى به الكل فليس بعقل تام . وقال بعض الشعراء

ما دمت حيا فدار الناس كلهم * فانما انت في دار المداراة

من يدر دارى ومن لم يدر سوف يرى * عما قليل نديما للندامات

وقد يتعلق بهذه الطبقات امور خاصة يكون عدلهم فيها بالتوسط في حالتي التقصير والسرف لان العدل مأخوذ من الاعتدال فما جاوز الاعتدال فهو خروج عن العدل . وقد قالت الحكماء الفضائل هيئات بين خلتين ناقصتين وافعال الخير تتوسط بين رذيلتين (فالحكمة) واسطة بين الشر والجهالة (والشجاعة) واسطة بين التقحم والجبن (والعفة) واسطة بين الشره وضعف الشهوة (والسكينة) واسطة بين السخط وضعف الغضب (والغيرة) واسطة بين الحسد وسوء العادة (والظرف) واسطة بين الخلاعة والعرامة (والتواضع) واسطة بين الكبر ودناءة النفس (والسخاء) واسطة بين التبذير والتقتير (والحلم) واسطة بين افراط الغضب وعدمه (والمودة) واسطة بين الخلابة وحسن الخلق (والحياء) واسطة بين القحة والحقد (والوقار) واسطة بين الهزء والسخافة واذا كان ما خرج عن الاعتدال الى ما ليس باعتدال خروجا عن العدل الى ما ليس بعدل فالاولى اجتنابه والوقوف مع الاوسط اقتداءً بالحديث . وقال بعض البلغاء البلد السوء يجمع السفل ويورث العلل والولد السوء يشين السلف ويهدم الشرف والجار السوء يفشى السر ويهتك الستر فجعل هذه الاشياء بخروجها عن الاولى الى ما ليس باولى خروجا عن العدل الى ما ليس بعدل ولست تجد فسادا الا وسبب نتيجته الخروج فيه من حال العدل الى ما ليس بعدل من حالتى الزيادة والنقصان فإذاً لا شئ انفع من العدل كما لا شئ اضر مما ليس بعدل . وأما القاعدة الرابعة فهى أمن علم تطمئن اليه النفوس وتنتشر فيه الهمم ويسكن اليه البرئ ويأنس به الضعيف فليس لخائف راحة ولا لحاذر طمأنينة . وقد قال بعض الحكماء الامن أهنأ عيش والعدل أقوى جيش لان الخوف يقبض الناس عن مصالحهم ويحجزهم عن تصرفهم ويكفهم عن اسباب المواد التى بها قوام أودهم وانتظام جملتهم لان الامن من نتائج العدل والجور من نتائج ما ليس بعدل وقد يكون الجور تارة بمقاصد الآدميين الخارجة عن العدل وتارة يكون باسباب حادثة من غير مقاصد الآدميين فلا تكون خارجة عن حال العدل فمن أجل ذلك لم يكن ما سبق من حال العدل مقنعا عن ان يكون الامن في انتظام الدنيا قاعدة كالعدل فاذا كان ذلك كذلك فالامن

المطلق ماعم والخوف قد يتنوع تارة ويعم فتنوعه بان يكون تارة على النفس وتارة على الاهل وتارة على المال وعمومه أن يستوجب جميع الاحوال ولكل واحد من أنواعه حظ من الوهن ونصيب من الحزن وقد يختلف باختلاف اسبابه ويتفاضل بتباين جهاته ويكون بحسب اختلاف الرغبة فيماخيف عليه فمن أجل ذلك لم يجز أن يصف حال كل واحد من انواعه بمقدار من الوهن ونصيب من الحزن لاسيما والخائف على الشئ مختص الهم به منصرف الفكر عن غيره فهو يظن أن لاخوف له الا اياه فيغفل عن قدر النعمة بالامن فيما سواه فصار كالمريض الذي هو بمرضه متشاغل وعما سواه غافل ولعل ماصرف عنه اعظم مما ابتلى به

على انها تعفو الكلوم وانما * توكل بالادنى وان جل مايمضى

وحكى أن رجلا قال واعرابي حاضر ماأشد وجع الضرس فقال الاعرابى كل داء اشد داء وكذلك من عمه الامن كمن استولت عليه العافية فهو لايعرف قدر النعمة بامنه حتى يخاف كما لايعرف المعافي قدر النعمة حتى يصاب . وقال بعض الحكماء انما يعرف قدر النعمة بمقاساة ضدها فاخذ ذلك ابو تمام الطائى فقال

والحادثات وان أصابك بؤسها * فهو الذي أنباك كيف نعيمها

فالاولى بالعاقل ان يتذكر عند مرضه وخوفه قدر النعمة فيما سوى ذلك من عافيته وأمنه وما انصرف عنه مما هو أشد من مرضه وخوفه فيستبدل بالشكوى شكرا وبالجزع صبرا فيكون فرحا مسرورا . حكى أن يعقوب قال ليوسف عليهما السلام حين لقيه اى شئ كان خبرك بعدى قال لاتسأل عما فعله بي اخوتي سلني عما صنعه بي ربي . وقال الشاعر

لاتنس في الصحة أيام السقم * فان عقبى تارك الحزم ندم

وأما القاعده الخامسة فهى خصب دار تتسع النفوس به في الاحوال وتشترك فيه ذو الاكثار والاقلال فيقل في الناس الحسد وينتفى عنهم تباغض العدم وتتسع النفوس في التوسع وتكثر المواساة والتواصل وذلك من اقوى الدواعي لصلاح الدنيا وانتظام احوالها ولان الخصب يؤول الى الغنى والغنى يورث الامانة والسخاء وكتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه الى ابي موسى الاشعرى لا تستقضين الا ذا حسب ومال فان ذا الحسب يخاف العواقب وذا المال لايرغب في مال غيره . وقال بعض السلف انى وجدت خير الدنيا والآخرة في التقي والغني وشر الدنيا والآخرة في الفجور والفقر . وقال بعض الشعراء

ولم ار بعد الدين خيرا من الغني * ولم ار بعد الكفر شرا من الفقر

وبحسب الغني يكون اقلال البخيل واعطاؤه واكثار الجواد وسخاؤه كما قال دِعْبِل

لئن كنت لاتولي ندى دون امرأة * فلست بمول نائلا آخر الدهر
واى اناء لم يفض عند ملئه * وأي بخيل لم ينل ساعة الوفر

واذا كان الخصب يحدث من اسباب الصلاح ماوصفت كان الجدب يحدث من اسباب الفساد ماضادها وكما ان صلاح الخصب عام فكذلك فساد الجدب عام وما عم به الصلاح ان وجد وما عم به الفساد ان فقد فاحرى ان يكون من قواعد الصلاح ودواعى الاستقامة والخصب يكون من وجهين خصب في المكاسب وخصب في المواد فاما خصب المكاسب فقد يتفرع من خصب المواد وهو من نتائج الامن المقترن بها وأما خصب المواد فقد يتفرع من أسباب الهبة وهو من نتائج العدل المقترن بها . وأما القاعدة السادسة فهى امل فسيح يبعث على اقتناء مايقصر العمر عن استيعابه ويبعث على اقتناء ماليس يؤمل في دركه بحياة أربابه ولولا أن الثاني يرتفق بما انشأه الاول حتى يصير به مستغنيا لافتقر اهل كل عصر الى انشاء مايحتاجون اليه من منازل السكنى واراضي الحرث وفي ذلك من الاعواز وتعذر الامكان مالا خفاه به فلذلك ماأرفق الله تعالى خلقه باتساع الآمال الا حتى عمر به الدنيا فعم صلاحها وصارت تنتقل بعمرانها الى قرن بعد قرن فيتم الثاني ماابقاه الاول من عمارتها ويرمم الثالث ماأحدثه الثاني من شعثها لتكون احوالها على الاعصار ملتئمه وأمورها على مَرّ الدهور منتظمه ولو قصرت الآمال ماتجاوز الواحد حاجة يومه ولاتعدى ضرورة وقته ولكانت تنتقل الى من بعده خرابا لايجد فيها بلغة ولا يدرك منها حاجة ثم تنتقل الى من بعد باسوأ من ذلك حالا حتى لايمي بها نبت ولا يمكن فيها لبث . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال الامل رحمة من الله لامتي ولولاه لما غرس غارس شجرا ولا ارضعت ام ولدا . وقال الشاعر

وللنفوس وان كانت على وجل * من المنية آمال تقويها
فالمرء يبسطها والدهر يقبضها * والنفس تنشرها والموت يطويها

واما حال الامل في امر الآخرة فهو من اقوى الاسباب في الغفلة عنها وقلة الاستعداد لها وقد أفصح لبيد مع أعرابيته بما تبين به حال الامل فى الامرين فقال

واكذب النفس اذا حدثتها * ان صدق النفس يزرى بالامل
غير ان لاتكذبنها بالتقى * واجزها بالبر لله الاجل

وفرق مابين الآمال والاماني ان الآمال ماتقيدت بأسباب والاماني ماتجردت عنها فهذه القواعد الست التي تصلح بها أحوال الدنيا وتنتظم أمور جملتها فان كملت فيها كمل صلاحها وبعيد ان يكون أمر الدنيا تاما كاملا وأن يكون صلاحها عاما شاملا لانها موضوعة على

التغير والفناء منشأة على التصرم والانقضاء . وسمع بعض الحكماء رجلا يقول قلب الله الدنيا قال فاذا تستوى لانها مقلوبة . وقال بعض الشعراء

ومن عادة الايام أن خطوبها * اذا سر منها جانب ساء جانب.
وما أعرف الايام الا ذميمة * ولا الدهر الا وهو للثار طالب

وبحسب ما اختل من قواعدها يكون اختلالها

﴿ فصل ﴾ وأما ما يصلح به حال الانسان فيها فثلاثة أشياء هى قواعد امره ونظام حاله وهى نفس مطيعة الى رشدها منتهية عن غيها والفة جامعة تنعطف القلوب عليها ويندفع المكروه بها ومادة كافية تسكن نفس الانسان اليها ويستقيم اوده بها . فاما القاعدة الاولى التى هى نفس مطيعة فلانها اذا اطاعته ملكها واذا عصته ملكته ولم يملكها ومن لم يملك نفسه فهو بان لا يملك غيرها احرى ومن عصته نفسه كان بمعصية غيرها اولى . وقال بعض الحكماء لا ينبغي للعاقل ان يطلب طاعة غيره ونفسه ممتنعة عليه . وقد قال الشاعر

أتطمع ان يطيعك قلب سعدي * وتزعم ان قلبك قد عصاك

وطاعة نفسه تكون من وجهين احدهما نصح والثانى انقياد فاما النصح فهو ان ينظر الى الامور بحقائقها فيرى الرشد رشدا ويستحسنه ويرى الغي غيا ويستقبحه وهذا يكون ن صدق النفس اذا سلمت من دواعى الهوى ولذلك قيل من تفكر ابصر فاما الانقياد فهو ان تسرع الى الرشد اذا امرها وتنتهى عن الغي اذا زجرها وهذا يكون من قبول النفس اذا كفيت منازعة الشهوات . قال الله تعالى ويريد الذين يتبعون الشهوات ان تميلوا ميلا عظيما . وللنفس آداب هى تمام طاعتها وكمال مصلحتها وقد افردنا لها من هذا الكتاب بابا واقتصرنا في هذا الموضع على ماقد اقتضاه الترتيب واستدعاه التقريب . واما القاعدة الثانية وهى الالفة الجامعة فلان الانسان مقصود بالاذية محسود بالنعمة فاذا لم يكن آلفا مألوفا تخطفته ايدي حاسديه وتحكمت فيه اهواء اعاديه فلم تسلم له نعمة ولم تصف له مدة فاذا كان آلفا مألوفا انتصر بالالفة على اعاديه وامتنع من حاسديه فسلمت نعمته منهم وصفت مدته عنهم وان كان صفو الزمان عسرا وسلمه خطرا . وقد روى ابن جريج عن عطاء رحمهما الله عن جابر رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال المؤمن آلف مألوف ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف وخير الناس انفعهم للناس . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ان الله تعالى يرضى لكم ثلاثا ويكره لكم ثلاثا يرضى لكم ان تعبدوه ولا تشركوا به شيئا وان تعتصموا بحبله جميعا ولا تتفرقوا وان تناصحوا من ولّاه الله أمركم ويكره لكم قيل وقال

وكثرة السؤال واضاعة المال وكل ذلك حث منه صلى الله عليه وسلم على الالفة والعرب تقول من قل ذل . وقال قيس بن عاصم

ان القداح اذا اجتمعن فرامها * بالكسر ذو حنق وبطش أيد
عزت فلم تكسر وان هى بددت * فالوهن والتكثير للمتبدد

واذا كانت الالفة بما اثبت تجمع الشمل وتمنع الذل اقتضت الحال ذكر اسبابها وأسباب الالفة خمسة وهى الدين والنسب والمصاهرة والمودة والبر فاما الدين وهو الاول من أسباب الالفة فلأنه يبعث على التناصر ويمنع من التقاطع والتدابر وبمثل ذلك وصى رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه . فروى سفيان عن الزهرى عن أنس رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تقاطعوا ولا تدابروا ولا تحاسدوا وكونوا عباد الله اخوانا لا يحل لمسلم أن يهجر اخاه فوق ثلاث . وهذا وان كان اجتماعهم في الدين يقتضيه فهو على وجه التحذير من تذكرات الجاهلية واحن الضلالة فقد بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم والعرب اشد تقاطعا وتعاديا واكثر اخلاقا وتماديا حتى ان بنى الاب الواحد يتفرقون احزابا فتثير بينهم بالتحزب والافتراق احقاد الاعداء واحن البعداء وكانت الانصار اشدهم تقاطعا وتعاديا وكان بين الاوس والخزرج من الاختلاف والتباين اكثر من غيرهم الى ان اسلموا فذهبت احنهم وانقطعت عداوتهم وصاروا بالاسلام اخوانا متواصلين وبالفة الدين اعوانا متناصرين . قال الله تعالى واذكروا اذ كنتم اعداء فألف بين قلوبكم فاصبحتم بنعمته اخوانا يعنى اعداء في الجاهلية فألف بين قلوبكم بالاسلام . وقال تعالى ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودّا يعني حبا وعلى حسب التألف على الدين تكون العداوة فيه اذا اختلف اهله فان الانسان قد يقطع في الدين من كان به برا وعليه مشفقا هذا ابو عبيدة ابن الجراح وقد كانت له المنزلة العالية في الفضل والاثر المشهور في الاسلام قتل اباه يوم بدر واتى براسه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم طاعة لله عز وجل ولرسوله صلى الله عليه وسلم حين بقى على ضلاله وانهمك في طغيانه فلم تعطفه عليه رحمة ولا كفه عنه شفقة وهو من ابر الابناء تغليبا للدين على النسب وطاعة الله تعالى على طاعة الاب . وفيه انزل الله لا تجدوا قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادّون من حادّ الله ورسوله ولو كان آباءهم او ابناءهم او اخوانهم او عشيرتهم وقد يختلف اهل الدين على مذاهب شتى واراء مختلفة فيحدث بين المختلفين فيه من العداوة والتباين مثل ما يحدث بين المختلفين في الاديان وعلة ذلك ان الدين والاجتماع على العقد الواحد فيه لما كان اقوى اسباب الالفة كان الاختلاف فيه اقوى اسباب الفرقة واذا تكافأ

أهل الاديان المختلفة والمذاهب المتباينة ولم يكن احد الفريقين اعلى يدا وأكثر عددا كانت العداوة بينهم اقوى والاحن فيهم اعظم لانه ينضم الى عداوة الاختلاف تحاسد الاكفاء وتنافس النظراء . واما النسب وهو الثاني من اسباب الالفة فلان تعاطف الارحام وحمية القرابة يبعثان على التناصر والالفة ويمنعان من التخاذل والفرقة أنفةً من استعلاء الاباعد على الاقارب وتوقيا من تسلط الغرباء الاجانب . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ان الرحم اذا تماست تعاطفت ولذلك حفظت العرب أنسابها لما امتنعت عن سلطان يقهرها ويكف الاذى عنها لتكون به متظافرة على من ناواها متناصرة على من شاقّها وعاداها حتى بلغت بألفة الانساب تناصرها على القوي الايد وتحكمت به تحكم المتسلط المتشطط . وقد أعذر نبي الله لوط عليه السلام نفسه حين عدم عشيرة تنصره فقال لمن بعث اليه لو أن لي بكم قوة او آوي الى ركن شديد يعني عشيرة مانعة . وروى ابو سلمة عن ابي هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال رحم الله لوطا لقد كان يأوي الى ركن شديد يعني الله عز وجل . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم مابعث الله تعالى من بعده نبيا الا في ثروة من قومه . وقال وهب لقد وردت الرسل على لوط وقالوا ان ركنك لشديد . وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان لايترك المرء مُفْرِجا حتي يضمه الى قبيلة يكون فيها . قال الرياشي المفرج الذي لاينتمي الى قبيلة يكون منها وكل ذلك حث منه صلى الله عليه وسلم على الالفة وكف عن الفرقة . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم من كثر سواد قوم فهو منهم واذا كان النسب بهذه المنزلة من الالفة فقد تعرض له عوارض تمنع منها وتبعث على الفرقة المنافية لها فإذَنْ قد لزم ان نَصِفَ حال الانساب وما يعرض لها من الاسباب فجملة الانساب انها تنقسم ثلاثة أقسام قسم والدون وقسم مولودون وقسم مناسبون ولكل قسم منهم منزلة من البر والصلة وعارض يطرأ فيبعث على العقوق والقطيعة . فاما الوالدون فهم الآباء والامهات والاجداد والجدات وهم موسومون مع سلامة احوالهم بخلقين احدهما لازم بالطبع والثاني حادث باكتساب فاما ماكان لازما بالطبع فهو الحذر والاشفاق وذلك لا ينتقل عن الوالد بحال . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال الولد مبخلة مجهلة محزنة فاخبر ان الحذر عليه يكسب هذه الاوصاف ويحدث هذه الاخلاق وقد كره قوم طلب الولد كراهة لهذه الحالة التي لا يقدر على دفعها عن نفسه للزومها طبعا وحدوثها حتما . وقيل ليحيى ابن زكريا عليهما السلام ما بالك تكره الولد فقال ما لي وللولد ان عاش كدني وان مات هدني وقيل لعيسى بن مريم عليهما السلام ألا تتزوج فقال انما يحب التكاثر في دار البقاء

وأما ماكان حادثا بالاكتساب فهى المحبة التي تنمي مع الاوقات وتتغير مع تغير الحالات . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال الولد أنوط يعنى أن حبه يلتصق بنياط القلب . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لكل شيء ثمرة وثمرة القلب الولد فان انصرف الولد عن حب الولد فليس ذلك لبغض منه ولكن لسلوة حدثت من عقوق او تقصير مع بقاء الحذر والاشفاق الذي لايزول عنه ولا ينتقل منه . فقد قال محمد بن علي رضى الله عنه ان الله تعالى رضى الآباء للابناء فحذرهم فثبتهم ولم يوصهم بهم ولم يرض الابناء للآباء فاوصاهم بهم وان شر الابناء من دعاه التقصير الى العقوق وشر الآباء من دعاه البرالى الافراط والامهات اكثر اشفاقا وأوفر حبا لما باشرن من الولادة وعانّ من التربية فانهن أرق قلوبا وألين نفوسا وبحسب ذلك وجب أن يكون التعطف عليهنّ أوفر جزاء لفعلهنّ وكفاء لحقهنّ وان كان الله تعالى قد أشرك بينهما في البر وجمع بينهما في الوصية فقال تعالى ووصينا الانسان بوالديه حسنا . وقدروى ان رجلا أتى الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال ان لي أما أنا مطيعها أقعدها على ظهري ولا اصرف عنها وجهي وأردّ اليها كسبي فهل جزيتها قال لا ولا بزفرة واحدة قال ولم قال لانها كانت تخدمك وهى تحب حياتك وأنت تخدمها وتحب موتها . وقال الحسن البصري حق الولد اعظم وبر الوالد ألزم . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال انها كم عن عقوق الامهات ووأد البنات ومنع وهات . وروى خالد بن معدان عن المقدام قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان الله يوصيكم بامهاتكم ثم يوصيكم بالاقرب فالاقرب . وأما المولودون فهم الاولاد وأولادالاولاد والعرب تسمى ولد الولد الصفوة وهم مختصون مع سلامة احوالهم بخلقين احدهما لازم والآخر منتقل فاما اللازم فهو الانفة للآباء من تهضم او خمول والانفة في الابناء في مقابلة الاشفاق في الآباء وقد لحظ أبو تمام الطائى هذا المعنى في شعره فقال

فأصبحت يلقاني الزمان لاجله * باعظام مولود واشفاق والد

فاما المنتقل فهو الادلال وهو أول حال الولد والادلال في الابناء في مقابلة المحبة في الاباء لان المحبة بالآباء أخص والادلال بالابناء أمس . وقد روى عن عمر انه قال قلت يارسول الله مابالنا نرق على أولادنا ولا يرقون علينا قال لانا ولدناهم ولم يلدونا ثم الادلال في الابناء قد ينتقل مع الكبر الي احد أمرين اما البر والاعظام واما الى الجفاء والعقوق فان كان الولد رشيدا أوكان الاب برا عطوفا صار الادلال برا واعظاما . وقدروى الزهرى عن عامر بن شراحيل أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لجرير بن عبدالله ان حق الوالد على الولد أن يخشع له عند الغضب

ويؤثره على نفسه عند النصب والسغب فان المكافئ ليس بالواصل ولكن الواصل من اذا قطعت رحمه وصلها وان كان الولد غاويا أو كان الوالد جافيا صار الادلال قطيعة وعقوقا . ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم رحم الله امرأ أعان ولده على بره وبشر عمر بن الخطاب رضى الله عنه بمولود فقال ريحانة أشمها ثم هو عن قريب ولد بار او عدوّ ضار . وقد قيل في منثور الحكم العقوق ثكل من لم يثكل . وقال بعض الحكماء ابنك ريحانك سبعا وخادمك سبعا ووزيرك سبعا ثم هو صديق او عدوّ . وأما المناسبون فهم من عدا الآباء والابناء ممن يرجع بتعصيب او رحم والذين يختصون به الحمية الباعثة على النصرة وهى ادنى رتبة الانفة لان الانفة تمنع من التهضم والخمول معا والحمية تمنع من التهضم وليس لها في كراهة الخمول نصيب الا ان يقترن بها ما يبعث على الالفة وحمية المناسبين انما تدعو الى النصرة على البعداء والاجانب وهى معرضة لحسد الادانى والاقارب موكولة الى منافسة الصاحب بالصاحب فان حرست بالتواصل والتلاطف تأكدت أسبابها واقترن بحمية النسب مصافاة المودة وذلك أوكد أسباب الالفة وقد قيل لبعض قريش ايما احب اليك اخوك او صديقك قال اخي اذا كان صديقا . وقال مسلمة بن عبد الملك العيش في ثلاث سعة المنزل وكثرة الخدم وموافقة الاهل . وقال بعض الحكماء البعيد قريب بمودته والقريب بعيد بعداوته وان أهملت الحال بين المتناسبين ثقة بلحمة النسب واعتمادا على حمية القرابة غلب عليها مقت الحسد ومنازعة التنافس فصارت المناسبة عداوة والقرابة بعدا . وقال الكندى في بعض رسائله الاب رب والولد كمد والاخ فخ والعم غم والخال وبال والاقارب عقارب . وقال عبد الله بن المعتز

لحومهم لحمى وهم يأكلونه * وما داهيات المرء الا أقاربه

ومن أجل ذلك أمر الله تعالى بصلة الارحام وأثنى على واصلها فقال تعالى والذين يصلون ما امر الله به ان يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب قال المفسرون هي الرحم التى امر الله بوصلها ويخشون ربهم في قطعها ويخافون سوء الحساب فى المعاقبة عليها . وروى عبد الرحمن بن عوف ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يقول الله عز وجل أنا الرحمن وهى الرحم اشتققت لها من اسمى اسمها فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته . وروى عنه صلى الله عليه وسلم انه قال صلة الرحم منماة للعدد مثراة للمال محبة فى الاهل منسأة فى الاجل . وقال بعض الحكماء بلّوا ارحامكم بالحقوق ولا تجفوها بالعقوق . وقال بعض البلغاء صلوا ارحامكم فانها لا تبلى عليها اصولكم ولا تهضم عليها فروعكم . وقال بعض الادباء من لم يصلح لاهله

لم يصلح لك ومن لم يذب عنهم لم يذب عنك . وقال بعض الفصحاء من وصل رحمه وصله الله ورحمه ومن اجار جاره اعانه الله واجاره . وقال محمد بن عبدالله الازدى

وحسبك من ذل وسوء صنيعة * مناواة ذى القربى وان قيل قاطع
ولكن اواسيه وانسى ذنوبه * لترجعه يوما اليّ الرواجع
ولا يستوى فى الحكم عبدان واصل * وعبد لارحام القرابة قاطع

واما المصاهرة وهي الثالث من اسباب الالفة فلانها استحداث مواصلة وتمازج مناسبة صدرا عن رغبة واختيار وانعقدا على خير وايثار فاجتمع فيها اسباب الالفة ومواد المظاهرة . قال الله تعالى ومن آياته أن خلق لكم من انفسكم ازواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة يعنى بالمودة المحبة وبالرحمة الحنو والشفقة وهما من اوكد اسباب الالفة وفيها تأويل آخر قاله الحسن البصرى رحمه الله ان المودة النكاح والرحمة الولد . وقال تعالى والله جعل لكم من أنفسكم ازواجا وجعل لكم من ازواجكم بنين وحَفَدة اختلف المفسرون فى الحفدة فقال عبدالله بن مسعود هم اختان الرجل على بناته وقال عبدالله بن عباس رضي الله عنهما هم والد الرجل وولد ولده . وروى عنه انهم بنو امرأة الرجل من غيره وسموا حفدة لحفدهم في الخدمة وسرعتهم فى العمل ومنه قولهم فى القنوت واليك نسعى ونحفد أى نسرع الى العمل بطاعتك ولم تزل العرب تجتذب البعداء وتتألف الاعداء بالمصاهرة حتى يرجع المنافر مؤانسا ويصير العدوّ مواليا وقد يصير للصهر بين الاثنين ألفة بين القبيلتين وموالاة بين العشيرتين . حكى عن خالد بن يزيد بن معاوية انه قال كان أبغض خلق الله عز وجل اليّ آل الزبير حتى تزوجت منهم رملة فصاروا أحب خلق الله عز وجل اليّ . وفيها يقول

أحب بنى العوام طرا لاجلها * ومن اجلها احببت اخوالها كلبا
فان تسلمى نسلم وان تتنصرى * يحط رجال بين اعينهم صلبا

ولذلك قيل المرء على دين زوجته لما يستنزله الميل اليها من المتابعة ويجتذبه الحب لها من الموافقة فلا يجد الى المخالفة سبيلا ولا الى المباينة والمشاقة طريقا واذا كانت المصاهرة للنكاح بهذه المنزلة من الالفة فقد ينبغي لعقدها احد خمسة اوجه وهي المال والجمال والدين والالفة والتعفف . وقد روى سعيد بن ابى سعيد عن ابي هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال تنكح المرأة لاربع لمالها ولجمالها ولحسبها ولدينها فعليك بذات الدين تربت يداك فان كان عقد النكاح لاجل المال وكان اقوى الدواعي اليه فالمال اذًا هو المنكوح فان اقترن بذلك احد الاسباب الباعثة على الائتلاف جاز ان يلبث العقد وتدوم الالفة فان تجرد عن غيره

من الاسباب وعرى عما سواه من المواد فَاخْلِق بالعقد ان ينحلّ وبالالفة ان تزول لا سيما اذا غلب الطمع وقل الوفاء لان المال ان وصل اليه فقد ينقضى سبب الالفة به فقد قيل من ودّك لشئ تولى مع انقضائه وان اعوذ الوصول اليه وتعذرت القدرة عليه اعقب ذلك استهانة الآيس بعد شدة الامل فحدثت منه عداوة الخائب بعد استحكام الطمع فصارت الوصلة فرقة والالفة عداوة وقد قيل من ودّك طمعا فيك ابغضك اذا ايس منك . وقال عبد الحميد من عظمك لاكثارك استقلك عند اقلالك فان كان العقد رغبة فى الجمال فذلك ادوم للالفة من المال لان الجمال صفة لازمة والمال صفة زائلة . ولذلك قيل حسن الصورة اول السعادة . وقد روى عن النبي صلى الى عليه وسلم انه قال اعظم النساء بركة احسنهنّ وجها واقلهنّ مهرا فان سلمت الحال من الادلال المفضى الى الملال استدامت الالفة واستحكمت الوصلة وقد كانوا يكرهون الجمال البارع اما لما يحدث عنه من شدة الادلال وقد قيل من بسطه الادلال قبضه الاذلال واما لما يخاف من محنة الرغبة وبلوى المنازعة . وقد حكى ان رجلا شاور حكيما في التزوج فقال له افعل واياك والجمال البارع فانه مرعى انيق فقال الرجل وكيف ذلك قال كما قال الاول

ولن تصادف مرعي مُمرِعا ابدا * الا وجدت به آثار منتجع

واما لما يخافه اللبيب من شدة الصبوة ويتوقاه الحازم من سوء عواقب الفتنة . وقد قال بعض الحكماء اياك ومخالطة النساء فان لحظ المرأة سهم ولفظها سم . وراى بعض الحكماء صيادا يكلم امرأة فقال يا صياد احذر ان تصاد . وقال سليمان بن داود عليهما السلام لابنه امش وراء الاسد ولا تمش وراء المرأة وسمع عمر بن الخطاب رضى الله عنه امرأة تقول هذا البيت

ان النساء رياحين خلقن لكم * وكلكم يشتهي شم الرياحين

فقال رضى الله عنه

ان النساء شياطين خلقن لنا * نعوذ بالله من شر الشياطين

وان كان العقد رغبة فى الدين فهو اوثق العقود حالا وادومها ألفة واحمدها بدأ وعاقبة لان طالب الدين متبع له ومن اتبع الدين انقاد له فاستقامت له حاله وأمن زلله . ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم فاظفر (لعل هذه رواية اخرى فان التى تقدمت فعليك) بذات الدين تَرِبَتْ يداك وفيه تأويلان احدهما تربت يداك ان لم تظفر بذات الدين والثانى انها كلمة تذكر للمبالغة ولا يراد بها سوء كقولهم ما اشجعه قاتله الله وان كان العقد رغبة فى الالفة فهذا يكون على احد وجهين اما ان يقصد به المكاثرة باجتماع الفريقين والمظافرة بتناصر الفئتين واما ان يقصد به

تألف اعداء متسلطين استكفاء لعاديتهم وتسكينا لصولتهم. وهذان الوجهان قد يكونان في الاماثل واهل المنازل وداعي الوجه الاول هو الرغبة وداعي الوجه الثانى هو الرهبة وهما سببان فى غير المتناكحين فان استدام السبب دامت الالفة وان زال السبب بزوال الرغبة والرهبة خيف زوال الالفة الا أن ينضم اليها احد الاسباب الباعثة عليها والمقربة لها وان كان العقد رغبة فى التعفف فهو الوجه الحقيقى المبتغي بعقد النكاح وما سوى ذلك فاسباب معلقة عليه ومضافة اليه . وروى انه لما نزل قوله تعالى يا ايها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها قال النبي صلى الله عليه وسلم خلق الرجل من التراب فهمه في التراب وخلقت المرأة من الرجل فهمها فى الرجل . وروى عطية بن بشر عن عكاف ابن رفاعة الهلالي ان النبي صلى الله عليه وسلم قال له يا عكاف ألك زوجة قال لا قال فانت اذاً من اخوان الشياطين ان كنت من رهبان النصارى فالحق بهم وان كنت منا فمن سنتنا النكاح فكان هذا القول منه حثا على ترك الفساد وباعثا على التكاثر بالاولاد . ولهذا المعنى كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول للقفال من غزوهم اذا أفضيتم الى نسائكم فالكيس الكيس يعنى فى طلب الولد فلزم حينئذ فى عقد التعفف تحكم الاختيار فيه والتماس الادوم من دواعيه وهي نوعان نوع يمكن حصر شروطه ونوع لا يمكن لاختلاف اسبابه وتغاير شروطه فاما الشروط المحصورة فيه فثلاثة شروط احدها الدين المفضى الى الستر والعفاف والمؤدى الى القناعة والكفاف . قال أبو هريرة رضى الله عنه لا يعزل مؤمن مؤمنة ان كره منها خلقا رضى منها خلقا وخطب رجل من عبدالله بن عباس رضى الله عنهما يتيمة كانت عنده فقال لا ارضاها لك قال ولم وفى دارك نشأت قال انها تتشرف قال لا ابالي فقال الا ن لا أرضاك لها وفى معني هذا قول بعض العلماء من رضى بصحبة من لا خير فيه لم يرض بصحبته من فيه خير والشرط الثانى العقل الباعث على حسن التقدير الآمر بصواب التدبير فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال العقل حيث كان ألوف ومألوف . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال عليكم بالودود الولود ولا تنكحوا الحمقاء فان صحبتها بلاء وولدها ضياع والشرط الثالث الاكفاء الذين ينتفى بهم العار ويحصل بهم الاستكثار فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال تخيروا لنطفكم ولا تضعوها الا في الاكفاء . وروى ان أكثم بن صيفى قال لولده يا بني لا يحملنكم جمال النساء عن صراحة النسب فان المناكح الكريمة مدرجة للشرف . وقال ابو الاسود الدؤلى لبنيه قد احسنت اليكم صغارا وكبارا وقبل ان تولدوا قالوا وكيف احسنت الينا قبل ان نولد قال اخترت لكم من الامهات من لا تسبون بها

وأنشد الرياشي فاول احسانى اليكم تخيري * لماجدة الاعراق باد عفافها

وقد تنضم الى هذه الشروط من صفات الذات وأحوال النفس مايلزم التحرز منه لبعد الخير عنه وقلة الرشد فيه فان كوامن الاخلاق بادية في الصور والاشكال كالذي روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال لزيد بن حارثة أتزوجت يا زيد قال لا قال تزوّج تستعفف مع عفتك ولا تتزوج من النساء خمسا قال وما هنّ يا رسول الله قال لا تتزوج شهبرة ولا لهبرة ولا نهبرة ولا هبذرة ولا لفوتا فقال يا رسول الله انى لا أعرف مما قلت شيئا قال أما الشهبرة فالزرقاء البذية وأما اللهبرة فالطويلة المهزولة وأما النهبرة فالعجوز المُدْبِرة وأما الهبذرة فالقصيرة الدميمة وأما اللفوت فذات الولد من غيرك . وقال شيخ من بني سليم لابنه يا بني اياك والرقوب الغضوب القطوب الرقوب التي تراقبه أن يموت فتأخذ ماله . واوصى بعض الاعراب ابنه في التزوج فقال اياك والخانة والمنانة والانانة فالخانة التى تخن لزوج كان لها والمنانة التى تمن على زوجها بمالها والانانة التي تَئِنّ كسلا وتمارضا . وقال أوفى بن دلهم النساء أربع فمنهنّ ممع لها شيئها أجمع ومنهن ممنع تضر ولا تنفع ومنهنّ مصدع تفرق ولا تجمع ومنهنّ غيث وقع ببلد فامرع . وقال الشاعر

أرى صاحب النسوان يحسب أنها * سواء وبون بينهن بعيد
فمنهن جنات يفيء ظلالها * ومنهنّ نيران لهن وقود

وانشد ابو العيناء عن ابى زيد

ان النساء كاشجار نبتن معا * منهن مر وبعض المرمأكول
ان النساء ولو صورنّ من ذهب * فيهنّ من هفوات الجهل تخييل
ان النساء متى ينهين عن خلق * فانه واجب لا بد مفعول
وما وعدنك من شرّ وفين به * وما وعدنك من خير فمطول

فاما النوع الآخر فانه لا يمكن حصر شروطه لانه قد يختلف باختلاف الاحوال وينتقل بتنقل الانسان والازمان فانه لا يستغنى به عن موافقة النفس ومتابعة الشهوة ليكون ادوم لحال الالفة وأمد لاسباب الوصلة فان الرأي المعلول لا يبقى على حاله والميل المدخول لا يدوم على دخله فلا بد ان ينتقل الى احدى حالتين اما الى الزيادة والكمال واما الى النقصان والزوال . حكى ان رجلا قال لعلي كرم الله وجهه اني احبك واحب معاوية فقال رضى الله عنه اما الآن فانت اعور فاما ان تبرأ واما ان تعمي فاذا كان كذلك فلا بد من كشف السبب الباعث على هذا النوع فانه لا يخلو من ثلاثة احوال (احدها) ان يكون لطلب الولد والاحمد فيه التماس

الحداثة والبكارة لانها اخص بالولادة . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال عليكم بالابكار فانهن أعذب أفواها وأنتق ارحاما وأرضى باليسير ومعنى قوله انتق ارحاما أي اكثر اولادا . وقال معاذ بن جبل رضى الله عنه عليكم بالابكار فانهن اكثر حبا واقل خنا وهذه الحال هى اولى الاحوال الثلاث لان النكاح موضوع لها والشرع وارد بها . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال سوداء ولود خير من حسناء عاقر والعرب تقول من لا يلد لا ولد وقد كانوا يختارون لمثل هذه الحال انكاح البعدا الاجانب ويرون ان ذلك انجب للولد وابهى للخلقة ويجتنبون انكاح الاهل والاقارب ويرونه مضرا بخلق الولد بعيدا من نجابته . روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال اغربوا لا تضووا . وروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه انه قال يابني السائب قد ضويتم فانكحوا في الغرائب * وقال الشاعر

تجاوزت بنت العم وهي حبيبة * مخافة ان يضوى علي سليلي

وكانت حكماء المتقدمين يرون ان انجب الاولاد خلقا وخلقا من كان سن امه بين العشرين والثلاثين وسن ابيه ما بين الثلاثين والخمسين والعرب تقول ان ولد الغَيْرَى لا يَنْجُب وان انجب النساء الفروك لان الرجل يغلبها على الشبه لزهدها في الرجال وقالوا ان الرجل اذا اكره المرأة وهى مذعورة ثم اذكرت انجبت (والحالة الثانية) ان يكون المقصود به القيام بما يتولاه النساء من تدبير المنازل فهذا وان كان مختصا بمعاناة النساء فليس يألزم حالئ الزوجات لانه قد يجوز ان يعانيه غيرهن من النساء ولذلك قيل المرأة ريحانة وليست بقهرمانة وليس في هذا القصد تأثير في دين ولا قدح في مروءة والاحمد في مثل هذا التماس ذوات الاسنان والخُنُكة ممن قد خبرن تدبير المنازل وعرفن عادات الرجال فانهن اقوم بهذه الحال (والحالة الثالثة) ان يكون المقصود به الاستمتاع وهي اذم الاحوال الثلاث واوهنها للمروءة لانه ينقاد فيه لاخلاقه البهيمية ويتابع شهوته الذميمة . وقد قال الحارث بن النضر الازدى شر النكاح نكاح الغُلْمة الا ان يفعل ذلك لكسر الشهوة وقهرها بالاضعاف لها عند الغلبة او تسكين النفس عند المنازعة حتى لا تطمح له عين لريبة ولا تنازعه نفس الى فجور ولا يلحقه في ذلك ذم ولا يناله وصم وهو بالحمد اجدر وبالثناء احق ولو تنزه في مثل هذه الحال عن استبذال الحرائر الى الاماء كان أكمل لمروءته وأبلغ في صيانته وهذه الحال تقف على شهوات النفوس لا يمكن ان يرجح فيها اولى الامور وهى اخطر الاحوال بالمنكوحة لان للشهوات غايات متناهية يزول بزوالها ما كان متعلقا بها فتصير الشهوة في الابتداء كراهية في الانتهاء ولذلك كرهت العرب البنات وأودتهن اشفاقا عليهن وحمية لهن من ان يتبذلهن اللئام بهذه الحال وكان من نحوب

من قتل البنات لرقة ومحبة كان موتهن احب اليه وآثر عنده ولما خطب الى عقيل بن علقمة ابنته الجرباء قال اني وان سيق الىّ المهر الف وعبدان وذود عشر احب اصهاري الىّ القبر . وقال عبدالله بن طاهر

لكل أبي بنت يراعي شؤونها * ثلاثة اصهار اذا حمد الصهر
فبعل يراعيها وخدر يكنها * وقبر يواريها وافضلها القبر

﴿ فصل ﴾ واما المواخاة بالمودة وهي الرابع من اسباب الالفة لانها تكسب بصادق الميل اخلاصا ومصافاة وتحدث بخلوص المصافاة وفاء ومحاماة وهذا اعلى مراتب الالفة ولذلك آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين اصحابه لتزيد الفتهم ويقوي تظافرهم وتناصرهم . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال عليكم باخوان الصفاء فانهم زينة في الرخاء وعصمة في البلاء . وروى ابو الزبير عن سهل بن سعد ان النبي صلى الله عليه وسلم قال المرء كثير باخيه ولا خير في محبة من لا يرى لك من الحق مثل ماترى له . وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه لقاء الاخوان جلاء الاحزان . وقال خالد بن صفوان ان اعجز الناس من قصر في طلب الاخوان واعجز منه من ضيع من ظفر به منهم . وقال علي كرم الله وجهه لابنه الحسن يابنى الغريب من ليس له حبيب . وقال ابن المعتز من اتخذ اخوانا كانوا له أعوانا . وقال بعض الادباء افضل الذخائر اخ وفيّ . وقال بعض البلغاء صديق مساعد عضد وساعد . وقال بعض الشعراء

هموم رجال في امور كثيرة * وهمي من الدنيا صديق مساعد
نكون كروح بين جسمين قسمت * فجسماها جسمان والروح واحد

وقيل انما سمي الصديق صديقا لصدقه والعدو عدوا لعدوه عليك . وقال ثعلب انما سمي الخليل خليلا لان محبته تتخلل القلب فلا تدع فيه خللا الا ملأته وأنشد الرياشي قول بشار

قد تخللت مسلك الروح مني * وبه سمي الخليل خليلا

والمواخاة في الناس قد تكون على وجهين أحدهما أخوة مكتسبة بالاتفاق الجارى مجرى الاضطرار والثانية مكتسبة بالقصد والاختيار فاما المكتسبة بالاتفاق فهى أوكد حالا لانها تنعقد عن أسباب تعود اليها والمكتسبة بالقصد تعقد لها أسباب تنقاد اليها وما كان جاريا بالطبع فهو ألزم مما هو حادث بالقصد ونحن نبدأ بالوجه الاول المكتسب بالاتفاق ثم نعقبه بالوجه الثانى المكتسب بالقصد اما المكتسب بالاتفاق فله اسباب نبتدئ بها ثم ننتقل في غاية احواله المحدودة الى سبع مراتب ربما استكملتهن وربما وقفت على بعضهن ولكل مرتبة من ذلك حكم خاص وسبب موجب . قال الشاعر

ما هوى الاله سبب * يبتدي منه وينشعب

فاول اسباب الإخاء التجانس فى حال يجتمعان فيها ويأتلفان بها فان قوي التجانس قوي الائتلاف به وان ضعف كان ضعيفا مالم تحدث علة اخرى يقوي بها الائتلاف وانما كان ذلك كذلك لان الائتلاف بالتشاكل والتشاكل بالتجانس فاذا عدم التجانس من وجه انتفى التشاكل من وجه ومع انتفاء التشاكل يعدم الائتلاف فثبت ان التجانس وان تنوع اصل الاخاء وقاعدة الائتلاف . وقد روى يحيي بن سعيد عن عمر عن عائشة رضى الله عنها عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال الارواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف وهذا واضح وهى بالتجانس متعارفة وبفقده متناكرة . وقيل في منثور الحكم الاضداد لاتتفق والاشكال لاتفترق . وقال بعض الحكماء بحسن تشاكل الاخوان يلبث التواصل ولبعضهم

فلا تحتقر نفسي وانت خليلها * فكل امرئ يصبو الى من يشاكل

وقال آخر

فقلت اخي قالوا اخ من قرابة * فقلت لهم ان الشكول اقارب

نسيبي في رأيي وعزمي وهمتي * وان فرقتنا في الاصول المناسب

ثم يحدث بالتجانس المواصلة بين المتجانسين وهي المرتبة الثانية من مراتب الاخاء وسبب المواصلة بينهما وجود الاتفاق منهما فصارت المواصلة نتيجة التجانس والسبب فيه وجود الاتفاق لان عدم الاتفاق منفر . وقد قال الشاعر

الناس ان وافقتهم عذبوا * اولا فان جَناهم مُر

كم من رياض لاأنيس بها * تركت لان طريقها وعر

ثم يحدث عن المواصلة رتبة ثالثة وسببها الانبساط ثم يحدث عن المؤانسة رتبة رابعة وهى المصافاة وسببها خلوص النية ورتبة خامسة وهى المودة وسببها الثقة وهذه الرتبة هي ادنى الكمال في احوال الاخاء وما قبلها اسباب تعود اليها فان اقترن بها المعاضدة فهى الصداقة ثم يحدث عن المودة رتبة سادسة وهى المحبة وسببها الاستحسان فان كان الاستحسان لفضائل النفس حدثت رتبة سابعة وهى الاعظام وان كان الاستحسان للصورة والحركات حدثت رتبة ثامنة وهي العشق وسببه الطمع . وقد قال المأمون رحمه الله تعالى

اول العشق مزاح وولع * ثم يزداد اذا زاد الطمع

كل من يهوى وان عالت به * رتبة الملك لمن يهوى تبع

وهذه الرتبة آخر الرتب المحدودة وليس لما جاوزها رتبة مقدرة ولا حالة محدودة لانها قد تؤدى الى ممازجة النفوس وان تميزت ذواتها وتفضى الى مخالطة الارواح وان تفارقت أجسادها وهذه حالة لا يمكن حصر غايتها ولا الوقوف عند نهايتها . وقد قال الكندى الصديق انسان هو أنت الا انه غيرك ومثل هذا القول المروى عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه حين أقطع طلحة بن عبيدالله أرضا وكتب له بها كتابا واشهد فيه ناسا منهم عمر بن الخطاب رضى الله عنه فاتى طلحة بكتابه الى عمر ليختمه فامتنع عليه فرجع طلحة مغضبا الى ابى بكر رضى الله عنه وقال والله ما ادرى انت الخليفة ام عمر فقال بل عمر لكنه انا واما المكتسبة بالقصد فلا بد لها من داع يدعوا اليها وباعث يبعث عليها وذلك من وجهين رغبة وفاقة فاما الرغبة فهى ان يظهر من الانسان فضائل تبعث على اخائه ويتوسم بجميل يدعو الى اصطفائه وهذه الحالة اقوى من التي بعدها لظهور الصفات المطلوبة من غير تكلف لطلبها وانما يخاف عليها من الاغترار بالتصنع لها فليس كل من اظهر الخير كان من اهله ولا كل من تخلق بالحسنى كانت من طبعه والمتكلف للشئ مناف له الا ان يدوم عليه مستحسنا له في العقل او متدينا به في الشرع فيصير متطبعا به لا مطبوعا عليه لانه قدتقدم من كلام الحكماء ليس في الطبع ان يكون ماليس في التطبع ثم نقول من المتعذر ان تكون اخلاق الفاضل كاملة بالطبع وانما الاغلب ان يكون بعض فضائله بالطبع وبعضها بالتطبع الجارى بالعادة مجرى الطبع حتى يصير ما تطبع به في العادة أغلب عليه مما كان مطبوعا عليه اذ خالف العادة ولذلك قيل العادة طبع ثان .

وقال ابن الرومى رحمه الله

واعلم بان الناس من طينة * يصدق في الثلب لها الثالب
لولا علاج الناس اخلاقهم * اذا لفاح الحمأ اللازب

وأما الفاقة فهى أن يفتقر الانسان لوحشة انفراده ومهانة وحدته الى اصطفاء من يأنس بمواخاته ويثق بنصرته وموالاته . وقد قالت الحكماء من لم يرغب في ثلاث بلى بست من لم يرغب في الاخوان بلى بالعداوة والخذلان ومن لم يرغب فى السلامة بلى بالشدائد والامتهان ومن لم يرغب فى المعروف بلى بالندامة والخسران ولعمرى ان اخوان الصدق من أنفس الذخائر وافضل العدد لانهم سهماء النفوس واولياء النوائب . وقد قالت الحكماء رب صديق اود من شقيق وقيل لمعاوية ايما احب اليك قال صديق يحببنى الى الناس . وقال ابن المعتز القريب بعداوته بعيد والبعيد بمودته قريب وقال الشاعر

لمودة ممن يحبك مخلصا * خير من الرحم القريب الكاشح

وقال آخر يخونك ذو القربى مرارا وربما * وفى لك عند العهد من لا تناسبه

فاذا عزم على اصطفاء الاخوان سبر احوالهم قبل اخائهم وكشف عن اخلاقهم قبل اصطفائهم لما تقدم من قول الحكماء اسبر تخبر ولا تبعثه الوحدة على الاقدام قبل الخبرة ولاحسن الظن على الاغترار بالتصنع فان الملق مصائد العقول والنفاق تدليس الفطن وهما سجية المتصنع وليس فيمن يكون النفاق والملق بعض سجاياه خير يرجى ولا صلاح يؤمل ولاجل ذلك قالت الحكماء اعرف الرجل من فعله لا من كلامه واعرف محبته من عينه لا من لسانه . وقال خالد ابن صفوان انما انفقت على اخوانى لانى لم استعمل معهم النفاق ولاقصرت بهم عن الاستحقاق وقال حماد عجرد

كم من اخ لك ليس تنكره * ما دمت فى دنياك فى يسر
متصنع لك فى مودته * يلقاك بالترحيب والبشر
فاذا عدا والدهر ذو غير * دهر عليك عدا مع الدهر
فارفض باجمال مودة من * يقلي المقل ويعشق المثرى
وعليك من حالاه واحدة * فى العسر اما كنت واليسر

على ان الانسان موسوم بسيماء من قارب ومنسوب اليه افاعيل من صاحب . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم المرء مع من احب . وقال علي بن ابي طالب رضى الله عنه الصاحب مناسب . وقال عبدالله بن مسعود رضى الله عنه مامن شئ ادل على شئ ولا الدخان على النار من الصاحب على الصاحب . وقال بعض الحكماء اعرف اخاك باخيه قبلك . وقال بعض الادباء يظن بالمرء ما يظن بقرينه . وقال عدى بن زيد

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه * فكل قرين بالمقارن يقتدي
اذا كنت في قوم فصاحب خيارهم * ولا تصحب الاردى فتردى مع الردى

فلزم من هذا الوجه ايضا ان يتحرز من دخلاء السوء ويجانب اهل الريب ليكون موفور العرض سليم الغيب فلا يلام بملامة غيره وهذا قبل التثبت والارتياء ومداومة الاختيار والابتلاء متعذر بل مفقود وقد ضرب ذو الرمة مثلا بالماء فيمن حسن ظاهره وخبث باطنه فقال

الم تر ان الماء يخبث طعمه * وان كان لون الماء ابيض صافيا

ونظر بعض الحكماء الى رجل سوء حسن الوجه فقال اما البيت فحسن واما الساكن فردئ فأخذ جحظة هذا المعنى فقال

رب ما ابين التباين فيه * منزل عامر وعقل خراب

وأنشد في بعض اهل العلم

لاتركنن الى ذي منظر حسن * رب رائقة قد ساء مخبرها
ماكل أصفر دينار لصفرته * صفر العقارب أرداها وانكرها

ثم قد تقدم قول الحكماء من لم يقدم الامتحان قبل الثقة والثقة قبل الانس أثمرت مودته ندما . وقال بعض البلغاء مصارمة قبل اختيار أفضل من مواخاة على اغترار . وقال بعض الادباء لاتثق بالصديق قبل الخبرة ولا تقع بالعدوّ قبل القدرة . وقال بعض الشعراء

لاتحمدن امرأ حتى تجربه * ولا تذمنه من غير تجريب
فحمدك المرء مالم تبله خطأ * وذمه بعد حمد شر تكذيب

واذاً قد لزم من هذين الوجهين سبر الاخوان قبل اخائهم وخبرة أخلاقهم قبل اصطفائهم فالخصال المعتبرة في اخائهم بعد المجانسة التي هى اصل الاتفاق اربع خصال

(فالخصلة الاولى) عقل موفور يهدي الى مراشد الامور فان الحمق لاتثبت معه مودة ولا تدوم لصاحبه استقامة . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال البذاء لؤم وصحبة الاحمق شؤم . وقال بعض الحكماء عداوة العاقل أقل ضررا من مودة الاحمق لان الاحمق ربما ضر وهو يقدر أن ينفع والعاقل لايتجاوز الحد في مضرته فمضرته لها حد يقف عليه العقل ومضرة الجاهل ليست بذات حد والمحدود أقل ضرار مما هو غير محدود . وقال المنصور للمسيب ابن زهير ما مادة العقل فقال مجالسة العقلاء . وقال بعض البلغاء من الجهل صحبة ذوي الجهل ومن المحال مجادلة ذوي المحال . وقال بعض الادباء من أشار عليك باصطناع جاهل أو عاجز لم يخل أن يكون صديقا جاهلا أو عدوا عاقلا لانه يشير بما يضرك ويحتال فيما يضع منك . وقال بعض الشعراء

اذا ما كنت متخذا خليلا * فلا تثقن بكل أخي اخاء
فان خيرت بينهم فألصق * بأهل العقل منهم والحياء
فان العقل ليس له اذا ما * تفاضلت الفضائل من كفاء

(والخصلة الثانية) الدين الواقف بصاحبه على الخيرات فان تارك الدين عدو لنفسه فكيف يرجى منه مودة غيره . وقال بعض الحكماء اصطف من الاخوان ذا الدين والحسب والرأي والادب فانه ردء لك عند حاجتك ويد عند نائبتك وأنس عند وحشتك وزين عند عافيتك . وقال حسان بن ثابت رضي الله عنه

أخلاء الرخاء هم كثير * ولكن في البلاء هم قليل
فلا يغررك خلة من تواخى * فما لك عند نائبة خليل
وكل أخ يقول أنا وفيّ * ولكن ليس يفعل مايقول
سوى خِل له حسب ودين * فذاك لما يقول هو الفعول

وقال آخر

من لم يكن فى الله خلته * فخليله منه على خطر

(والخصلة الثالثة) ان يكون محمود الاخلاق مرضى الافعال مؤثرا للخير آمرا به كارها للشر ناهيا عنه فان مودة الشرير تكسب الاعداء وتفسد الاخلاق ولا خير في مودة تجلب عداوة وتورث مذمة فان المتبوع تابع صاحبه . وقال عبد الله بن المعتز اخوان الشر كشجر النارنج يحرق بعضها بعضا . وقال بعض الحكماء مخالطة الاشرار على خطر والصبر على صحبتهم كركوب البحر الذي من سلم منه ببدنه من التلف فيه لم يسلم بقلبه من الحذر منه . وقال بعض البلغاء صحبة الاشرار تورث سوء الظن بالاخيار . وقال بعض البلغاء من خير الاختيار صحبة الاخيار ومن شر الاختيار صحبة الاشرار . وقال بعض الشعراء

مجالسة السفيه سفاه رأي * ومن عقل مجالسة الحكيم
فانك والقرين معا سواء * كما قدّ الاديم من الاديم

(والخصلة الرابعة) ان يكون من كل واحد منهما ميل الى صاحبه ورغبة في مواخاته فان ذلك اوكد لحال المواخاة وامد لاسباب المصافاة اذ ليس كل مطلوب اليه طالب ولا كل مرغوب اليه راغب ومن طلب مودة ممتنع عليه ورغب الى زاهد فيه كان معنى خائبا كما قال البحتري

وطلبت منك مودة لم أعطها * ان المعنى طالب لايظفر

وقال العباس بن الاحنف

فان كان لايدنيك الا شفاعة * فلا خير في ود يكون بشافع
وأقسم ما تركي عتابك عن قِلًى * ولكن لعلمي انه غير نافع
وانى اذا لم الزم الصبر طائعا * فلا بد منه مكرها غير طائع

فاذا استكملت هذه الخصال في انسان وجب اخاؤه وتعين اصطفاؤه وبحسب وفورها فيه يجب ان يكون الميل اليه والثقة به وبحسب مايرى من غلبة احداها عليه يجعل مستعملا في الخلق الغالب عليه فان الاخوان على طبقات مختلفة وانحاء متشعبة ولكل واحد منهم

حال يختص بها في المشاركة وثلمة يسدها في الموازرة والمظافرة وليس تتفق أحوال جميعهم على حد واحد لان التباين فى الناس غالب واختلافهم في الشيم ظاهر . وقال بعض الحكماء الرجال كالشجر شرابه واحد وثمره مختلف فاخذ هذا المعنى منصور بن اسماعيل فقال

بنـو آدم كالنبت * ونبت الارض ألوان
فمنهم شجر الصـند * ل والكافور واللبان
ومنهم شجر أفضـ * ـل ما يحمل قطران

ومن رام اخوانا تتفق أحوال جميعهم رام متعذرا بل لو اتفقوا لكان ربما وقع به خلل في نظامه اذ ليس الواحد من الاخوان يمكن الاستعانة به في كل حال ولا المجبولون على الخلق الواحد يمكن أن يتصرفوا في جميع الاعمال وانما بالاختلاف يكون الائتلاف . وقد قال بعض الحكماء ليس بلبيب من لم يعاشر بالمعروف من لم يجد من معاشرته بدا . وقال المأمون الاخوان ثلاث طبقات طبقة كالغذاء لا يستغنى عنه وطبقة كالدواء يحتاج اليه احيانا وطبقة كالداء لا يحتاج اليه أبدا ولعمري ان الناس على ما وصفهم لا الاخوان منهم وليس من كان منهم كالداء من الاخوان المعدودين بل هم من الاعداء المحذورين وانما يداجون المودة استكفافا لشرهم وتحرزا من مكاشفتهم فدخلوا في عداد الاخوان بالمظاهرة والمساترة وفي الاعداء عند المكاشفة والمهاجرة . قال بعض الحكماء مثل العدوّ الضاحك اليك كالحنظلة الخضراء أوراقها القاتل مذاقها . وقد قيل في منثور الحكم لا تغترن بمقاربة العدوّ فانه كالماء وان أطيل اسخانه بالنار لم يمنع من اطفائها . وقال يزيد بن الحكم الثقفي

تكاشرني ضحكا كانك ناصح * وعينك تبدي أن صدرك لى دوى
لسانك معسول ونفسك علقم * وشرك مبسوط وخيرك ملتوي
فليت كفافا كان خـيرك كله * وشرك عنى ما ارتوى الماء مرتوى

فاذا خرج من كان كالداء من عداد الاخوان فالاخوان هم الصنفان الآخران اللذان من كان منهم كالغذاء وكالدواء لان الغذاء قوام للنفس وحياتها والدواء علاجها وصلاحها وأفضلهما من كان كالغذاء لان الحاجة اليه أعم واذا تميز الاخوان وجب ان ينزل كل منهم حيث نزلت به احواله اليـه واستقرت خصاله وخلاله عليه فمن قويت اسبابه قويت الثقة به وبحسب الثقة به يكون الركون اليه والتعويل عليه . وقال الشاعر

ما انت بالسبب الضعيف وانما * نجح الامور بقوة الاسباب
فاليوم حاجتنا اليك وانما * يدعى الطبيب لشدة الاوصاب

وقد اختلفت مذاهب النـاس في اتخاذ الاخوان فمنهم من يرى أن الاستكثار منهم أولى ليكونوا أقوى منعة ويدا وأوفر تحببا وتودّدا وأكثر تعاونا وتفقدا . وقيل لبعض الحكماء ما العيش قال اقبال الزمان وعز السلطان وكثرة الاخوان . وقيل حلية المرء كثرة اخوانه ومنهم من يرى أن الاقلال منهم أولى لانه أخف أثقالا وكلفا وأقل تنازعا وخلفا . وقال الاسكندر المستكثر من الاخوان من غير اختيار كالمستوقر من الحجارة والمقل من الاخوان المتخير لهم كالذي يتخير الجوهر . وقال عمرو بن العاص من كثر اخوانه كثر غرماؤه . وقال ابراهيم بن العباس مثل الاخوان كالنار قليلها متاع وكثيرها بوار . ولقد أحسن ابن الرومي فى هذا المعنى ونبه على العلة حيث يقول

عدوك من صديقك مستفاد * فـلا تستكثرن من الصحاب
فان الداء اكـثر ما تراه * يكون من الطعام او الشراب
ودع عنك الكثير فكم كثير * يعاف وكم قليل مستطاب
فما اللجج المـلاح بمرويات * وتلقى الري في النطف العذاب

وقال بعض البلغاء ليكن عرضك في اتخاذ الاخوان واصطناع النصحاء تكثير العُدّة لا تكثير العِدّة وتحصيل النفع لا تحصيل الجمع فواحد يحصل به المراد خـير من ألف تكثر الاعداد واذا كان التجانس والتشاكل من قواعد الاخوة وأسباب المودة كان وفور العقـل وظهور الفضل يقتضي من حال صاحب قلة اخوانه لانه يروم مثله ويطلب شكله وأمثاله من ذوي العقل والفضل أقل من اضداده من ذوي الحمق والنقص لان الخيار في كل شيء هو الاقل فلذلك قل وفور العقل والفضل . وقد قال الله تعالى ان الذين ينادونك من وراء الحجرات اكثرهم لا يعقلون فقل بهذا التعليل اخوان اهل الفضل لقلتهم وكثر اخوان ذوي النقص والجهل لكثرتهم . وقد قال في ذلك الشاعر

لكل امرئ شكل من الناس مثله * فاكثرهم شكلا اقلهم عقلا
وكل اناس آلفـون لشـكلهم * فاكثرهم عقلا اقلهم شكلا
لان كثير العقـل لست بواجـد * له في طريق حين يسلكه مثلا
وكل سـفيه طائش ان فقـدته * وجدت له في كل ناحية عدلا

واذا كان الامر على ما وصفنا فقد تنقسم احوال من دخل في عدد الاخوان اربعـة اقسام منهم من يعين ويستعين ومنهم من لا يعين ولا يستعين ومنهم من يستعين ولا يعين ومنهم من يعين ولا يستعين فاما المعين والمستعين فهو معاوض منصف يؤدّي ما عليه ويستوفى ماله

فهو كالمقرض يسعف عند الحاجة ويسترد عند الاستغناء وهو مشكور في معونته ومعذور في استعانته فهذا اعدل الاخوان وأما من لايعين ولا يستعين فهو متروك قد منع خيره وقمع شره فهو لاصديق يرجى ولا عدوّ يخشى . وقد قال المغيرة بن شعبة رضى الله عنه التارك للاخوان متروك واذا كان كذلك فهو كالصورة الممثلة يروقك حسنها ويخونك نفعها فلا هو مذموم لقمع شره ولا هو مشكور لمنع خيره وان كان باللوم اجدر. وقد قال الشاعر

واسوأ ايام الفتى يوم لا يرى * له احد يزري عليه وينكر

غير ان فساد الوقت وتغير اهله يوجب شكر من كان شره مقطوعا وان كان خيره ممنوعا كما قال المتنبي

انا لفى زمن ترك القبيح به * من اكثر الناس احسان واجمال

واما من يستعين ولا يعين فهو لئيم كل ومهين مستذل قد قطع عنه الرغبة وبسط فيه الرهبة فلا خيره يرجى ولا شره يؤمن وحسبك مهانة من رجل مستثقل عند اقلاله ويستقل عند استقلاله فليس لمثله في الاخاء حظ ولا في الوداد نصيب وهو ممن جعله المأمون من داء الاخوان لامن دوائهم ومن سمعهم لا من غذاهم . وقال بعض الحكماء شرما في الكريم أن يمنعك خيره وخير مافي اللئيم ان يكف عنك شره . وقال ابن الرومى

عذرنا النخل في ابداءشوك * يرد به الاناميل عن جناه

فما للعوسج الملعون ابدى * لنا شوكا بلا ثمر نراه

وأما من يعين ولا يستعين فهو كريم الطبع مشكورالصنع وقدحاز فضيلتى الابتداء والاكتفاء فلا يرى ثقيلا في نائبة ولا يقعد عن نهضة في معونة فهذا أشرف الاخوان نفسا واكرمهم طبعا فينبغى لمن اوجد له الزمان مثله وقل ان يكون له مثل لانه البر الكريم والدر اليتيم ان يثنى عليه خنصره ويعض عليه ناجذه ويكون به اشد ضنا منه بنفائس امواله وسني ذخائره لان نفع الاخوان عام ونفع المال خاص ومن كان اعم نفعا فهو بالادخار احق . وقال الفرزدق

يمضى اخوك فلا تلقى له خلفا * والمال بعدذهاب المال مكتسب

وقال آخر

لكل شئ عدمته عوض * وما لفقد الصديق من عوض

ثم لاينبغي ان يزهد فيه لخلق او خلقين ينكرهما منه اذا رضى سائر اخلاقه وحمد اكثر شيمه

لان اليسير مغفور والكمال معوز . وقد قال الكندي كيف تريد من صديقك خلقا واحدا وهو ذو طبائع أربع مع أن نفس الانسان التي هي أخس النفوس به ومدبرة باختياره وارادته لاتعطيه قيادها في كل مايريد ولا تجيبه الى طاعته في كل مايحب فكيف بنفس غيره وحسبك أن يكون لك من أخيك أكثره . وقد قال ابو الدرداء رضي الله عنه معاتبة الاخ خير من فقده ومن لك باخيك كله فاخذ الشعراء هذا المعنى فقال أبو العتاهية

أأخيّ من لك من بنى الدنيا بكل أخيك من لك
فاستبق بعضك لايمك كل من أعطيت كلك

وقال أبو تمام الطائي ماغبن المغبون مثل عقله * من لك يوماباخيك كله

وقال بعض الحكماء طلب الانصاف من قلة الانصاف . وقال بعض البلغاء لايزهدنك في رجل حمدت سيرته وارتضيت وتيرته وعرفت فضله وبطنت عقله عيب يحيط به كثرة فضائله أو ذنب صغير تستغفر له قوة وسائله فانك لن تجد مابقيت مهذبا لايكون فيه عيب ولا يقع منه ذنب فاعتبر نفسك بعد أن لاتراها بعين الرضا ولا تجري فيها على حكم الهوى فان فى اعتبارك واختبارك لها مايؤيسك مما تطلب ويعطفك على من يذنب . وقد قال الشاعر

ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلها * كفى المرء نبلا أن تعد معايبه

وقال النابغة الذبياني

ولست بمستبق أخا لاتلمه * على شعث أى الرجال المهذب

وليس ينقض هذا القول ماوصفنا من اختباره واختبار الخصال الاربع فيه لان ماأعوز فيه معفو عنه وهذا لاينبغي أن توحشك فترة تجدها منه ولا أن تسئ الظن فى كبوة تكون منه مالم تحقق تغيره وتتيقن تنكره وليصرف ذلك الى فترات النفوس واستراحات الخواطر فان الانسان قد يتغير عن مراعاة نفسه التى هى أخص النفوس به ولا يكون ذلك من عداوة لها ولا ملل منها . وقد قيل في منثور الحكم لايفسدنك الظن على صديق قد أصلحك اليقين له . وقال جعفر بن محمد لابنه يابني من غضب من اخوانك ثلاث مرات فلم يقل فيك سوأ فاتخذه لنفسك خلا . وقال الحسن بن وهب من حقوق المودة أخذعفو الاخوان والاغضاء عن تقصير ان كان . وقد روى عن على رضى الله عنه في قوله تعالى فاصفح الصفح الجميل قال الرضا بغير عتاب . وقال ابن الرومي

هم الناس والدنيا ولابد من قذى * يلم بعين او يكدر مشربا ومن
ومن قلة الانصاف أنك تبتغي * مهذب في الدنيا ولست المهذبا

وقال بعض الشعراء

تواصلنا على الايام باق * ولكن هجرنا مطر الربيع
يروعك صوبه لكن تراه * على علاته داني النزوع
معاذ الله أن نلقى غضابا * سوى دل المطالع على المطيع

وأنشدني الازدي

لا يؤيسنك من صديق نبوة * ينبو الفتى وهو الجواد الخضرم
فاذا نبا فاستبقه وتأنه * حتى تفيء به وطبعك أكرم

وأما الملول وهو السريع التغير الوشيك التنكر فوداده خطر واخاؤه غرر لانه لا يبقى على حالة ولا يخلو من استحالة . وقد قال ابن الرومي

اذا أنت عاتبت الملول فانما * تخط على صحف من الماء أحرفا
وهبه ارعوى بعد العتاب ألم تكن * مودته طبعا فصارت تكلفا

وهم نوعان منهم من يكون مله استراحة ثم يعود الى المعهود من اخائه فهذا اسلم المللين واقرب الرجلين يسامح في وقت استراحته وحين فترته ليرجع الى الحسنى ويؤوب الى الاخاء وان تقدم المثل بما نظمه الشاعر حيث قال

وقالوا يعود الماء في النهر بعد ما * عفت منه آثار وجفت مشارعه
فقلت الى ان يرجع الماء عائدا * ويعشب شطاه تموت ضفادعه

لكن لا يطرح حقه بالتوهم ولا يسقط حرمته بالظنون . وقال الشاعر

اذاما حال عهد اخيك يوما * وحاد عن الطريق المستقيم
فلا تعجل بلومك واستدمه * فان أخا الحفاظ المستديم
فان تك زلة منه والا * فلا تبعد عن الخلق الكريم

ومنهم من يكون مله تركا واطراحا ولا يراجع اخاء ولا ودا ولا يتذكر حفاظا ولا عهدا كما قال اشجع بن عمرو السلمى

اني رايت لها مواصلة * كالسم نفرغه على الشهد
فاذا أخذت بعهد ذمتها * لعب الصدود بذلك العهد

وهذا اذم الرجلين حالا لان مودته من وساوس الخطرات وعوارض الشهوات وليس الا استدراك الحال معه بالاقلاع قبل المخالطة وحسن المتاركة بعد الورطة كما قال العباس ابن الاحنف

تداركت نفسى فعزيتها * وبغضتها فيك آمالها
وماطابت النفس عن سلوة * ولكن حملت عليها لها

وما مثل مَن هذه حاله الا كما قد قال ابراهيم بن حرمة

فانك واطراحك وصل سلمى * لاحرى في مودتها نكوب
كشاقبة لحلى مستعار * لاذنيها فشانهما الثقوب
فأدت حلى جارتها اليها * وقد بقيت باذنيها ندوب

واذا وصفت له أخلاق من سبره وتمهدت لديه أحوال من خبره وأقدم على اصطفائه أخا وعلى اتخاذه خدنا لزمته حينئذ حقوقه ووجبت عليه حرماته . وقال عمر بن مسعدة العبودية عبودية الاخاء لا عبودية الرق . وقال بعض الحكماء من جادلك بمودته فقد جعلك عديل نفسه فاول حقوقه اعتقاد مودته ثم ايناسه بالانبساط اليه في غير محرم ثم نصحه في السر والعلانية ثم تخفيف الاثقال عنه ثم معاونته فيما ينوبه من حادثة او يناله من نكبة فان مراقبته في الظاهر نفاق وتركه في الشدة لؤم . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال خير أصحابك المعين لك على دهرك وشرهم من سعى لك بسوق (كذا فى الاصل) يومه وقيل يارسول الله اى الاصحاب خير قال الذي اذا ذكرت أعانك وواساك وخير منه من اذا نسيت ذكرك . وقال على بن أبي طالب كرم الله وجهه خير اخوانك من واساك وخير منه من كافاك وكان أبو هريرة رضى الله عنه يقول اللهم اني اعوذ بك ممن لا يلتمس خالص مودتى الا بموافقة شهواتى وممن ساعدنى على سرور ساعتي ولا يفكر في حوادث غدى . وقال بعض البلغاء عقود الغادر محلولة وعهوده مدخولة . وقال بعض البلغاء ماودّك من أهمل ودّك ولا احبك من ابغض حبك . وقال بعض الشعراء

وكل أخ عند الهوينا ملاطف * ولكنما الاخوان عند الشدائد

وقال صالح بن عبد القدوس شر الاخوان من كانت مودّته مع الزمان اذا أقبل فاذا أدبر الزمان أدبر عنك فاخذ هذا المعنى الشاعر فقال

شر الاخلاء من كانت مودته * مع الزمان اذا ما خاف أو رغبا
اذا وترت امرأ فاحذر عداوته * من يزرع الشوك لا يحصد به عنبا
ان العدّو وان ابدى مسالمة * اذا رأى منك يوما فرصة وثبا

وينبغى ان يتوقى الافراط في محبته فان الافراط داعٍ الى التقصير ولان تكون الحال بينهما نامية أولى من ان تكون متناهية . وقد روى ابن سيرين عن ابي هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم

قال أحبب حبيبك هونا ما عسى ان يكون بغيضك يوما ما وأبغض بغيضك هونا ما عسى ان يكون حبيبك يوما ما . وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه لا يكن حبك كلفا ولا بغضك تلفا . وقال ابو الاسود الدؤلي

وكن معدنا للخير واصفح عن الاذى * فانك راء ما علمت وسامع
وأحبب اذا أحببت حبا مقاربا * فانك لا تدرى متى أنت نازع
وأبغض اذا أبغضت غير مباين * فانك لاتدرى متى انت راجع

وقال عدى بن زيد

لاتأمنن من مبغض قرب داره * ولا من محب ان يمل فيبعدا

وانما يلزم من حق الاخاء بذل المجهود في النصح والتناهي في رعاية مابينهما من الحق فليس في ذلك افراط وان تناهي ولا مجاوزة حد وان أكثر واوفى فتستوى حالتاها في الغيب والمشهد ولان يكون مغيبهما افضل عن مشدهما اولى فان فضل المشهد على المغيب لؤم وفضل المغيب على المشهد كرم واستواؤهما حفاظ . وقال بعض الشعراء

علىّ لاخوانى رقيب من الصفا * تبيد الليالي وهو ليس يبيد
يذكرنيهم في مغيبي ومشهدى * فسيان منهم غائب وشهيد
وانى لا أستحيي أخي ان ابرّه * قريبا وان اجفوه وهو بعيد

وهكذا يقصد التوسط في زيارته وغشيانه غير مقلل ولا مكثر فان تقليل الزيارة داعية الهجران وكثرتها سبب الملال . وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لابى هريرة رضى الله عنه يا ابا هريرة زُرْ غِبًّا تزدد حبا . وقال لبيد

توقف عن زيارة كل يوم * اذا اكثرت ملك من تزور

وقال آخر

اقلل زيارتك الصديق ولا تطل * هجرانه فيلج في هجرانه
ان الصديق يلج في غشيانه * لصديقه فيمل من غشيانه
حتى تراه بعد طول سروره * بمكانه متثاقلا بمكانه
واذا توانى عن صيانة نفسه * رجل تنقص واستخف بشانه

وبحسب ذلك فليكن فى عتابه فان كثرة العتاب سبب للقطيعة واطراح جميعه دليل على قلة الاكتراث بامر الصديق وقد قيل علة المعاداة قلة المبالاة بل تتوسط حالتا تركه وعتابه فيسامح بالمتاركة ويستصلح بالمعاتبة فان المسامحة والاستصلاح اذا اجتمعا لم يلبث معهما نفور ولم يبق

معهما وجد. وقدقال بعض الحكماء لا تكثرن معاتبة اخوانك فيهون عليهم سخطك وقال منصور النمرى

اقلل عتاب من استربت بودّه * ليست تنال مودة

وقال بشار بن برد

اذا كنت في كل الامور معاتبا * صديقك لم تلق الذى لا تعاتبه

وان انت لم تشرب مرارا على القذى * ظمئت واى الناس تصفو مشاربه

فعش واحدا اوصل اخاك فانه * مقارف ذنب مرة ومجانبه

ثم من حق الاخوان ان تغفر هفوتهم وتستر زلتهم لان من رام بريئا من الهفوات سليما من الزلات رام امرا معوزا واقتراح وصفا معجزا . وقد قالت الحكماء اي عالم لا يهفو واى صارم لا ينبو وأى جواد لا يكبو وقالوا من حاول صديقا يأمن زلته وبدوم اغتباطه به كان كضال الطريق الذى لا يزداد لنفسه اتعابا الا ازداد من غايته بعدا وقيل لخالد بن صفوان أى اخوانك أحب اليك فال مل غفر زللى وقطع عللى وبلغنى املي . وقال بعض الشعراء

ما كدت افحص عن اخي ثقة * الا ندمت عواقب الفحص

وانشدت عن الربيع للشافعى رضى الله عنه

احب من الاخوان كل مواتى * وكل غضيض الطرف عن عثراتي

يوافقنى في كل امر اريده * ويحفظنى حيا وبعد وفاتي

فمن لى بهذا ليت اني اصبته * فقاسمته مالي من الحسنات

تصفحت اخواني وكان اقلهم * على كثرة الاخوان اهل ثقاتي

وانشد ثعلب

اذا انت لم تستقبل الامر لم تجد * بكفيك في ادباره متعلقا

اذا انت لم تترك اخاك وزلة * اذا زلها اوشكتما ان تفرقا

وحكى الاصمعى عن بعض الاعراب انه قال تناس مساوي الاخوان يدم لك ودهم . ووصى بعض الادباء اخاله فقال كن للود حافظا وان لم تجد محافظا وللنحل واصلا وان لم تجد مواصلا

وقال رجل من اياد ليزيد بن المهلب

اذا لم تجاوز عن أخ عند زلة * فلست غدا عن عثرتي متجاوزا

وكيف يرجيك البعيد لنفعه * اذا كان عن مولاك خيرك عاجزا

ظلمت اخا كلفته فوق وسعه * وهل كانت الاخلاق الا غرائزا

وقال ابو مسعود كاتب الرضى كنا في مجلس الرضى فشكى رجل من اخيه فانشد الرضى

اعـذر اخاك على ذنوبه * واستر وغط على عيوبه
واصبر على بهت السـفيـ * ـه وللزمان على خطوبه
ودع الجـواب تفضـلا * وكل الظلوم الى حسيبه
واعـلم بان الحـلم عنـ * ـد الغيظ احسن من ركوبه

وحكى عن بنت عبد الله بن مطيع انها قالت لزوجها طلحة بن عبد الرحمن بن عوف الزهري وكان أجود قريش في زمانه ما رأيت قوما الأم من اخوانك قال مه ولم ذلك قالت أراهـم اذا ايسرت لزموك واذا اعسرت تركوك قال هذا والله من كرمهم يأتوننا في حال القوة بنا عليهم ويتركوننا في حال الضعف بناعنهم فانظر كيف تأوّل بكرمه هذا التأويل حتى جعل قبيح فعلهم حسنا وظاهر غدرهم وفاء وهذا محض الكرم ولباب الفضل وبمثـل هذا يلزم ذوي الفضل ان يتأوّلوا الهفوات من اخوانهم . وقد قال بعض الشعراء

اذا ما بدت من صاحب لك زلة * فكن انت محتالا لزلتـه عذرا
أحب الفتى ينفى الفواحش سمعه * كأن به عن كل فاحشة وقرا
سليم دواعي الصدر لا باسط أذى * ولا مانع خـيراً ولا قائل هُجْرا

والداعى الى هذا التأويل شـيئان التغافل الحادث عن الفطنة والتألف الصادر عن الوفاء . وقال بعض الحكماء وجدت اكثر امور الدنيا لا تجوز الا بالتغافل . وقال اكثم بن صيفى من شدّ نفر ومن تراخى تألف والشرف في التغافل . وقال شبيب بن شبيه الاريب العاقل هو الفطن المتغافل . وقال الطائي

ليس الغبيّ بسيد في قومه * لكنّ سيد قومه المتغابي

وقال ابوا العتاهية

ان في صحـة الاخاء من النـا * س وفي خـلة الوفاء لقـله
فالبس النـاس ما استطعت على النقـ * ـص والا لم تستقم لك خـله
عش وحيداً ان كنت لا تقبل العذ * ر وان كنت لا تجـاوز زله
من أب واحـد وأم خلقنـا * غير أنا في المـال اولاد عـله

ومما يتبع هذا الفصل تألف الاعداء بما يثنيهم عن البغضاء ويعطفهم على المحبة وذلك قد يكون بصنوف من البر ويختلف بسبب اختلاف الاحوال فان ذلك من سمات الفضل وشروط السودد فانه ما احد يعدم عدوا ولا يفقد حاسدا وبحسب قدر النعمة تكثر الاعداء والحسدة

كما قال البحترى

ولن تستبين الدهر موقع نعمة * اذا انت لم تدلل عليها بحاسد

فان أغفل تألف الاعداء مع وفور النعمة وظهور الحسدة توالى عليه من مكر حليهم وبادرة سفيههم ما تصير به النعمة غراما والزعامة ملاما . وروى ابن المسيب عن ابي هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم رأس العقل بعد الايمان بالله تعالى التودد الى الناس . وقال سليمان بن دواد عليهما السلام لابنه لاتستكثر ان يكون لك الف صديق فالالف قليل ولا تستقل أن يكون لك عدوّ واحد فالواحد كثير فنظم ابن الرومي هذا المعنى فقال

فكثر من الاخوان ماستطعت انهم * بطون اذا استنجدتهم وظهور

وليس كثيرا ألف خل وصاحب * وان عدوّا واحدوا لكثير

وقيل لعبد الملك بن مروان ماأفدت في ملكك هذا قال مودة الرجال . وقال بعض الحكماء من علامة الاقبال اصطناع الرجال . وقال بعض البلغاء من استصلح عدوه زاد في عدده ومن استفسد صديقه نقص من عدده . وقال بعض الادباء العجب ممن يطرح عاقلا كافيا لما يضمره من عدواته ويصطنع عاجزا جاهلا لما يظهره من محبته وهو قادر على استصلاح من يعاديه بحسن صنائعه واياديه وانشد عبد الله بن الزبير ثلاثة ابيات جامعة لكل ماقالته العرب وهى للافوه واسمه صلة بن عمرو حيث يقول

بلوت الناس قرنا بعد قرن * فلم ار غير ختال وقال

وذقت مرارة الاشياء جمعا * فما طعم أمر من السؤال

ولم أر فى الخطوب أشد هولا * وأصعب من معاداة الرجال

وقال القاضى التنوخي

ألق العدوّ بوجه لاقطوب به * يكاد يقطر من ماء البشاشات

فأحزم الناس من يلقى اعاديه * في جسم حقدوثوب من مودات

الرفق يمن وخير القول اصدقه * وكثرة المزح مفتاح العداوات

وانشدت عن الربيع للشافعي رضي الله عنه

لما عفوت ولم احقد على احد * ارحت نفسى من هم العداوات

اني أحيّي عدوى عند رؤيته * لادفع الشر عني بالتحيات

واظهر البشر للانسان ابغضه * كأنما قد حشى قلبي محبات

الناس داء دواء الناس قربهم * وفي اعتزالهم قطع المودات

وليس وان كان بتألف الاعداء مأمورا والى مقاربتهم مندوبا ينبغي أن يكون لهم راكنا وبهم واثقا بل يكون منهم على حذر ومن مكرهم على تحرز فان العداوة اذا استحكمت في الطباع صارت طبعا لايستحيل وجبله لاتزول وانما يستكفي بالتألف اظهارها ويستدفع باضرارها كالنار يستدفع بالماء احراقها ويستقاد به انضاجها وان كانت محرقة بطبع لايزول وجوهر لايتغير . وقال الشاعر

واذا عجزت عن العدوّ فداره * وامزح له ان المزاح وفاق
فالنار بالماء الذي هو ضدها * تعطى النضاج وطبعها الاحراق

﴿ فصل ﴾ وأما البر وهو الخامس من اسباب الالفة فلأنه يوصل الى القلوب الطافا ويثنيها محبة وانعطافا ولذلك ندب الله تعالى الى التعاون به وقرنه بالتقوى له فقال وتعاونوا على البر والتقوى لان في التقوى رضا الله تعالى وفي البر رضا الناس ومن جمع بين رضا الله تعالى ورضا الناس فقد تمت سعادته وعمت نعمته . وروى الاعمش عن خيثمة عن ابن مسعود قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول جبلت القلوب على حب من أحسن اليها وبغض من أساء اليها . وحكى أن الله تعالى اوحى الى داود على نبينا وعليه السلام ذكر عبادي احساني اليهم ليحبوني فانهم لايحبون الا من احسن اليهم . وأنشدني ابو الحسن الهاشمي

الناس كلهم عيا * ل الله تحت ظلاله فاحبهم طرا اليـ * ـه أبرهم لعياله

والبر نوعان صلة ومعروف فاما الصلة فهي التبرع ببذل المال في الجهات المحمودة لغير عوض مطلوب وهذا يبعث عليه سماحة النفس وسخاؤها ويمنع منه شحاها واباؤها قال الله تعالى ومن يوق شح نفسه فاؤلئك هم المفلحون . وروى محمد بن ابراهيم التيمي عن عروة بن الزبير عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال السخي قريب من الله عز وجل قريب من الجنة قريب من الناس بعيد من النار والبخيل بعيد من الله عز وجل بعيد من الجنة بعيد من الناس قريب من النار . وقال صلى الله عليه وسلم لعدى بن حاتم رفع الله عن أبيك العذاب الشديد لسخائه وبلغه صلى الله عليه وسلم عن الزبير امساك فجذب عمامته اليه وقال يازبير انا رسول الله اليك والى غيرك يقول انفق انفق عليك ولاتوك فأوك عليك . وروى ابو الدرداء قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مامن يوم غربت فيه شمسه الا وملكان يناديان اللهم أعط منفقا خلفا وممسكا تلفا وانزل فى ذلك القرآن فاما من اعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى واما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى . قال ابن عباس رضى الله عنهما يعني من اعطى فيما امر واتقى فيما حظر وصدق بالحسنى يعنى بالخلف من عطائه فعند هذا

قال ابن عباس رضي الله عنهما لسادات الناس فى الدنيا الاسخياء وفي الآخرة الاتقياء . وقيل في منثور الحكم الجود عن موجود وقيل في المثل سودد بلا جود كملك بلا جنود . وقال بعض الحكماء الجود حارس الاعراض . وقال بعض الادباء من جاد ساد ومن اضعف ازداد . وقال بعض الفصحاء جود الرجل يحببه الى اضداده وبخله يبغضه الى اولاده . وقال بعض الفصحاء خير الاموال مااسترق حرا وخير الاعمال ما استحق شكرا وقال صالح ابن عبد القدوس

ويظهر عيب المرء في الناس بخله * ويستره عنهم جميعا سخاؤه
تغط بأثواب السخاء فانني * أرى كل عيب فالسخاء غطاؤه

وحدّ السخاء بذل مايحتاج اليه عند الحاجة وان يوصل الى مستحقه بقدر الطاقة وتدبير ذلك مستصعب ولعل بعض من يحب ان ينسب الى الكرم ينكر حد السخاء ويجعل تقدير العطية فيه نوعامن البخل وان الجود بذل الموجود وهذا تكلف يفضي الى الجهل بحدود الفضائل ولو كان الجود بذل الموجود لما كان للسرف موضعا ولا للتبذير موقعا وقدورد الكتاب بذمهما وجاءت السنة بالنهي عنهما واذا كان السخاء محدودا فمن وقف على حده سمي كريما وكان للحمد مستحقا ومن قصر عنه كان بخيلا وكان للذم مستوجبا . وقد قال الله تعالى ولا تحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم بل هو شر لهم سيطوقون مابخلوا به يوم القيامة . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال اقسم الله تعالى بعزته لايجاوره بخيل وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال طعام الجواد دواء وطعام البخيل داء وسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا يقول الشحيح اعذر من الظالم فقال لعن الله الشحيح ولعن الظالم . وقال بعض الحكماء البخل جلباب المسكنة . وقال بعض الادباء البخيل ليس له خليل . وقال بعض البلغاء البخيل حارس نعمته وخازن ورثته . وقال بعض الشعراء

اذا كنت جماعا لمالك ممسكا * فانت عليه خازن وامين
تؤديه مذموما الى غير حامد * فيأكله عفوا وانت دفين

وتظاهر بعض ذوى النباهة بحب الثناء مع امساك فيه فقال بعض الشعراء

اراك تؤمل حسن الثناء * ولم يرزق الله ذاك البخيلا
وكيف يسود اخو بطنة * يمنّ كثيرا ويعطى قليلا

وقد بينا حب الثناء وحب المال لان الثناء يبعث على البذل وحب المال يمنع منه فان ظهرا كان حب الثناء كاذبا . وقدقال بعض الشعراء

جمعت أمرين ضاع الحزم بينهما * تيه الملوك واخلاق المماليك
أردت شكرا بلا بر ولا صلة * لقد سلكت طريقا غير مسلوك
ظننت عرضك لم يقرع بقارعه * وما أراك على حال بمتروك
لئن سبقت الى مال حظيت به * فما سبقت الى شئ سوى النوك

وقد يحدث عن البخل من الاخلاق المذمومة وان كان ذريعة الى كل مذمة اربعة اخلاق ناهيك بها ذما وهى الحرص والشره وسوء الظن ومنع الحقوق فاما الحرص فهو شدة الكدح والاسراف في الطلب واما الشره فهو استقلال الكفاية والاستكثار لغير حاجة وهذا فرق مابين الحرص والشره . وقدروى العلاء بن جرير عن ابيه عن سالم بن مسروق قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من لايجزيه من العيش ما يكفيه لم يجد ماعاش ما يغنيه . وقال بعض الحكماء الشره من غرائز اللؤم واما سوء الظن فهو عدم الثقة بمن هو لها أهل فان كان بالخالق كان شكا يؤول الى ضلال وان كان بالمخلوق كان استخانة يصير بها مختانا وخوانا لان ظن الانسان بغيره بحسب مايراه من نفسه فان وجد فيها خيرا ظنه في غيره وان رأى فيها سوأ اعتقده في الناس . وقد قيل في المثل كل اناء بما فيه ينضح فان قيل قد تقدم من قول الحكماء ان الحزم سوء الظن قيل تأويله قلة الاسترسال اليهم لا اعتقاد السوء فيهم وأما منع الحقوق فان نفس البخيل لا تسمح بفراق محبوبها ولا تنقاد الى ترك مطلوبها فلا تذعن لحق ولاتجيب الى انصاف واذا آل البخيل الى ما وصفنا من هذه الاخلاق المذمومة والشيم اللئيمة لم يبق معه خير مرجو ولاصلاح مأمول . وقدروى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال للانصار من سيدكم قالوا الحر بن قيس على بخل فيه فقال صلى الله عليه وسلم وأى داء ادوأ من البخل قالوا وكيف ذلك يارسول الله فقال صلى الله عليه وسلم ان قوما نزلوا بساحل البحر فكرهوا لبخلهم نزول الاضياف بهم فقالوا ليبعد الرجال منا عن النساء حتى يعتذر الرجال الى الاضياف ببعد النساء وتعتذر النساء ببعد الرجال ففعلوا وطال ذلك بهم فاشتغل الرجال بالرجال والنساء بالنساء وأما السرف والتبذير فان من زاد على حد السخاء فهو مسرف ومبذر وهو بالذم جدير . وقد قال الله تعالى ولا تسرفوا انه لايحب المسرفين . وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال ماعال من اقتصد . وقد قال المأمون رحمه الله لا خير فى السرف ولاسرف في الخير . وقال بعض الحكماء صديق الرجل قصده وسرفه عدوه . وقال بعض البلغاء لا كثير مع اسراف ولاقليل مع احتراف واعلم أن السرف والتبذير قديفترق معناهما فالسرف هو الجهل بمقادير الحقوق والتبذير هو الجهل بمواقع الحقوق وكلاهما مذموم

وذم التبذير أعظم لان المسرف يخطئ فى الزيادة والمبذر يخطئ في الجهل ومن جهل مواقع الحقوق ومقاديرها بماله واخطاها فهو كمن جهلها بفعاله فتعداها وكما انه بتبذيره قد يضع الشئ في غير موضعه فهكذا قد يعدل به عن موضعه لان المال أقل من ان يوضع في كل موضع من حق وغير حق . وقد قال معاوية رضى الله عنه كل سرف فبازائه حق مضيّع . وقال بعض الحكماء الخطأ في اعطاء مالا ينبغي ومنع ما ينبغي واحد . وقال سفيان الثورى رضى الله عنه الحلال لا يحتمل السرف وليس يتم السخاء ببذل مافي يده حتى تسخو نفسه عما بيد غيره فلا يميل الى طلب ولا يكف عن بذل . وقد حكى أن الله تعالى أوحى الى ابراهيم الخليل على نبينا وعليه السلام أتدري لما اتخذتك خليلا قال لا يارب قال لاني رأيتك تحب ان تعطى ولا تحب ان تأخذ . وروى سهل بن سعد الساعدى رضي الله عنه قال أتى رجل الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله مُرْنِي بعمل يحبنى الله عليه ويحبني الناس فقال ازهد فى الدنيا يحبك الله وازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس . وقال ايوب السختيانى لاينبل الرجل حتى يكون فيه خصلتان العفة عن اموال الناس والتجاوز عنهم . وقيل لسفيان ما الزهد في الدنيا قال الزهد في الناس وكتب كسرى الى ابنه هرمز يابني استقل الكثير مما تعطي واستكثر القليل مما تأخذ فان قرة عيون الكرام في الاعطاء وسرور اللئام في الاخذ ولا تعد الشحيح أمينا ولا الكذاب حرا فانه لا عفة مع الشح ولا مروءة مع الكذب . وقال بعض الحكماء السخاء سخاآن اشرفهما سخاؤك عما بيد غيرك . وقال بعض البلغاء السخاء ان تكون بمالك متبرعا وعن مال غيرك متورعا . وقال بعض الصلحاء الجود غاية الزهد والزهد غاية الجود . وقال بعض الشعراء

اذا لم تكن نفس الشريف شريفة * وان كان ذا قدر فليس له شرف

والبذل على وجهين أحدهما ما ابتدأ به الانسان من غير سؤال والثاني ما كان عن طلب وسؤال فاما المبتدأ به فهو أطبعهما سخاء واشرفهما عطاء . وسئل علي كرم الله وجهه عن السخاء فقال ما كان منه ابتداء فاما ما كان عن مسألة فحياء . وقال بعض الحكما أجل النوال ما وصل قبل السؤال . وقال بعض الشعراء

وفتى خلا من ماله * ومن المروءة غير خال
أعطاك قبل سؤاله * وكفاك مكروه السؤال

وهذا النوع من البذل قد يكون لتسعة اسباب

فالسبب الاول أن يرى خلة يقدر على سدها وفاقة يتمكن من ازالتها فلا يدعه الكرم والتدين الا أن يكون زعيم صلاحها وكفيل نجاحها رغبة في الاجر ان تدين وفى الشكر ان تكرم. وقال أبو العتاهية

ماالناس الا آلة معتمله * للخير والشر جميعا فعله

والسبب الثاني أن يرى في ماله فضلا عن حاجته وفى يده زيادة عن كفايته فيرى انتهاز الفرصة بها فيضعها حيث تكون له ذخرا معدّا وغنما مستجدّا . وقد قال الحسن البصري رحمه الله ماأنصفك من كلفك اجلاله ومنعك ماله وقيل لهند بنت الحسن من اعظم الناس في عينك قالت من كان لي اليه حاجة . وقال الشاعر

وما ضاع مال ورّث الحمد أهله * ولكن أموال البخيل تضيع

والسبب الثالث أن يكون لتعريض يتنبه عليه لفطنته واشارة يستدل عليها بكرمه فلا يدعه الكرم أن يغفل ولا الحياء أن يكف . وقد حكى أن رجلا ساير بعض الولاة فقال ماأهزل برذونك فقال يده مع ايدينا فوصله اكتفاء بهذا التعريض الذي بلغ مالا يبلغه صريح السؤال ولذلك قال أكثم بن صيفي السخاء حسن الفطنة واللؤم سوء التغافل . وحكى أن عبيد الله بن سليمان لما تقلد وزارة المعتضد كتب اليه عبيد الله بن عبد الله بن طاهر

أبى دهرنا اسعافنا في نفوسنا * وأسعفنا فيمن نحب ونكرم
فقلت لها نعماك فيهم أتمها * ودع امرنا ان المهم مقدم

فقال عبيد الله ماأحسن ماشكا امره بين اضعاف مدحه وقضى حاجته. وقال بعض الشعراء

ومن لايرى من نفسه مذكرا لها * رأى طلب المستنجدين ثقيلا

والسبب الرابع أن يكون ذلك رعاية ليد او جزاء على صنيعة فيرى تأدية الحق عليه طوعا اما أنفة واما شكرا ليكون من اسر الامتنان طليقا ومن رق الاحسان وعبوديته عتيقا . قال بعض الحكماء الاحسان رق والمكافأة عتق . وقال ابو العتاهية رحمه الله تعالى

وليست ايادي الناس عندى غنيمة * ورب يد عندي اشد من الاسر

والسبب الخامس أن يؤثر الاذعان بتقديمه والاقرار بتعظيمه توطيدا لرئاسة هو لها محب وعلى طلبها مكب . وقد قال الشاعر

حب الرئاسة داء لادواء له * وقل ماتجد الراضين بالقسم

فتستصعب عليه اجابة النفوس له طوعا الا بالاستعطاف واذعانها الا بالرغبة والاسعاف . وقدقال بعض الادباء بالاحسان يرتبط الانسان. وقال بعض البلغاء من بذل ماله أدرك آماله.

وقال بعض الشعراء

أترجو أن تسود بلا غناء * وكيف يسود ذو الدعة البخيل

والسبب السادس أن يدفع به سطوة اعدائه ويستكف به نفار خصمائه ليصيروا له بعد الخصومة أعوانا وبعد العداوة اخوانا اما لصيانة عرض واما لحراسة مجد . وقد قال ابو تمام الطائي

ولم يجتمع شرق وغرب لقاصد * ولا المجدفي كف امرئ والدراهم

ولم أر كالمعروف تدعى حقوقه * مغارم فى الاقوام وهى مغانم

وقال بعض الادباء من عظمت مرافقه أعظمه مرافقه

والسبب السابع أن يرب به سالف صنيعة أولاها ويراعي به قديم نعمة أسداها كيلا ينسي ماأولاه او يضاع ماأسداه فان مقطوع البر ضائع ومهمل الاحسان ضال . وقد قال الشاعر

وسمت امرأ بالبر ثم اطرحته * ومن أفضل الاشياء رب الصنائع

وقال محمد بن داود الاصبهاني

بدأت بنعمي اوجبت لي حرمة * عليك فعد بالفضل فالعود أحمد

والسبب الثامن المحبة يؤثر بها المحبوب على ماله فلا يضن عليه بمرغوب ولا ينفس عليه بمطلوب للذة التي هى عنده احظى والى نفسه أشهى لان النفس الى محبوبها أشوق والى مايليه أسبق . وقد قال الشاعر

فما زرتكم عمدا ولكنّ ذا الهوى * الى حيث يهوي القلب تهوي به الرجل

وهذا وان دخل فى اقسام العطاء فخارج عن حد السخاء وهكذا الخامس والسادس من هذه الاسباب وانما ذكرناها لدخولها تحت اقسام العطاء

والسبب التاسع وليس بسبب أن يفعل ذلك لغير ماسبب وانما هى سجية قد فطر عليها وشيمة قد طبع بها فلا يميز بين مستحق ومحروم ولا يفرق بين محمود ومذموم كما قال بشار

ليس يعطيك للرجاء ولا لا * نخوف لكن يلذ طعم العطاء

وقد اختلف الناس في مثل هذا هل يكون منسوبا الى السخاء فيحمد او خارجا عنه فيذم وقال قوم هذا هو السخي طبعا والجواد كرما وهو احق من كان به ممدوحا واليه منسوبا .

وقال ابو تمام

من غير ماسبب يدني كفى سببا * للحر أن يجتدي حرا بلا سبب

وقال الحسن بن سهل اذا لم اعط الا مستحقا فكأني أعطيت غريما وقال الشرف في السرف

فقيل له لا خير في السرف فقال ولا سرف في الخير . وقال الفضل بن سهل العجب لمن يرجو من فوقه كيف يحرم من دونه . وقال بشار

وما الناس الا صاحباك فمنهم * سخي ومغلول اليدين من البخل
فسامح يدا ما امكنتك فانها * تقل وتثرى والعواذل في شغل

وقال آخرون هذا خارج من السخاء المحمود الى السرف والتبذير المذموم لان العطاء اذا كان لغير سبب كان المنع لغير سبب لان المال يقل عن الحقوق ويقصر عن الواجبات فاذا أعطى غير المستحق فقد يمنع مستحقا وما يناله من الذم بمنع المستحق أكثر مما يناله من الحمد لاعطاء غير المستحق وحسبك ذما بمن كانت أفعاله تصدر عن غير تمييز وتوجد لغير علة وقد قال الله تعالى ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا فنهى عن بسطها سرفا كما نهى عن قبضها بخلا فدل على استواء الامرين ذما وعلى اتفاقهما لوما .

وقال الشاعر وكان المال يأتينا فكنا * نبذره وليس لنا عقول
فلما ان تولى المال عنا * عقلنا حين ليس لنا فضول

قالوا ولان العطاء والمنع اذا كانا لغير علة أفضيا الى ذم الممنوع وقلة شكر المعطى اما الممنوع فلانه قد فضل عليه من سواه واما المعطى فانه وجد ذلك اتفاقا وربما امل بالاتفاق اضعافا فصار ذلك مفضيا الى اجتلاب الذم واحباط التشكر وليس فيما افضى الى واحد منهما خير يرجى وهو جدير ان يكون شرا يتقى ولمثل هذا كان منع الجميع ارضاء للجميع وعطاء يكون المنع ارضى منه خسران مبين فاما اذا كان البذل والعطاء عن سؤال فشروطه معتبرة من وجهين احدهما في السائل والثاني في المسؤل فاما ما كان معتبرا في السائل فثلاثة شروط

الشرط الاول ان يكون السؤال لسبب والطلب لموجب فان كان لضرورة ارتفع عنه الحرج وسقط عنه اللوم . وقد قال بعض الحكماء الضرورة توقح الصورة . وقال بعض الشعراء

ألا قبح الله الضرورة انها * تكلف أعلى الخلق أدنى الخلائق
ولله در الاتساع فانه * يبين فضل السبق من غير سابق

وقال الكميت اذا لم تكن الا الاسنة مركبا * فلا رأي للمضطر الا ركوبها

فان ارتفعت الضرورة ودعت الحاجة فيما هو اولى الامرين ان يكون وان جاز ان لا يكون فالنفس المسامحة تغلب الحاجة وتسمح في الطلب وتراعي ما استقام به الامر وان ناله ذل ولحقه وهن فيتأول صاحبها قول البحتري

وربما كان مكروه الامور الى * محبوبها سببا ما مثله سبب

والنفس الشريفة تطلب الصيانة وتراعي النزاهة وتحتمل من الضر ما احتملت ومن الشدة ما أطاقت فيبقي تحملها ويدوم تصوّنها فتكون كما قال الشاعر

وقد يكتسى المرء خز الثياب * ومن دونها حالة مضنيه
كما يكتسى خده حمرة * وعلته ورم في الريه

فلا يرى ان يتدنس بمطالب الشؤم ومطامع اللؤم فان البهائم الوحشية تأبى ذلك وتأنف منه قال الشاعر

وليس الليث من جوع بغاد * على جيف تطيف بها الكلاب

فكيف بالانسان الفاضل الذي هو اكرم الحيوان جنسا واشرفه نفسا هل يحسن به ان يرى لوحش البهائم عليه فضلا . وقد قال الشاعر

على كل حال يأكل المرء زاده * على البؤس والضراء والحدثان

والفضل في مثل ما قيل لبعض الزهاد لو سألت جارك أعطاك فقال والله ماأ سأل الدنيا ممن يملكها فكيف ممن لا يملكها ووصف بعض الشعراء قوما فقال

اذا افتقروا أغضوا على الضر حسبة * وان أيسروا عادوا سراعا الى الفقر

فاما من يسأل من غير ضرورة مست ولا حاجة دعت فذلك صريح اللؤم ومحض الدناءة وقلما تجد مثله ملحوظا أو مموّلا محظوظا لان الحرمان قاده الى أضيق الارزاق واللؤم ساقه الى أخبث المطاعم فلم يبق لوجهه ماء الا أراقه ولا ذل الا ذاقه كما قال عبد الصمد بن المعذل لابي تمام الطائي

أنت بين أثنتين تبرز للنا * س وكلتاهما بوجه مذال
لست تنفك طالبا لوصال * من حبيب أو طالبا لنوال
أي ماء لحر وجهك يبقى * بين ذل الهوى وذل السؤال

ولو استقبح العار وأنف من الذل لوجد غير السؤال مكتسبا يمونه ولقدر على ما يصونه . وقد قال الشاعر

لا تطلبن معيشة بتذلل * فليأتينك رزقك المقدور
واعلم بانك آخذ كل الذي * لك في الكتاب مقدّر مسطور

والشرط الثانى من شروط السؤال أن يضيق الزمان عن ارجائه ويقصر الوقت عن ابطائه فلا يجد لنفسه فى التأخير فسحة ولا فى التمادى مهلة فيصير من المعذورين وداخلا في عداد المضطرين فاما اذا كان الوقت متسعا والزمان ممتدا فتعجيل السؤال لؤم وقنوط .

وقال الشاعر

أبى لي اغضاء الجفون على القذى * يقيني أن لاعسر الا مفرج
ألا ربما ضاق القضاء باهله * وأمكن من بين الاسنة مخرج

والشرط الثالث اختيار المسؤل أن يكون مرجو الاجابة مأمول النجح اما لحرمة السائل او كرم المسؤل فان سأل لئيما لايرعى حرمة ولا يولي مكرمة فهو في اختياره ملوم وفي سؤاله محروم . وقد قال بعض البلغاء المخذول من كانت له الى اللئام حاجة . وقد قال بعض البلغاء أذل من اللئيم سائله واقل من البخيل نائله . وقال بعض الشعراء

من كان يأمل أن يرى * من ساقط نيلا سنيا
فلقد رجى أن يجتنى * من عوسج رطبا جنيا

وأما الشروط المعتبرة في المسؤل فثلاثة

الشرط الاول أن يكتفي بالتعريض ولا يلجئ الى السؤال الصريح ليصون السائل عن ذل الطلب فان الحال ناطقة والتعريض كاف . وقد قال الشاعر

أقول وستر الدجى مسبل * كما قال حين شكى الضفدع
كلامي ان قلته ضائع * وفي الصمت حتفى فما اصنع

وربما فهم المسؤل الاشارة فالجأ الى التصريح بالعبارة تهجينا للسائل فيخجل ويستحي فيكف كما قال ابو تمام

من كان مفقود الحياءفوجهه * من غير بوّاب له بوّاب

والشرط الثاني ان يلقى بالبشر والترحيب ويقابل بالطلاقة والتقريب ليكون مشكورا ان أعطى ومعذورا ان منع . وقد قال بعض الحكماء الق صاحب الحاجة بالبشر فان عدمت شكره لم تعدم عذره . وقال ابن لنكك ان أبا بكر بن دريد قصد بعض الوزراء فى حاجة فلم يقضها له وظهر له منه ضجر فقال

لاتدخلنك ضجرة من سائل * فلخير دهرك أن ترى مسؤلا
لاتجبهن بالرد وجه مؤمل * فبقاء عزك ان ترى مأمولا
تلقى الكريم فتستدل ببشره * وترى العبوس على اللئيم دليلا
واعلم بانك عن قليل صائر * خبرا فكن خبرا يروق جميلا

والشرط الثالث تصديق الامل وتحقيق الظن به ثم اعتبار حاله وحال سائله فانها لاتخلو من اربع أحوال فالحال الاولى أن يكون السائل مستوجبا والمسؤل متمكنا فالاجابة ههنا

تستحق كرما وتستلزم مروءة وليس للرد سبيل الا لمن استولى عليه البخل وهان عليه الذم فيكون كما قال عبد الرحمن بن حسّان

اني رأيت من المكارم حسبكم * أن تلبسوا خز الثياب وتشبعوا
فاذا تذوكرت المكارم مرة * في مجلس أنتم به فتقنعوا

فنعوذبالله ممن حرم ثروةماله ومنع حسن حاله أن يكون مستودعا في صنيع مشكور وبرّ مذخور وقد قيل لبخيل لم حبست مالك قال للنوائب فقيل له قد نزلت بك . وقال بعض الشعراء

مالك من مالك الا الذي * قدمت فابذل طائعا مالكا
تقول أعمالي ولو فتشوا * رأيت أعمالك أعمى لكا

وقد أسقط حق نفسه ورفع اسباب شكره فصار بان لاحق له مذموما كمشكور ومأثوما كأجور . وقال ابو العتاهية

خزن البخيل عليّ صالحه * اذ لم يثقل بره ظهري
مافاتني خير امرئ وضعت * عني يداه مؤنة الشكر

فاذا لم يكن للرد في مثل هذه الحال سبيل نظر فان كان التأخير مضرا عجل بذله وقطع مطله وكانت اجابته فعلا وقوله عملا . وقد قالت الحكماء من مروءة المطلوب منه أن لايلجئ الى الحاح عليه . وقال محمد بن حازم

ومنتظر سؤالك بالعطايا * وأشرف من عطاياه السؤال
اذا لم يأتك المعروف طوعا * فدعه فالتنزه عنه مال

وان كان في الوقت مهلة وفي التأخير فسحة فقد اختلفت مذاهب الفضلاء فيه فذهب بعضهم الى أن الاولى تعجيل الوعد قولا ثم يعقبه الانجاز فعلا ليكون السائل مسرورا بتعجيل الوعد ثم بآجل الانجاز ويكون المسؤل موصوفا بالكرم ملحوظا بالوفاء . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال العدة عطية . وقال الفضل بن سهل لرجل سأله حاجة أعدك اليوم واحبوك غدا بالانجاز لتذوق حلاوة الامل وأتزين بثوب الوفاء ووعد يحيى بن خالد رجلا بحاجة سأله اياها فقيل له تعد وانت قادر فقال ان الحاجة اذا لم يتقدمها وعد ينتظر صاحبه نجحه لم يجد سرورها لان الوعد طمع والانجاز طعام وليس من فاجأه الطعام كمن يجد ريحه ويطمعه فدع الحاجة تختمر بالوعد ليكون لها طعم عند المصطنع اليه . وقال بعض البلغاء اذا أحسنت القول فاحسن الفعل ليجتمع لك ثمرة اللسان وثمرة الاحسان ولا تقل مالا تفعل فانك لاتخلو في ذلك من ذنب تكسبه او عجز تلتزمه ومنهم من ذهب الى أن تعجيل

البذل فعلا من غير وعد اولى وتقديمه من غير توقيت ولا انتظار أحرى وانما يقدم الوعد احد رجلين اما معوز ينتظر وجده واما شحيح يروض نفسه توطئة وليس للوعد في غير هاتين الحالتين وجه يصح ولا رأي يتضح مع ما يغيره الليل والنها وتتقلب به الحال من يسار واعسار وقال بعض الشعراء

يا أيها الملك المقدّم أمره شرقا وغربا
أمنن بختم صحيفتي * ما دام هذا الطين رطبا
واعلم بان جفافه * مما يعيد السهل صعبا

قالوا ولان في الرجوع عنه من الانكسار وفي توقع الوعد من مرارة الانتظار وفي العود اليه من بذلة الاقتضاء وذلة الاجتداء ما يكدر بره ويوهن شكره . وقال الشاعر

ان الحوائج ربما ازرى بها * عند الذي تقضى له تطويلها
فاذا ضمنت لصاحب لك حاجة * فاعلم بان تمامها تعجيلها

والحال الثانية ان يكون السائل غير مستوجب والمسؤل غير متمكن فني الرد فسحة وفي المنع عذر غير انه يلين عند الرد لينا يقيه الذم ويظهر عذر ايدفع عند اللوم فليس كل مقل يعرف ولا معذور ينصف . وقد قال ابو العتاهية يصف الناس

يارب ان الناس لا ينصفوني * فكيف وان انصفتهم ظلموني
فان كان لي شيء تصدوا لاخذه * وان جئت ابغى شيأهم منعوني
وان نالهم بذلي فلا شكر عندهم * وان أنا لم أبذل لهم شتموني
وان طرقتني نكبة فكهوا بها * وان صحبتني نعمة حسدوني
سامنع قلبي ان يحن اليهم * واغمض عنهم ناظري وجفوني
واقطع أيامي بيوم سهولة * أقضي بها عمري ويوم حزون
ألا ان أصفى العيش ما طاب غبه * وما نلته في لذة وسكون

والحال الثالثة ان يكون السائل مستوجبا والمسؤل غير متمكن فيأتي بالحمل على النفس ما أمكن من يسير يسد به خلة او يدفع به مذمة او يوضح من اعذار المعوزين وتوجع المتألمين مايجعله في المنع معذورا وبالتوجع مشكورا . وقد قال ابو النصر العتبي رحمه الله تعالى

الله يعلم اني لست ذا بخل * ولست ملتمسا في البخل لي علا
لكن طاقة مثلي غير خافية * والمثل يعذر في القدر الذي حملا

وربما تحسر بحدوث العجز بعد تقدم القدرة على فوت الصنيعة وزوال العادة حتى صار اضني جسدا وازيد كمدا كما قال الشاعر

وكنت كباز السوء قص جناحه * يرى حسرات كلما طار طائر
يرى طائرات الجو تخفق حوله * فيذكر اذ ريش الجناحين وافر

والحال الرابعة أن يكون السائل غير مستوجب والمسؤل متمكنا وعلى البذل قادرا فينظر فان خاف بالرد قدح عرض او قبح هجاء ممض كان البذل مندوبا صيانة لاجودا. فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ماوقي به المرء عرضه فهو له صدقة وان أمن من ذلك وسلم منه فمن الناس من غلب المسألة وأمر بالبذل لئلا يقابل الرجاء بالخيبة والامل بالاياس ثم لما فيه من اعتياد الرد واستسهال المنع المفضي الى الشح وأنشد الاصمعي عن الكسائي

كانك في الكتاب وجدت لاء * محرمة عليك فلا تحل
فما تدري اذا أعطيت مالا * أيكثر من سماحك ام يقل
اذا حضر الشتاء فانت شمس * وان حضر المصيف فانت ظل

ومن الناس من اعتبر الاسباب وغلب حال السائل وندب الى المنع اذا كان العطاء في غير حق ليقوي على الحقوق اذا عرضت ولا يعجز عنها اذا لزمت وتعينت . وقد قال بعض الشعراء

لاتجُدْ بالعطاء في غير حق * ليس في منع غير ذي الحق بخل
انما الجود ان تجود على من * هو للجود والندى منك اهل

فاما من أجاب السؤال ووعد بالبذل والنوال فقد صار بوعده مرهونا وصار وفاؤه بالوعد مقرونا فالاعتبار بحق السائل بعد الوعد ولا سبيل الى مراجعة نفسه في الرد يستوجب مع ذم المنع لؤم البخل ومقت القادر ومُجْنة الكذوب ثم لا سبيل لمطله بعد الوعد لما في المطل من تكدير الصنيع وتمحيق الشكر والعرب تقول في امثالها المطل احد المنعين واليأس احد النجحين . وقال بشار بن برد

أظلت علينا منك يوما غمامة * أضاءت لنا برقا وأبطا رشاشها
فلا غيمها يجلي فييأس طامع * ولا غيثها يأتي فيروي عطاشها

ثم اذا انجز وعده واوفى عهده لم يتبع نفسه ما اعطى ويسر ان كانت يده العليا فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اليد العليا خير من اليد السفلى . وقال الشاعر

فانك لا تدري اذا جاء سائل * أأنت بما تعطيه أم هو أسعد
عسى سائل ذوحاجة ان منعته * من اليوم سؤلا ان يكون له غد

وليكن من سروره اذ كانت الارزاق مقدرة أن تكون على يده جارية ومن جهته واصلة لاتنتقل عنه بمنع ولا تتحول عنه بإياس . وحكي أن رجلا شكى كثرة عياله الى بعض الزهاد فقال انظر من كان منهم ليس رزقه على الله عز وجل فحوله الى منزلي . وقال ابن سيرين لرجل كان يأتيه على دابة ففقد الدابة مافعل برذونك قال اشتدت علىّ مؤنته فبعته قال أفتراه خلف رزقه عندك . وقال ابن الرومى رحمه الله

ان لله غير مرعاك مرعى * نرتعيه وغير مائك ماء
ان لله بالبرية لطفا * سبق الامهات والآباء

ثم ليكن غالب عطائه لله تعالى واكثر قصده ابتغاء ماعند الله عزوجل كالذي حكاه ابوبكرة عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ان اعرابيا اتاه فقال

ياعمر الخيرجزيت الجنه * اكس بنياتي وامهنه
وكن لنا من الزمان جنه * اقسم بالله لتفعلنه

فقال عمر رضى الله عنه فان لم أفعل يكون ماذا فقال

* اذا ابا حفص لاذهبنه *

فقال فاذا ذهبت يكون ماذا فقال

يكون عن حالي لتسألنه * يوم تكون الاعطيات هنه
وموقف المسؤل بينهنه * اما الى نار واما جنه

فبكى عمر رضى الله عنه حتى اخضلت لحيته ثم قال ياغلام اعطيه قميصي هذا لذلك اليوم لاشعره أما والله لاأملك غيره واذا كان العطاء على هذا الوجه خلا من طلب جزاء وشكر وعرى عن امتنان ونشر فكان ذلك أشرف للباذل واهنأ للقابل واما المعطي اذا التمس بعطائه الجزاء وطلب به الشكر والثناء فهو خارج بعطائه عن حكم السخاء لانه ان طلب به الشكر والثناء كان صاحب سمعة ورياء وفي هذين من الذم ما ينافي السخاء وان طلب به الجزاء كان تاجرا متربحا لايستحق حمدا ولا مدحا . وقد قال ابن عباس رضى الله عنهما في تأويل قوله تعالى ولا تمنن تستكثر انه لايعطي عطية يلتمس بها افضل منها . وكان الحسن البصري رضى الله عنه يقول فى تأويل ذلك لاتمنن بعملك تستكثر على ربك . وقال ابو العتاهية

وليست يد اوليتها بغنيمة * اذا كنت ترجو ان تعد لها شكرا
غنى المرء مايكفيه من سد حاجة * فان زاد شيأ عاد ذاك الغنى فقرا

واعلم ان الكريم يجتدي بالكرامة واللطف واللئيم يجتدي بالمهانة والعنف فلا يجود الا خوفا ولا يجيب الا عنفا كما قد قال الشاعر

رايتك مثل الجوز يمنع لبه * صحيحا ويعطى خيره حين يكسر

فاحذر أن تكون المهانة طريقا الى اجتدائك والخوف سبيلا الى اعطائك فيجرى عليك سفه الطغام وامتهان اللئام وليكن جودك كرما ورغبة لالؤما ورهبة كيلا يكون مع الوصمة كما قال العباس بن الاحنف

صرت كأني ذبالة نصبت * تضيء للناس وهي تحترق

واما النوع الثانى من البر فهو المعروف ويتنوع ايضا نوعين قولا وعملا فاما القول فهو طيب الكلام وحسن البشر والتودد بجميل القول وهذا يبعث عليه حسن الخلق ورقة الطبع ويجب أن يكون محدودا كالسخاء فانه ان أسرف فيه كان ملقا مذموما وان توسط واقتصد فيه كان معروفا وبرا محمودا . وقد قال ابن عباس رضى الله عنهما في تأويل قوله تعالى والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا انها الكلام الطيب . وكان سعيد بن جبير يتأول انها الصلوات الخمس . وروى سعيد عن ابى هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال انكم لن تسعوا الناس باموالكم فليسعهم منكم بسط الوجوه وحسن الخلق . وروى ان النبي صلى الله عليه وسلم أنشد عنده قول الاعرابى هذا

وَحَيِّ ذوى الاضغان تسب قلوبهم * تحيتك الحسنى فقد يُرْقَعَ النعل

فان دحسوا بالمكر فاعف تكرما * وان حبسوا عنك الحديث فلا تسل

فان الذي يؤذيك منه سماعه * وان الذي قالوا وراءك لم يقل

فقال النبي صلى الله عليه وسلم ان من الشعر لحكمة وان من البيان لسحرا وقيل للعتابي انك تلقى العامة ببشر وتقريب قال دفع صنيعة بأيسر مؤنة واكتساب اخوان بأيسر مبذول وقيل في منثور الحكم من قل حياؤه قل احباؤه . وقال بعض الشعراء

بنىّ ان البر شئ هين * وجه طليق وكلام لين

وقال بعضهم

المرء لايعرف مقداره * مالم تبن للناس أفعاله

وكل من يمنعنى بشره * فقل ماينفعنى ماله

وأما العمل فهو بذل الجاه والاسعاد بالنفس والمعونة فى النائبة وهذا يبعث عليه حب الخير للناس وايثار الصلاح لهم وليس في هذه الامور سرف ولا لغايتها حد بخلاف النوع الاول

لانها وان كثرت فهى أفعال خير تعود بنفعين نفع على فاعلها في اكتساب الاجر وجميل الذكر ونفع على المعان بها في التخفيف عنه والمساعدة له . وقد روى محمد بن المنكدر عن جابر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال كل معروف صدقة . وقال النبي صلى الله عليه وسلم صنائع المعروف تقى مصارع السوء وعنه عليه الصلاة والسلام أنه قال المعروف كاسمه وأول من يدخل الجنة يوم القيامة المعروف وأهله . وقال على بن ابي طالب كرم الله وجهه لايزهدنك في المعروف كفر من كفره فقد يشكر الشاكر باضعاف جحود الكافر . وقال الخطيئة

من يفعل الخير لا يعدم جوائزه * لا يذهب العرف بين الله والناس

وأنشد الرياشي

يد المعروف غنم حيث كانت * تحملها كفور ام شكور
ففى شكر الشكور لها جزاء * وعند الله ما كفر الكفور

فينبغي لمن يقدر على ابتداء المعروف ان يعجّله حذر فواته ويبادر به خيفة عجزه وليعلم انه من فرص زمانه وغنائم امكانه ولا يهمله ثقة بقدرته عليه فكم واثق بقدرة فاتت فاعقبت ندما ومعوّل على مكنة زالت فأورثت خجلا . وقد قال الشاعر

مازلت أسمع كم من واثق خجل * حتى ابتليت فكنت الواثق الخجل

ولو فطن لنوائب دهره ويحفظ من عواقب مكره لكانت مغانمه مذخورة ومغارمه مخبورة فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لكل شيء ثمرة وثمرة المعروف تعجيل السراح . وقيل لانوشروان ما أعظم المصائب عندكم فقال أن تقدر على المعروف ولا تصطنعه حتى يفوت وقال عبد الحميد من أخر الفرصة عن وقتها فليكن على ثقة من فوتها . وقال بعض الشعراء

اذا هبت رياحك فاغتنمها * فان لكل خافقة سكون
ولا تغفل عن الاحسان فيها * فما تدري السكون متى يكون
وان درت نياقك فاحتلبها * فما تدري الفصيل لمن يكون

وروى ان بعض وزراء بنى العباس مطل راغبا اليه في عمل يستكفيه اياه فكتب اليه بعد طول المطل به

أما يدعوك طول الصبر منى * على استئناف منفعتي وشغلي
وعلمك أن ذا السلطان غاد * على خطرين من موت وعزل
وانك ان تركت قضاء حقى * الى وقت التفرغ والتخلى
ستصبح نادما أسفا معزى * على فوت الصنيعة عند مثلي

وكتب بعض ذى الحرمات الى وال قد قصر في رعاية حرمته يقول

أعلى الصراط تريد رعية حرمتى * ام في الحساب تمن بالانعام

للنفع في الدنيا أردتك فانتبه * لحوائجي من رقدة النوّام

وكتب ابو علي البصير الى بعض الوزراء وقد اعتذر اليه بكثرت الاشغال يقول

لنا كل يوم نوبة قد ننوبها * وليس لنا رزق ولا عندنا فضل

فان تعتذر بالشغل عنا فانما * تناط بك الآمال ما اتصل الشغل

واعلم ان للمعروف شروطا لا يتم الا بها ولا يكمل الا معها فمن ذلك ستره عن اذاعة يستطيل لها واخفاؤه عن اشاعة يستدل بها . قال بعض الحكماء اذا اصطنعت المعروف فاستره واذا صنع اليك فانشره ولقد قال دعبل الخزاعى

اذا انتقموا اعلنوا امرهم * وان انعموا انعموا باكتئام

يقوم القعود اذا اقبلوا * وتقعد هيبتهم بالقيام

على ان ستر المعروف من اقوى اسباب ظهوره وابلغ دواعى نشره لما جبلت عليه النفوس من اظهار ما خفى واعلان ما كتم . وقال سهل ابن هارون

خل اذا جئته يوما لتسأله * اعطاك ما ملكت كفاه واعتذرا

يخفى صنائعه والله يظهرها * ان الجميل اذا اخفيته ظهرا

ومن شروط المعروف تصغيره عن أن يراه مستكبراً وتقليله عن ان يكون مستكثراً لئلا يصير به مدلا بطرا ومستطيلا أشرا . وقال العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه لا يتم المعروف الا بثلاث خصال تعجيله وتصغيره وستره فاذا عجلته هنأته واذا صغرته عظمته واذا سترته اتممته . وقال بعض الشعراء

زادك المعروف عندي عظماً * انه عندك ميسور حقير

وتناسيت كأن لم تأته * وهو عند الناس مشهور خطير

ومن شروط المعروف مجانبة الامتنان به وترك الاعجاب بفعله لما فيهما من اسقاط الشكر واحباط الاجر . فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال اياكم والامتنان بالمعروف فانه يبطل الشكر ويمحق الاجر ثم تلا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والاذى . وسمع بن سيرين رجلا يقول لرجل فعلت اليك وفعلت فقال ابن سيرين اسكت فلا خير في المعروف اذا أحصى . وقال بعض الحكماء المن مفسدة الصنيعة . وقال بعض الادباء كدّر معروفا امتنان وضيع حسبا امتهان . وقال بعض البلغاء من منّ بمعروفه اسقط شكره ومن اعجب بعمله احبط اجره

وقال بعض الفصحاء قوة المن من ضعف المنن . وقال بعض الشعراء

أفسدت بالمن ماأسديت من حسن * ليس الكريم اذا اسدى بمنان

وقال ابو نواس

فامض لاتمنن علىّ يدا * منك المعروف من كدره

وانشدت عن الربيع للشافعي رضى الله عنه

لاتحملن لمن يمنّ من لانام عليك منه

واختر لنفسك حظها * واصبر فان الصبر جنه

منن الرجال على القلو * ب اشد من وقع الاسنه

ومن شروط المعروف ان لايحتقر منه شيأ وانكان قليلا نزرا اذا كان الكثير معوزا وكنت عنه عاجزا فان من حقر يسيره فمنع منه أعجزه كثيره فامتنع عنه وفعل قليل الخير افضل من تركه فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال لايمنعكم من المعروف صغيره . وقال عبد الله ابن جعفر لاتستحى من القليل فان المنع أقل منه ولا تحبن عن الكثير فانك أكثر منه . وقال الشاعر

اعمل الخير مااستطعت وان كا * ن قليلا فلن تحيط بكله

ومتى تفعل الكثير من الخير * اذا كنت تاركا لاقله

على ان من المعروف مالا كلفة على موليه ولا مشقة على مسديه وانما هو جاه يستظل به الادنى ويرتفق به التابع . وقال الشاعر

ظل الفتى ينفع مَن دونه * وماله في ظله حظ

واعلم انك لن تستطيع أن يسع جميع الناس معروفك ولا أن توليهم احسانك فاعتمد بذلك أهل الفضل منهم والحفاظ واقصد به ذوى الرعاية والوداد ليكون معروفك فيهم ناميا وصنيعك عندهم زاكيا . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لاتنفع الصنيعة الا عند ذي حسب ودين . وقال النبي صلى الله عليه وسلم اذا أراد الله بعبد خيرا جعل صنائعه فى اهل الحفاظ وقال حسان بن ثابت رضي الله عنه

ان الصنيعة لاتكون صنيعة * حتى يصاب بها طريق المصنع

فاذا صنعت صنيعة فاعمل بها * لله أو لذوي القرابة أودع

وقيل فى منثور الحكم لاخير فى معروف الى غير عروف وقد ضرب الشاعر به مثلا فقال

كحمار السوء ان أشبعته * رمح الناس وان جاع نهق

وقال بعض الحكماء على قدر المغارس يكون اجتناء الغارس فاخذه بعض الشعراء فقال

لعمـــرك ماالمعروف فى غير أهله * وفي اهـــله الا كبعض الودائع
فمستودَع ضـاع الذي كان عنـده * ومســتودع ماعنده غير ضائع
وما الناس في شكر الصنيعة عندهم * وفي كفرها الا كبعض المزارع
فمزرعة طـابت واضـعف نبتهـا * ومزرعة أكّدت على كل زارع

واما من أســدى اليه المعروف واصطنع اليه الاحسان فقد صار باسر المعروف موثوقا وفي ملك الاحسان مرقوقا ولزمه ان كان من اهل المكافأة ان يكافئ عليها وان لم يكن من اهلها ان يقابل المعروف بنشره ويقابل الفاعل بشكره . فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال من أودع معروفا فلينشره فان نشره فقد شكره وان كتمه فقـد كفره . وروى الزهري عن عروة عن عائشة رضى الله عنها قالت دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وانا أتمثل بهذين البيتين

ارفع ضعيفك لايحربك ضعفه * يوما فتدركه العواقب قد نما
يجزيك او يثني عليك وان من * أثنى عليك بما فعلت فقد جزى

فقال النبي صلى الله عليه وسلم ردّي على قول اليهودي قاتله الله لقد اتاني جبرائيل برسالة من ربي تعالى ايما رجل صنع الى اخيه صنيعة فلم يجد لها جزاء الا الدعاء والثناء فقد كافأه . وقيل في منثور الحكم الشكر قيد النعم . وقال عبد الحميد من لم يشكر الإنعام فاعدده من الانعام وقيل في منثور الحكم قيمة كل نعمة شكرها . وقال بعض الحكماء كفر النعم من أمارات البطر واسباب الغير . وقال بعض الفصحاء الكريم شكور او مشكور واللئيم كفور او مكفور . وقال بعض البلغاء لازوال للنعمة مع الشكر ولا بقاء لها مع الكفر . وقال بعض الادباء

شكر الاله بطول الثناء * وشكر الولاة بصدق الولاء
وشكر النظير بحسن الجزاء * وشكرك الدون بحسن العطاء

وقال بعض الشعراء

فلوكان يستغني عن الشكر ماجد * لعزة ملك او علـو مكان
لما أمر الله العباد بشكره * فقال اشكروالي أيها الثقلان

فان من شكر معروف من احسن اليه ونشر افضال من انعم عليه فقد ادّى حق النعمة وقضى موجَب الصنيعة ولم يبق عليه الا استدامة ذلك اتماما لشكره ليكون للمزيد مستحقا ولمتابعة الاحسان مستوجبا . حكى ان الحجاج أُتيَ اليه بقوم من الخوارج وكان فيهم صديق له

فامر بقتلهم الا ذلك الصديق فانه عفا عنه وأطلقه ووصله فرجع الرجل الى قطرى بن الفجاءة فقال له عد الى قتال عدو الله فقال هيهات غلّ يدا مطلقها واسترقّ رقبة معتقها وأنشأ يقول

أأقاتل الحجاج في سلطانه * بيد تُقِرّ بانها مولاته
انى اذا لاخو الدناءة والذي * شهدت باقبح فعله غدراته
ماذا أقول اذا وقفت ازاءه * في الصف واحتجت له فعلاته
أأقول جار عليّ لا اني اذا * لأحق من جارت عليه ولاته
وتحدّث الاقوام ان صنائعا * غرست لديّ فحنظلت نخلاته

وقيل في منشور الحكم المعروف رق والمكافأة عتق ومن أشكر الناس الذي يقول

لأشكرنك معروفا هممت به * ان اهتمامك بالمعروف معروف
ولا ألومك ان لم يمضه قدر * فالشيء بالقدر المحتوم مصروف

وهذا النوع من الشكر الذى يتعجل المعروف ويتقدم البر قد يكون على وجوه فيكون تارة من حسن الثقة بالمشكور في وصول بره واسداء عرفه ولا رأى لمن يحسن به ظن شاكر أن يخلف حسن ظنه فيه فيكون كما قال العتابي

قد أورقت فيك آمالي بوعدك لي * وليس فى ورق الآمال لي ثمر

وقد يكون تارة من فرط شكر الراجي وحسن مكافأة الآمل فلا يرضى لنفسه الا بتعجيل الحق واسلاف الشكر وليس لمن صادف لمعروفه معدنا زاكيا ومغرسا ناميا ان يفوّت نفسه غنما ولا يحرمها ربحا فهذا وجه ثان وقد يكون تارة ارتهانا للمأمول وحبا للمسؤل وبحسب ما سلف من الشكر يكون الذم عند الاياس . وقال بعض الادباء من حكماء المتقدمين من شكرك على معروف لم تسده اليه فعاجله بالبر والا انعكس فصار ذما . وقال ابن الرومي

وما الحقد الا توأم الشكر في الفتى * وبعض السجايا ينسبن الى بعض
فحيث ترى حقدا على ذي اساءة * فثم ترى شكرا على حسن القرض
اذا الارض أدّت ربع ما أنت زارع * من البذر فيها فهى ناهيك من ارض

وأما من ستر معروف المنعم ولم يشكره على ما أولاه من نعمه فقد كفر النعمة وجحد الصنيعة وان من أذم الخلائق وأسوأ الطرائق ما يستوجب به قبح الرد وسوء المنع . فقد روى ابو هريرة رضي الله عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لا يشكر الله من لا يشكر الناس . وقال بعض الادباء من لم يشكر لمنعمه استحق قطع النعمة . وقال بعض الفصحاء من كفر نعمة المفيد استوجب حرمان المزيد . وقال بعض البلغاء من أنكر الصنيعة استوجب قبح القطيعة

وانشدني بعض الادباء ماذكر انه لعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه

من جاور النعمة بالشكر لم * يخش على النعمة مغتالها
لو شكروا النعمة زادتهم * مقالة الله التي قالها
لئن شكرتم لأزيدنكم * لكنما كفرهم غالها
والكفر بالنعمة يدعو الى * زوالها والشكر أبقى لها

وهذا آخر ما يتعلق بالقاعدة الثانية من اسباب الالفة الجامعة فاما القاعدة الثالثة فهى المادة الكافية لان حاجة الانسان لازمة لا يعرى منها بشر . قال الله تعالى وما جعلناهم جسدا لا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين فاذا عدم المادة التي هي قوام نفسه لم تدم له حياة ولم تستقم له دنيا واذا تعذر شيء منها عليه لحقه من الوهن في نفسه والاختلال في دنياه بقدر ما تعذر من المادة عليه لان الشيء القائم بغيره يكمل بكماله ويختل باختلاله ثم لما كانت المواد مطلوبة لحاجة الكافة اليها أعوزت بغير طلب وعدمت لغير سبب واسباب المودة مختلفة وجهات المكاسب متشعبة ليكون اختلاف اسبابها علة الائتلاف بها وتشعب جهاتها توسعة لطلابها كيلا يجتمعوا على سبب واحد فلا يلتئمون ويشتركوا في جهة واحدة فلا يكتفون ثم هداهم اليها بعقولهم وارشدهم اليها بطباعهم حتى لا يتكلفوا ائتلافهم فى المعايش المختلفة فيعجزوا ولا يعاونوا بتقدير موادهم بالمكاسب المتشعبة فيختلوا حكمة منه سبحانه وتعالى اطلع بها على عواقب الامور . وقد انبأ الله تعالى فى كتابه العزيز اخبارا واذكارا فقال سبحانه وتعالى قال ربنا الذى اعطى كل شيء خلقه ثم هدى اختلف المفسرون فى تأويل ذلك فقال قتادة اعطى كل شيء ما يصلحه ثم هداه وقال مجاهد اعطى كل شيء صورته ثم هداه لمعيشته وقال ابن عباس رضى الله عنهما اعطى كل شيء زوجة ثم هداه لنكاحها . وقال تعالى يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا يعنى معايشهم متى يزرعون ومتى يغرسون وهم عن الآخرة هم غافلون . وقال تعالى وقدّر فيها اقواتها في اربعة ايام سواء للسائلين . قال عكرمة قدّر في كل بلدة منها ما لم يجعله فى الاخرى ليعيش بعضهم من بعض بالتجارة من بلد الى بلد . وقال الحسن البصرى وعبد الرحمن بن زيد قدّر ارزاق اهلها سواء للسائلين الزيادة فى ارزاقهم ثم ان الله تعالى جعل لهم مع ما هداهم اليه من مكاسبهم وارشدهم اليه من معائشهم دينا يكون حكما وشرعا يكون قيما ليصلوا الى موادهم بتقديره ويطلبوا اسباب مكاسبهم بتدبيره حتى لا ينفردوا بارادتهم فيتغالبوا وتستولى عليهم اهواؤهم فيتقاطعوا . قال الله تعالى ولو اتبع الحق اهواءهم لفسدت السموات والارض . قال المفسرون الحق

في هذا الموضع هو الله جل جلاله فلاجل ذلك لم يجعل المواد مطلوبة بالالهام حتى جعل العقل هاديا اليها والدين قاضيا عليها لتتم السعادة وتعم المصلحة ثم انه جلت قدرته جعل سد حاجتهم وتوصلهم الى منافعهم من وجهين بمادة وكسب فاما المادة فهى حادثة عن اقتناء أصول نامية بذواتها وهى شيئان نبت نام وحيوان متناسل . قال الله تعالى وأنه هو أغنى واقنى قال ابو صالح أغنى خلقه بالمال واقنى جعل لهم قنية وهي اصول الاموال واما الكسب فيكون بالافعال الموصلة الى المادة والتصرف المؤدى الى الحاجة وذلك من وجهين احدهما تقلب في تجارة والثاني تصرف في صناعة وهذان هما فرع لوجهى المادة فصارت اسباب المواد المألوفة وجهات المكاسب المعروفة من اربعة اوجه نماء زراعة ونتاج حيوان وربح تجارة وكسب صناعة . وحكى الحسن بن رجاء مثل ذلك عن المامون قال سمعته يقول معايش الناس على اربعة اقسام زراعة وصناعة وتجارة وامارة فمن خرج عنها كان كلا عليها واذ قد تقررت اسباب المواد بما ذكرناه فسنصف حال كل واحدمنهابقول موجزأما الاول من اسبابها وهى الزراعة فهى مادة اهل الحضر وسكان الامصار والمدن والاستمداد بها أعم نفعا واوفى فرعا ولذلك ضرب الله تعالى به المثل فقال مثل الذين ينفقون اموالهم في سبيل الله كمثل حبة انبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبه والله يضاعف لمن يشاء . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال خير المال عين ساهرة لعين نائمة . وقال صلى الله عليه وسلم نعمت لكم النخلة تشرب من عين خرارة وتغرس في ارض خوارة . وقال صلى الله عليه وسلم في النخل هي الراسخات في الوحل المطعمات في المحل . وقال بعض السلف خير المال عين خرارة في ارض خوارة تسهر اذا نمت وتشهد اذا غبت وتكون عقبا اذا مت . وروى هشام بن عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم التمسوا الرزق في خبايا الارض يعني الزرع . وحكى عن المعتضد انه قال رأيت علي بن أبي طالب رضى الله عنه في المنام يناولنى المسحاة وقال خذها فانها مفاتيح خزائن الارض وقال كسرى للموبذ ماقيمة تاجى هذا فاطرق ساعة ثم قال ما أعرف له قيمة الا ان تكون مطرة في نيسان فانها تصلح من معايش الرعية ما تكون قيمته مثل تاج الملك ولقى عبد الله بن عبد الملك بن شهاب الزهري فقال له أدللنى على مال أعالجه فأنشأ بن شهاب يقول

تتبع خبايا الارض وادع مليكها * لعلك يوما ان تجاب فترزقا
فيؤتيك مالا واسعاً ذا متانة * اذا ما مياه الارض غارت تدفقا

وقد اختلف الناس في تفضيل الزرع والشجر بما ليس يتسع كتابنا هذا لبسط القول فيه غير ان

من فضل الزرع فلقرب مداه ووفور جداه ومن فضل الشجر فلثبوت اصله وتوالى ثمره . واما الثاني من اسبابها وهو نتاج الحيوان فهو مادة اهل الفلوات وسكان الخيام لانهم لما لم تستقر بهم دار ولم تضمهم امصار افتقروا الى الاموال المنتقلة معهم ومالا ينقطع نماؤه بالظعن والرحلة فاقتنوا الحيوان لانه يستقل في النقلة بنفسه ويستغني عن العلوفة برعيه ثم هو مركوب ومحلوب فكان اقتناؤه على اهل الخيام ايسر لقلة مؤنته وتسهيل الكلفة به وكانت جدواه عليهم اكثر لوفور نسله واقتيات رسله الهاما من الله لخلقه في تعديل المصالح فيهم وارشادا لعباده في قسم المنافع بينهم . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال خير المال مهرة مأمورة وسكة مأبورة ومعنى قوله صلى الله عليه وسلم مهرة مأمورة أي كثيرة النسل ومنه تأول الحسن وقتادة قوله تعالى أمرنا مترفيها اي كثرنا عددهم واما السكة المأبورة فهي النخل المؤبرة الحمل . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال في الغنم سنمها معاش وصوفها رياش . وروى عن ابي ظبيان انه قال قال لي عمر ابن الخطاب رضى الله عنه ما مالك يا أبا ظبيان قال قلت عطائي الفان قال اتخذ من هذا الحرث والسائبات قبل ان تليك غلمة من قريش لا تعد العطاء معهم مالا والسائبات النتاج . وحكى ان امرأة اتت النبي صلى الله عليه وسلم فقالت يا رسول الله اني اتخذت غنما ابتغي نسلها ورسلها وانها لا تنمي فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم ما الوانها قالت سود فقال عفرى وهذا مثل قوله صلى الله عليه وسلم في مناكح الآدميين اغربوا ولا تضووا . واما الثالث من اسبابها وهي التجارة فهي فرع لمادتي الزرع والنتاج فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال تسعة أعشار الرزق في التجارة والحرث والباقي في السائبات وهي نوعان تقلب في الحضر من غير نقلة ولا سفر وهذا تربص واختصار وقد رغب عنه ذوو الاقتدار وزهد فيه ذوو الاخطار والثاني تقلب بالمال بالاسفار ونقله الى الامصار فهذا أليق باهل المروءة وأعم جدوى ومنفعة غير انه اكثر خطرا واعظم غررا . فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ان المسافر وماله لعلى تلف الا ماوقى الله يعني على خطر وفي التوراة يا ابن آدم احدث سفرا احدث لك رزقا . واما الرابع من اسبابها وهو الصناعة فقد يتعلق بما مضى من الاسباب الثلاثة وتنقسم اقساما ثلاثة صناعة فكر وصناعة عمل وصناعة مشتركة بين فكر وعمل لان الناس آلات للصناعات واشرفهم نفساً متهيء لاشرفها جنسا كما ان ارذلهم نفسا متهيء لارذلها جنساً لان الطبع يبعث على ما يلائمه ويدعو الى ما يجانسه . وحكى ان الاسكندر لما اراد الخروج الى اقاصى الارض قال لارسطاطاليس اخرج معي قال قد نحل جسمي وضعفت عن الحركة فلا تزعجني قال فما أصنع

في عمالى خاصة قال انظر الى من كان له عبيد فأحسن سياستهم فوله الجنود ومن كانت له ضيعة فأحسن تدبيرها فوله الخراج فنبه باعتبار الطباع على ما اغناه عن كلفة التجربة واشرف الصناعات صناعة الفكر وهى مدبرة وارذلها صناعة العمل لان العمل نتيجة الفكر وتدبيره فاما صناعة الفكر فقد تنقسم قسمين احدهما ما وقف على التدبيرات الصادرة عن نتائج الآراء الصحيحة كسياسة الناس وتدبير البلاد وقد افردنا للسياسة كتابا لخصنا فيه من جملها ما ليس يحتمل هذا الكتاب زيادة عليها والثانى ما أدّت الى المعلومات الحادثة عن الافكار النظرية وقد مضى في فضل العلم من كتابنا هذا باب اغنى مافيه عن زيادة قول فيه واما صناعة العمل فقد تنقسم قسمين عمل صناعي وعمل بهيمى فالعمل الصناعي اعلاها رتبة لانه يحتاج الى معاطاة في تعلمه ومعانات في تصوّره فصار بهذه النسبة من المعلومات الفكرية والآخر انما هو صناعة كدّ وآلة مهنة وهي الصناعة التي تقتصر عليها النفوس الرذلة وتقف عليها الطباع الخاسئة كما قال أكثم بن صيفى لكل ساقطة لاقطة وكما قال المثلس

ولا يقيم على ضيم يسام به * الا الاذلان عير الحى والوتد
هذا على الخسف مربوط برمته * وذا يشج فلا يرثي له أحد

وأما الصناعة المشتركة بين الفكر والعمل فقد تنقسم قسمين أحدهما ان تكون صناعة الفكر اغلب والعمل تبعا كالكتابة والثانى ان تكون صناعة العمل اغلب والفكر تبعا كالبناء واعلاهما رتبةً ما كانت صناعة الفكر اغلب عليها والعمل تبعا لها فهذه أحوال الخلق التي ركبهم الله عز وجل عليها في ارتياد موادهم ووكلهم الى نظرهم في طلب مكاسبهم وفرق بين هممهم في التماسهم ليكون ذلك سببا لالفتهم فسبحان من تفرد فينا بلطف حكمته واظهر فطننا بعزائم قدرته واذ قد وضح القول في اسباب المواد وجهات الكسب فليس يخلو حال الانسان فيها من ثلاثة أمور احدها ان يطلب منها قدر كفايته ويلتمس وفق حاجته من غير ان يتعدى الى زيادة عليها او يقتصر على نقصان منها فهذه أحمد احوال الطالبين وأعدل مراتب المقتصدين . وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال اوحى الله تعالى الىّ كلمات فدخلن فى اذني ووقرن فى قلبى من اعطى فضل ماله فهو خير له ومن امسك فهو شر له ولا يلم الله على كفاف . وروى حميد عن معاوية بن جندة قال قلت يا رسول الله ما يكفيني من الدنيا قال مايسد جوعتك ويستر عورتك فان كان ذلك فذاك وان كان حمار فنخ بخ فلق من خبز او جزء من ماء وانت مسؤل عما فوق الازار . وقد روى عن ابن عباس ومجاهد فى قوله تعالى اذ جعل فيكم انبياء وجعلكم ملوكا ان كل من ملك بيتا وزوجة وخادما فهو ملك .

وروي زيد بن أسلم قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من كان له بيت وخادم فهو ملك وهو في المعنى صحيح لانه بالزوجة والخادم مطاع في أمره وفي الدار محجوب الا عن اذنه وليس على من طلب الكفاية ولم يجاوز تبعات الزيادة الا توخى الحلال منه واجمال الطلب فيه ومجانبة الشبهة الممازجة له . وقد روى نافع عن ابن عمر رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشتبهات فدع ما يريبك الى مالا يريبك فلن تجد فقد شئ تركته لله . وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الزهد فقال أما انه ليس باضاعة المال ولا تحريم الحلال ولكن ان تكون بما بيد الله اوثق منك بما في يديك وأن يكون ثواب المصيبة ارجح عندك من بقائها . وحكي عبد الله بن المبارك قال كتب عمر بن عبد العزيز الى الجراح بن عبد الله الحكمى ان استطعت ان تدع مما أحل الله لك ما يكون حاجزا بينك وبين الحرام فافعل فانه من استوعب الحلال تاقت نفسه الى الحرام وقد اختلف أهل التأويل في قوله تعالى فانّ له معيشة ضنكا فقال عِكْرِمة يعنى كسبا حراما وقال ابن عباس هو انفاق من لا يوقن بالخلف وقال يحيي بن معاذ الدرهم عقرب فان احسنت رقيتها والا فلا تأخذها وقيل من قلّ توقيه كثرت مساويه . وقال بعض البلغاء خير الاموال ما أخذته من الحلال وصرفته فى النوال وشر الاموال ما أخذته من الحرام وصرفته في الآثام وكان الاوزاعى الفقيه كثيرا ما يتمثل بهذه الابيات

المال ينفد حله وحرامه * يوما ويبقى بعد ذاك أثامه
ليس التقي بمتق لالهه * حتى يطيب شرابه وطعامه
ويطيب مايجني ويكسب أهله * ويطيب من لفظ الحديث كلامه
نطق النبي لنا به عن ربه * فعلى النبي صلاته وسلامه

وحكى عن ابن المعتمر السلمي قال الناس ثلاثة أصناف أغنياء وفقراء وأوساط فالفقراء موتى الا من أغناه الله بعز القناعة والاغنياء سكارى الا من عصمه الله تعالى بتوقع الغير وأكثر الخير مع أكثر الاوساط وأكثر الشر مع أكثر الفقراء والاغنياء لسخف الفقر وبطر الغنى والامر الثانى أن يقصر عن طلب كفايته ويزهد فى التماس مادته وهذا التقصير قد يكون على ثلاثة اوجه فيكون تارة كسلا وتارة توكلا وتارة زهدا وتقنعا فان كان تقصيره لكسل فقد حرم ثروة النشاط ومرح الاغتباط فلن يعدم أن يكون كلا قصيا أو ضائعا شقيا . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال كاد الحسد أن يغلب القدر وكاد الفقر أن يكون كفرا وقال بزرجمهر ان كان شئ فوق الحياة فالصحة وان كان شئ مثلها فالغني وان كان شئ

فوق الموت فالمرض وان كان شيء مثله فالفقر . وقيل في منثور الحكم القبر خير من الفقر ووجد في نيل مصر مكتوب على حجر

عقب الصبر نجاح وغنى * ورداء الفقر من نسج الكسل

وقال بعض الشعراء

اعوذ بك اللهم من بطر الغنى * ومن نهكة البلوى ومن ذلة الفقر
ومن امل يمتد في كل شارق * يرجعني منه بحظ يد صفر
اذا لم تدنسني الذنوب بعارها * فلست أبالي ماتشعث من امري

واذا كان تقصيره لتوكل فذلك عجز قد اعذر به نفسه وترك حزم قد غير اسمه لان الله تعالى امرنا بالتوكل عند انقطاع الحيل والتسليم الى القضاء بعد الاعذار . وقد روى معمر عن ايوب عن ابي قلابة قال ذكر عند النبي صلى الله عليه وسلم رجل فذكر فيه خير فقالوا يارسول الله خرج معنا حاجا فاذا نزلنا منزلا لم يزل يصلي حتى نرحل فاذا ارتحلنا لم يزل يذكر الله عز وجل حتى ننزل فقال صلى الله عليه وسلم فمن كان يكفيه علف ناقته وصنع طعامه قالوا كلنا يارسول الله قال كلكم خير منه . وقال بعض الحكماء ليس من توكل المرء اضاعته للحزم ولا من الحزم اضاعة نصيبه من التوكل وان كان تقصيره لزهد وتقنع فهذه حال من علم بمحاسبة نفسه بتبعات الغنى والثروة وخاف عليها بوائق الهوى والقدرة فآثر الفقر على الغنى وزجر النفس عن ركوب الهوى فقد روى ابو الدرداء قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مامن يوم طلعت فيه شمسه الا وعلى جنبتيها ملكان يناديان يسمعهما خلق الله كلهم الا الثقلين ياأيها الناس هلموا الى ربكم ان ماقل وكفى خير مما كثر وألهى . وروى زيد بن على بن الحسين عن أبيه عن جده رضى الله عنهم أجمعين أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم انتظار الفرج من الله بالصبر عبادة ومن رضى من الله عز وجل بالقليل من الرزق رضى الله عز وجل منه بالقليل من العمل . وروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه انه قال من نبل الفقر انك لاتجد احدا يعصى الله ليفتقر فأخذه محمود الوراق فقال ياعائب الفقر ألا تزدجر * عيب الغنى اكثر لو تعتبر
من شرف الفقر ومن فضله * على الغنى ان صح منك النظر
انك تعصى لتنال الغنى * ولست تعصى الله كى تفتقر

وقال ابن المقفع

دليلك ان الفقر خير من الغني * وان قليل المال خير من المثرى
لقاؤك مخلوقا عصى الله بالغنى * ولم تر مخلوقا عصى الله بالفقر

وهذه الحال انما تصح لمن نصح نفسه فاطاعته وصدقها فاجابته حتى لان قيادها وهان عنادها وعلمت ان من لم يقنع بالقليل لم يقنع بالكثير كما كتب الحسن البصري الى عمر بن عبد العزيز رضى الله عنهما ياأخي من استغنى بالله اكتفى ومن انقطع الى غيره تعنى ومن كان من قليل الدنيا لايشبع لم يغنه منها كثرة مايجمع فعليك منها بالكفاف والزم نفسك العفاف واياك وجمع الفضول فان حسابه يطول . وقال بعض الحكماء هيهات منك الغني ان لم يقنعك ماحويت فاما من اعرضت نفسه عن قبول نصحه وجمحت به عن قناعة زهده فليس الى اكراهها سبيل ولا للحمل عليها وجه الا بالرياضة والمروءة وان يستنزلها الى اليسير الذي لاتنفر منه فاذا استقرت عليه انزلها الى ماهو اقل منه لتنتهى بالتدريج الى الغاية المطلوبة وتستقر بالرياضة والتمرين على الحال المحبوبة . وقد تقدم قول الحكماء ان المكروه يسهل بالتمرين فهذا حكم مافي الامر الثاني من التقصير عن طلب الكفاية واما الامر الثالث فهو ان لايقنع بالكفاية ويطلب الزيادة والكثرة فقد يدعو الى ذلك اربعة اسباب احدها منازعة الشهوات التي لاتنال الا بزيادة المال وكثرة المادة فاذا نازعته الشهوة طلب من المال مايوصله وليس للشهوات حد متناه فيصير ذلك ذريعة الى ان مايطلبه من الزيادة غير متناه ومن لم يتناه طلبه استدام كده وتعبه فلم يف التذاذه بنيل شهواته بما يعانيه من استدامة كده واتعابه مع ما قد لزمه من ذم الانقياد لمغالبة الشهوات والتعرض لاكتساب التبعات حتى يصير كالبهيمة التي قد انصرف طلبها الى ماتدعو اليه شهوتها فلا تنزجر عنه بعقل ولاتنكف عنه بقناعة . وقدروى عن علي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال من اراد الله به خيرا حال بينه وبين شهوته وحال بينه وبين قلبه واذا اراد به شرا وكله الى نفسه . وقد قال الشاعر

وانك ان اعطيت بطنك همه * وفرجك نالا منتهي الذم اجمعا

والسبب الثاني ان يطلب الزيادة ويلتمس الكثرة ليصرفها في وجوه الخير ويتقرب بها في جهات البر ويصطنع بها المعروف ويغيث بها الملهوف فهذا اعذر وبالحمد أحرى واجدر اذا انصرفت عنه تبعات المطالب وتوقى شبهات المكاسب واحسن التقدير في حالتي فائدته وافادته على قدر الزمان وبقدر الامكان لان المال آلة للمكارم وعون على الدين ومتألف للاخوان ومن فقده من اهل الدنيا قلت الرغبة فيه والرهبة منه ومن لم يكن منهم بموضع رهبة ولارغبة استهانوا به . وقدروي عبدالله ابن بريدة عن ابيه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان حساب اهل الدنيا هذا المال . وقال مجاهد الخير في القرآن كله المال وانه لحب الخير لشديد يعني المال واحببت حب الخير عن ذكر ربي يعني المال فكاتبوهم ان علمتم فيهم خيرا يعني مالا

وقال شعيب النبي عليه السلام اني اراكم بخير يعني المال وانما سمى الله تعالى المال خيرا اذا كان في الخير مصروفا لان ما ادى الى الخير فهو في نفسه وقد اختلف اهل التأويل في قوله تعالى ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار فقال السدى وعبد الرحمن بن زيد الحسنة في الدنيا وفي الآخرة الجنة وقال الحسن البصري وسفيان الثورى الحسنة في الدنيا العلم والعبادة وفي الآخرة الجنة وقال ابن عباس الدراهم والدنانير خواتم الله في الارض لا تؤكل ولا تشرب حيث قصدت بها قضيت حاجتك . وقال قيس بن سعد اللهم ارزقني حمدا ومجدا فانه لاحمد الا بفعال ولامجد الا بمال . وقد قيل لابي الزناد لم تحب الدراهم وهى تدنيك من الدنيا فقال هى وان أدنتني منها فقد صانتني عنها وقال بعض الحكماء من أصلح ماله فقد صان الاكرمين الدين والعرض . وقيل في منثور الحكم من استغنى كرم على اهله ومر رجل من ارباب الاموال ببعض العلماء فتحرك له واكرمه فقيل له بعد ذلك اكانت لك الى هذا حاجة قال لا ولكني رأيت ذا المال مهيبا وسأل رجل محمد بن عمير بن عطارد وعتاب بن ورقاء فى عشر ديات فقال محمد علي ّ دية وقال عتاب الباقى علي ّ فقال محمد نعم العون اليسار على المجد وقال الاحنف بن قيس

فلو كنت مثر بمال كثير لجدت وكنت له باذلا
فان المروءة لا تستطاع * اذا لم يكن مالها فاضلا

وكان يقال الدراهم مراهم لانها تداوي كل جرح ويطيب بها كل صلح . وقال ابن الجلال

رزقت مالا ولم ترزق مروءته * وما المروءة الا كثرة المال
اذا اردت رقى العلياء يقعدنى * عما ينوه باسمى رقة الحال

وقيل في منثور الحكم الفقر مخذلة والغنى مجذلة والبؤس مرذلة والسؤال مبذلة . وقال أوس بن حجر

أقيم بدار الحزم ما دام حزمها * واحرى اذا حالت بان اتحولا
فاني وجدت الناس الا اقلهم * خفاف عهود يكثرون التنقلا
بنو ام ذى المال الكثير يرونه * وان كان عبدا سيد الامر مجحفلا
وهم لمقل المال اولاد علة * وان كان محضاً في العشيرة مخوّلا

وقال بشر الضرير

كفى حزنا انى اروح واغتدى * ومالي من مال اصون به عرضي
واكثرما القى الصديق بمرحبا * وذلك لا يكفى الصديق ولا يرضى

وقال آخر

أجلك قوم حين صرت الى الغنى * وكل غنيّ في العيون جليل
وليس الغنى الا غنى زَيّن الفتى * عشية يقرى أوغداة ينيل

وقد اختلف الناس في تفضيل الغنى والفقر مع اتفاقهم على ان ما احوج من الفقر مكروه وما ابطر من الغنى مذموم فذهب قوم الى تفضيل الغنى على الفقر لان الغنى مقتدر والفقير عاجز والقدرة افضل من العجز وهذا مذهب من غلب عليه حب النباهة وذهب آخرون الى تفضيل الفقر على الغنى لان الفقير تارك والغنى ملابس وترك الدنيا افضل من ملابستها وهذا مذهب من غلب عليه حب السلامة وذهب آخرون الى تفضيل التوسط بين الامرين بان يخرج عن حد الفقر الى ادنى مراتب الغنى ليصل الى فضيلة الامرين ويسلم من مذمة الحالين وهذا مذهب من يرى تفضيل الاعتدال وان خيار الامور اوساطها وقد مضى شواهد كل فريق في موضعه بما اغنى عن اعادته . والسبب الثالث ان يطلب الزيادة ويقتني الاموال ليدخرها لولده ويخلفها لورثته مع شدة ضنه على نفسه وكفه عن صرف ذلك في حقه اشفاقا عليهم من كدح الطلب وسوء المنقلب وهذا شقي بجمعها مأخوذ بوزرها قد استحق اللوم من وجوه لا تخفى على ذي لب منها سوء ظنه بخالقه انه لا يرزقهم الّا من جهته وقد قيل قتل القنوط صاحبه وفي حسن الظن بالله راحة القلوب . وقال عبد الحميد كيف تبقى على حالتك والدهر في احالتك ومنها الثقة ببقاء ذلك على ولده مع نوائب الزمان ومصائبه وقد قيل الدهر حسود لا يأتى على شيء الا غيره . وقيل في منثور الحكم المال ملول . وقال بعض الحكماء الدنيا ان بقيت لك لا تبقى لها ومنها ما حرم من منافع ماله وسلب من وفور حاله وقد قيل انما ما لك لك أو للوارث او للجائحة فلا تكن اشقى الثلاثة . وقال عبد الحميد اطرح كواذب آمالك وكن وارث مالك ومنها ما لحقه من شقاء جمعه وناله من عناء كده حتى صار ساعياً محروما وجاهدا مذموما وقد قيل رب مغبوط بمسرة هى داؤه ومرحوم من سقم هو شفاؤه وقال الشاعر

ومن كلفته النفس فوق كفافها * فما ينقضي حتى الممات عناؤه

ومنها ما يؤاخذ به من وزره وآثامه ويحاسب عليه من تبعاته واجرامه . وقد حكى أن هشام بن عبد الملك لما ثَقُلَ بكى ولده عليه فقال لهم جاد لكم هشام بالدنيا وجدتم عليه بالبكاء وترك لكم ما كسب وتركتم عليه ما اكتسب ما أسوأ حال هشام ان لم يغفر الله له فأخذ هذا المعنى محمود الوراق فقال

تمتع بمالك قبل الممات * والا فلا مال ان أنت متا
شقيت بـه ثم خلفتـه * لغيرك بعدا وسحقا ومقتا
فجادوا عليك بوزر البكاء * وجدت عليهم بما قد جمعتا
وأرهنتهم كل ما في يديك * وخلوك رهنا بما قد كسبتا

وروى أن العباس بن عبد المطلب جاء الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله ولني فقال النبي صلى الله عليه وسلم ياعباس ياعم النبي صلى الله عليه وسلم قليل يكفيك خير من كثير يرديك ياعباس ياعم النبي نفس تنجيها خير من امارة لا تحصيها ياعباس ياعم النبي صلى الله عليه وسلم ان الامارة اولها ندامة وأوسطها ملامة وآخرها خزي يوم القيامة فقال يارسول الله الامن عدل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف تعدلون مع الاقارب . وقال رجل للحسن البصري رحمه الله انى أخاف الموت وأكرهه فقال انك خلفت مالك ولو قدمته لسرك اللحوق به . وقيل في منثور الحكم كثرة مال الميت تعزى ورثته عنه فأخذ هذا المعنى ابن الرومى فقال وزاد

أبقيت مالك مـيرانا لوارثه * فليت شعري ما ابقى لك المال
القوم بعدك في حال تسرهم * فكيف بعدهم حالت بك الحال
ملوا البكاء فما يبكيك من احد * واستحكم القول في الميراث والقال
ألهتهم عنك دنيا اقبلت لهم * وادبرت عنك والايام احوال

والسبب الرابع ان يجمع المال ويطلبه استحلالا لجمعه وشغفا باحترامه فهذا أسوأ الناس حالا فيه واشدهم حزنا له قد توجهت اليه سائر الملاوم حتى صار وبالا عليه ومذام وفي مثله قال الله تعالى والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب اليم فقال النبي صلى الله عليه وسلم تبا للذهب تبا للفضة فشق ذلك على اصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا أي مال نتخذ فقال عمر رضى الله عنه انا اعلم لكم ذلك فقال يارسول الله ان اصحابك قد شق عليهم فقالوا أي مال نتخذ فقال لسانا ذاكرا وقلبا شاكرا وزوجة مؤمنة تعين احدكم على دينه . وروى شهر بن حوشب عن ابي امامة قال مات رجل من اهل الصفة فوجد في مئزره دينار فقال النبي صلى الله عليه وسلم كية ثم مات آخر فوجد في مئزره ديناران فقال النبي صلى الله عليه وسلم كيتان وانما ذكر ذلك فيهما وان كان قد مات على عهده مَن ترك أموالا جمة واحوالا ضخمة فلم يكن فيه ما كان في هذين لانهما تظاهرا بالقناعة واحتجنا ما ليس بهما اليه حاجة فصار ما احتجناه وزرا عليهما وعقابا لهما . وقد قال الشاعر

اذا كنت ذا مال ولم تك ذا ندى * فانت اذًا والمقترون سواء
على ان في الاموال يوما تباعة * على اهلها والمقترون براء

وأنشدت عن الربيع للشافعي رضى الله عنه

ان الذي رزق اليسار ولم يُصِبْ * حمدا ولا اجرا لغير موفق
والجد يدني كل شيء شاسع * والجد يفتح كل باب مغلق
وأحق خلق الله بالهم امرؤ * ذو همة عليا وعيش ضيق
ومن الدليل على القضاء وكونه * بؤس اللبيب وطيب عيش الاحمق
فاذا سمعت بان مجدودا حوى * عودا فاورق في يديه فحقق
واذا سمعت بان محدودا اتى * ماء ليشربه فجف فصدق

اللب العقل تقول لبيب ذو لب والجد في اللغة الحظ وهو البخت والجد ايضا العظمة ومنه قوله تعالى وانه تعالى جدّ ربنا والجدّ مصدر جدّ الشيء اذا قطع والجدّ بالكسر الانكماش في الامور أي الاجتهاد فيها وهو ايضا الحق ضد الهزل وبالحاء اذا منع الرزق ومجدود محدود لا يقال فيهما الا بما لم يسم فاعله وآفة من بلى بالجمع والاستكثار ومنى بالامساك والادّخار حتى انصرف عن رشده فغوى وانحرف عن سنن قصده فهوى ان يستولى عليه حب المال وبُعد الامل فيبعثه المال على الحرص في طلبه ويدعوه بعد الامل على الشح به والحرص والشح أصل لكل ذم وسبب لكل لؤم لان الشح يمنع من أداء الحقوق ويبعث على القطيعة والعقوق ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم شر ما أعطي العبد شح هالع وجبن خالع. وقال بعض الحكماء الغني البخيل كالقوي الجبان واما الحرص فيسلب فضائل النفس لاستيلائه عليها ويمنع من التوفر على العبادة لتشاغله عنها ويبعث على التورط في الشبهات لقلة تحرزه منها وهذه الثلاث خصال هن جامعات الرذائل سالبات الفضائل مع ان الحريص لا يستزيد بحرصه زيادة على رزقه سوى ادلال نفسه واسخاط خالقه . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال الحريص الجاهد والقنوع الزاهد يستوفيان اكلهما غير منتقص منه شيء فعلام التهافت في النار . وقال بعض الحكماء الحرص مفسدة للدين والمروءة والله ما عرفت من وجه رجل حرصا فرأيت ان فيه مصطنعا وقال آخر الحريص اسير مهانة لا تفك أسره. وقال بعض البلغاء المقادير الغالبة لا تنال بالمغالبة والارزاق المكتوبة لا تنال بالشدة والمطالبة فذلل للمقادير نفسك واعلم بانك غير نائل بالحرص الا حظك . وقال بعض الادباء رُبَّ حظٍ أدركه غير طالبه ودُرٍّ أحرزه غير جالبه . وانشدني بعض اهل الادب لمحمد بن حازم

يا أسير الطمع الكا * ذب في غل الهوان
ان عز الياس خير * لك من ذل الامانى
سامح الدهر اذا عز وخذ صفو الزمان
انما أعدم ذو الحر * ص وأثرى ذوالتوانى

وليس للحريص غاية مقصودة يقف عندها ولا نهاية محدودة يقنع بها لانه اذا وصل بالحرص الى ما أمل اغراه ذلك بزيادة الحرص والامل وان لم يصل رأي اضاعة الغنى لؤما والصبر عليه حزما وصار بما سلف من رجائه اقوى رجاء وابسط املا . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال يشيب ابن آدم ويبقى معه خصلتان الحرص والامل وقيل للمسيح عليه السلام مابال المشايخ احرص على الدنيا من الشباب قال لانهم ذاقوا من طعم الدنيا مالم يذقه الشباب ولو صدق الحريص نفسه واستنصح عقله لعلم ان من تمام السعادة وحسن التوفيق الرضاء بالقضاء والقناعة بالقسم . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال اقصدوا في الطلب فان مارزقتموه اشد طلبا لكم منكم وماحرمتموه فان تنالوه ولو حرصتم . وروى ان جبريل على نبينا وعليه السلام هبط على النبي صلى الله عليه وسلم فقال ان الله تبارك وتعالى يقرأ عليك السلام ويقول لك اقرأ بسم الله الرحمن الرحيم لاتمدّنّ عينيك الى مامتعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى فامر النبي صلى الله عليه وسلم مناديا ينادى من لم يتأدب بادب الله تعالى تقطعت نفسه على الدنيا حسرات . وقيل مكتوب في بعض الكتب ردّوا ابصاركم عليكم فان لكم فيها شغلا وقال مجاهد فى تأويل قوله تعالى ولنحيينه حياة طيبة قال بالقناعة وقال أكثم بن صيفي من باع الحرص بالقناعة ظفر بالغنى والثروة . وقال بعض السلف قد يخيب الجاهد الساعي ويظفر الوادع الهادى فاخذم البحتري فقال

لم ألق مقدورا على استحقاقه * في الحظ اما ناقصا او زائدا
وعجبت للمجهود يحرم ناصبا * كلفا وللمجدود يغنم قاعدا
ماخطب من حرم الارادة قاعدا * خطب الذي حرم الارادة جاهدا

وقال بعض الحكماء ان من قنع كان غنيا وان كان مقترا ومن لم يقنع كان فقيرا وان كان مكثرا وقال بعض البلغاء اذا طلبت العز فاطلبه بالطاعة واذا طلبت الغنى فاطلبه بالقناعة فمن أطاع الله عز وجل عز نصره ومن لزم القناعة زال فقره . وقال بعض الادباء القناعة عز المعسر والصدقة حِرز الموسر . وقال بعض الادباء

اني أرى من له قنوع * يدرك ما نال او تمنى والرزق يأتي بلا عناء * وربما فات من تعنى

والقناعة قد تكون على ثلاثة اوجه فالوجه الاول ان يقنع بالبلغة من دنياه ويصرف نفسه عن التعرض لما سواه وهذا اعلى منازل القناعة . وقال الشاعر

اذا شئت ان تحيي غنيا فلا تكن * على حالة الا رضيت بدونها

وقال مالك بن دينار ازهد الناس من لا تجاوز رغبته من الدنيا بلغته . وقال بعض الحكماء الرضا بالكفاف يؤدي الى العفاف . وقال بعض الادباء يارب ضيق افضل من سعة وغناء خير من دعة . وأنشدني بعض اهل الادب وذكر أنه لعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه

افادتنا القناعة أيّ عز * وأي غنى اعز من القناعه

فصيرها لنفسك رأس مال * وصير بعدها التقوى بضاعه

تحرز حين تغنى عن بخيل * وتنعم في الجنان بصبر ساعه

والوجه الثاني ان تنتهي به القناعة الى الكفاية ويحذف الفضول والزيادة وهذا اوسط حال المقتنع . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال مامن عبد الا بينه وبين رزقه حجاب فان قنع واقتصد أتاه رزقه وان هتك الحجاب لم يزد في رزقه . وقال بعض الحكماء ما فوق الكفاف اسراف . وقال بعض البلغاء من رضى بالمقدور قنع بالميسور . وقال البحتري

تطلب الاكثر في الدنيا وقد * تبلغ الحاجة منها بالاقل

وأنشدت لابراهيم بن المدبر

ان القناعة والعفاف * ليغنيان عن الغنى

فاذا صبرت عن المنى * فاشكر فقد نلت المنى

والوجه الثالث أن تنتهي به القناعة الى الوقوف على ما سنح فلا يكره ما اتاه وان كان كثيرا ولا يطلب ما تعذر وان كان يسيرا وهذه الحال أدنى منازل أهل القناعة لانها مشتركة بين رغبة ورهبة اما الرغبة فلانه لا يكره الزيادة على الكفاية اذا سنحت واما الرهبة فلانه لا يطلب المتعذر عن نقصان المادة اذا تعذرت . وفي مثله قال ذوالنون رحمة الله عليه من كانت قناعته سمينة طابت له كل مرقة . وقد روى الحسن بن علي عن ابيه عن جده رضى الله عنهم قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الدنيا دول فما كان منها لك اتاك على ضعفك وما كان منها عليك لم تدفعه بقوتك ومن انقطع رجاؤه مما فات استراح بدنه ومن رضى بما رزقه الله تعالى قرت عينه . وقال ابو حازم الاعرج وجدت شيئين شيئا هو لي لن اعجله قبل اجله ولو طلبته بقوة السموات والارض وشيأ هو لغيري وذلك مما لم أنله فيما مضى ولا اناله فيما بقي يمنع الذي لي من غيري كما يمنع الذي لغيري مني ففي اي هذين افنى عمري واهلك نفسي . وقال ابو تمام الطائي

لا تأخذوني بالزمان وليس لي * تبعا ولست على الزمان كفيلا
من كان مرعى عزمه وهمومه * روض الاماني لم يزل مهزولا
لو جاد سلطان القنوع وحكمه * في الخلق ما كان القليل قليلا
الرزق لا تكمد عليه فانه * يأتي ولم تبعث اليه رسولا

وأنشدني بعض اهل الادب لابن الرومي

جرى قلم القضاء بما يكون * فسيان التحرك والسكون
جنون منك ان تسعى لرزق * ويرزق في غشاوته الجنين

ونحن نسأل الله تعالى أكرم مسؤل وافضل مأمول أن يحسن الينا التوفيق فيما منح ويصرف عنا الرغبة فيما منع استكفافا لتبعات الثروت وموبقات الشهوة . روى شريك بن ابى نمر عن ابي الجذع عن أعمامه واجداده عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال خير أمتي الذين لم يعطوا حتى يبطروا ولم يقتروا حتى يسالوا . وقال ابو تمام الطائي

عندي من الايام مالوا انه * أضحي بشارب مرقد ما غمضا
لاتطلبن الرزق بعد شماسه * فترومه شبعا اذا ما غيضا
ماعوض الصبر امرؤ الارأى * ما فاته دون الذي قد عوضا

باب أدب النفس وهو الخامس من الكتاب

علم ان النفس مجبولة على شيم مهملة واخلاق مرسلة لا يستغنى محمودها عن التأديب ولا يكتفي بالمرضى منها عن التهذيب لان لمحمودها أضدادا مقابلة يسعدها هوى مطاع وشهوة غالبة فان اغفل تأديبها تفويضا الى العقل او توكلا على ان تنقاد الى الاحسن بالطبع اعدمه التفويض درك المجتهدين وأعقبه التوكل ندم الخائبين فصار من الادب عاطلا وفى صورة الجهل داخلا لان الادب مكتسب بالتجربة أو مستحسن بالعادة ولكل قوم مواضعة وذلك لا ينال بتوقف العقل ولا بالانقياد للطبع حتى يكتسب بالتجربة والمعاناة ويستفاد بالدربة والمعاطات ثم يكون العقل عليه قيما وزكى الطبع اليه مسلما ولو كان العقل مغنيا عن الادب لكان أنبياء الله تعالى عن أدبه مستغنين وبعقولهم مكتفين . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال بُعِثْتُ لاتمم مكارم الاخلاق . وقيل لعيسى بن مريم على نبينا وعليه السلام من أدبك قال ما ادبني احد ولكني رايت جهل الجاهل فجانبته . وقال علي بن ابي طالب رضي الله عنه ان الله تعالى جعل مكارم الاخلاق ومحاسنها وصلا بينه وبينكم فحسب الرجل ان يتصل

من الله تعالى بخلق منها. وقال ازدشير بن بابك من فضيلة الادب انه ممدوح بكل لسان ومتزين به في كل مكان وباق ذكره على ايام الزمان . وقال مهبود شبه العالم الشريف العديم الادب بالبنيان الخراب الذي كلما علا سمكه كان اشد لوحشته وبالنهر اليابس الذي كلما كان اعرض واعمق كان اشد لوعورته وبالارض الجيدة المعطلة التي كلما طال خرابها ازداد نباتها غير المنتفع به اتفافا وصار للهوام مسكنا . وقال ابن المقفع ما نحن الى مانتقوى به على حواسنا من المطعم والمشرب باحوج منا الى الادب الذي هو لقاح عقولنا فان الحبة المدفونة فى الثرى لا تقدر ان تطلع زهرتها ونضارتها الا بالماء الذي يعود اليها من مستودعها. وحكى الاصمعي رحمه الله تعالى ان اعرابيا قال لابنه يا بني الادب دعامة ايد الله بها الالباب وحلية زين الله بها عواطل الاحساب فالعاقل لا يستغنى وان صحت غريزته عن الادب المخرج زهرته كما لا تستغنى الارض وان عذبت تربتها عن الماء المخرج ثمرتها . وقال بعض الحكماء الادب صورة العقل فصور عقلك كيف شئت وقال آخر العقل بلا ادب كالشجر العاقر ومع الادب كالشجر المثمر وقيل الادب احد المنصبين . وقال بعض البلغاء الفضل بالعقل والادب لا بالاصل والحسب لان من ساء ادبه ضاع نسبه ومن قل عقله ضل اصله. وقال بعض الادباء ذك قلبك بالادب كما تذكى النار بالحطب واتخذ الادب غنما والحرص عليه حظا يرتجيك راغب ويخاف صولتك راهب ويؤمل نفعك ويرجى عدلك . وقال بعض العلماء الادب وسيلة الى كل فضيلة وذريعة الى كل شريعة . وقال بعض الفصحاء الادب يستر قبيح النسب . وقال بعض الشعراء فيه

فما خلق الله مثل العقول * ولا اكتسب الناس مثل الادب
وما كرم المرء الا التقى * ولا حسب المرء الا النسب
وفي العلم زين لاهل الحجا * وآفة ذى الحلم طيش الغضب

وانشد الاصمعي رحمه الله

وان يكن العقل مولودا فلست اري * ذا العقل مستغنيا عن حادث الادب
اني رايتهما كالماء مختلطا * بالترب تظهر منه زهرة العشب
وكل من أخطأته في مولده * غريزة العقل حاكى البهم في الحسب

والتأديب يلزم من وجهين احدهما لزم الوالد لولده في صغره والثانى ما لزم الانسان فى نفسه عند نشوه وكبره فاما التأديب اللازم للاب فهو ان يأخذ ولده بمبادي الآداب ليانس بها وينشو عليها فيسهل عليه قبولها عند الكبر لاستئناسه بمباديها في الصغر لان نشو الصغير

على الشيء يجعله متطبعا به ومن أغفل في الصغر كان تأديبه في الكبر عسيرا . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ما نحل والد ولده نحلة افضل من ادب حسن يفيده اياه او جهل قبيح يكفه عنه ويمنعه مثه . وقال بعض الحكماء بادروا بتأديب الاطفال قبل تراكم الاشغال وتفرق البال . وقال بعض الشعراء

ان الغصون اذا قومتها اعتدلت * ولا يلين اذا قومته الخشب
قد ينفع الادب الاحداث في صغر * وليس ينفع عند الشيبة الادب

وقال آخر

ينشو الصغير على ما كان والده * ان الاصول عليها ينبت الشجر

واما الادب اللازم للانسان عند نشوه وكبره فادبان أدب مواضعة واصطلاح وأدب رياضة واستصلاح فاما أدب المواضعة والاصطلاح فيؤخذ تقليدا على ما استقر عليه اصطلاح العقلاء واتفق عليه استحسان الادباء وليس لاصطلاحهم على وضعه تعليل مستنبط ولا لاتفاقهم على استحسانه دليل موجب كاصطلاحهم على مواضعات الخطاب واتفاقهم على هيئات اللباس حتى ان الانسان الآن اذا تجاوز ما اتفقوا عليه منها صار مجانبا للادب مستوجبا للذم لان فراق المألوف في العادة ومجانبة ما صار متفقا عليه بالمواضعة مفض الى استحقاق الذم بالعقل ما لم يكن لمخالفته علة ظاهرة ومعنى حادث وقد كان جائزا في العقل ان يوضع ذلك على غير ما اتفقوا عليه فيرونه حسنا ويرون ما سواه قبيحا فصار هذا مشاركا لما وجب بالعقل من حيث توجه الذم على تاركه ومخالفا له من حيث انه كان جائزا في العقل ان يوضع على خلافه واما ادب الرياضة والاستصلاح فهو ما كان محمولا على حال لا يجوز في العقل ان يكون بخلافها ولا ان تختلف العقلاء في صلاحها وفسادها وما كان كذلك فتعليله بالعقل مستنبط ووضوح صحته بالدليل مرتبط وللنفس على ما يأتي من ذلك شاهد ألهمها الله تعالى ارشادا لها قال الله تعالى فألهمها فجورها وتقواها . قال ابن عباس رضي الله عنه بين لها ما تأتي من الخير وتذر من الشر وسنذكر تعليل كل شيء في موضعه فانه اولى به واحق فاول مقدمات ادب الرياضة والاستصلاح ان لا يسبق الى حسن الظن بنفسه فيخفى عنه مذموم شيمه ومساوى اخلاقه لان النفوس بالشهوات آمرة وعن الرشد زاجرة . وقد قال الله تعالى ان النفس لامارة بالسوء وقال صلى الله عليه وسلم اعدى اعدائك نفسك التي بين جنبيك ثم اهلك ثم عيالك ودعت اعرابية لرجل فقالت كبت الله كل عدو لك الا نفسك فاخذه بعض الشعراء فقال

قلبي الى ما ضرني داع * يكثر اسقامي واوجاعي
كيف احتراسي من عدوى اذا * كان عدوى بين اضلاعي

فاذا كانت النفس كذلك فحسن الظن بها ذريعة الى تحكيمها وتحكيمها داع الى سلاطتها وفساد الاخلاق بها فاذا صرف حسن الظن عنها وتوسمها بما هى عليه من التسويف والمكر فاز بطاعتها وانحاز عن معصيتها . وقد قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه العاجز مَن عجز عن سياسة نفسه . وقال بعض الحكماء من ساس نفسه ساد ناسه فاما سوء الظن بها فقد اختلف الناس فيه فمنهم من كرهه لما فيه من اتهام طاعتها ورد مناصحتها فان النفس وان كان لها مكر يردى فلها نصح يهدى فلما كان حسن الظن بها يعمى عن محاسنها ومن عمى عن محاسن نفسه كان كمن عمى عن مساويها فلم ينف عنها قبيحا ولم يهد اليها حسنا . وقد قال الجاحظ في كتاب البيان يجب ان يكون فى التهمة لنفسه معتدلا وفي حسن الظن بها مقتصدا فانه ان تجاوز مقدار الحق في التهمة ظلمها فاودعها ذلة المظلومين وان تجاوز بها الحق في مقدار حسن الظن اودعها تهاون الآمنين ولكل ذلك مقدار من الشغل ولكل شغل مقدار من الوهن ولكل وهن مقدار من الجهل . وقال الاحنف بن قيس من ظلم نفسه كان لغيره أظلم ومن هدم دينه كان لمجده أهدم وذهب قوم الى ان سوء الظن بها أبلغ في صلاحها وأوفر في اجتهادها لان للنفس جورا لا ينفك الا بالسخط عليها وغرورا لا ينكشف الا بالتهمة لها لانها محبوبة تجور ادلالا وتغر مكرا فان لم يسئ الظن بها غلب عليه جورها وتموه عليه غرورها فصار بميسورها قانعا وبالشبهة من أفعالها راضيا . وقد قالت الحكماء من رضى عن نفسه أسخط عليه الناس وقال كشاجم

لم أرضى عن نفسي مخافة سخطها * ورضا الفتى عن نفسه اغضابها
ولو انني عنها رضيت لقصرت * عما تزيد بمثله آدابها
وتبينت آثار ذاك فاكثرت * عذلي عليه فطال فيه عتابها

وقد استحسن قول ابي تمام الطائي

ويسيء بالاحسان ظنا لا كمن * هو بابنه وبشعره مفتون

فلم يروا اساءة ظنه بالاحسان ذما ولا استقلاله عمله لوما بل رأوا ذلك أبلغ في الفضل وأبعث على الازدياد فاذا عرف من نفسه ما تجن وتصور منها ما تكن ولم يطاوعها فيما تحب اذا كان غيا ولا صرف عنها ما تكره اذا كان رشدا فقد ملكها بعد ان كان فى ملكها وغلبها بعد ان كان في غلبها . وقد روى ابو حازم عن أبي هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله

عليه وسلم الشديد من غلب نفسه . وقال عون بن عبد الله اذا عصتك نفسك فيما كرهت فلا تطعها فيما أحبت ولا يغرنك ثناء من جهل امرك . وقال بعض البلغاء من قوى على نفسه تناهى فى القوة ومن صبر عن شهوته بالغ فى المروّة فحينئذ يأخذ نفسه عند معرفة ما أكنت وخبرة ما أجنت بتقويم عوجها واصلاح فاسدها . وقد روى عن عائشة رضي الله عنها قالت يارسول الله متى يعرف الانسان ربه قال اذا عرف نفسه ثم يراعى منها ما صلح واستقام من زيغ يحدث عن اغفال او ميل يكون عن اهمال ليتم له الصلاح وتستديم له السعادة فان المغفل بعد المعاناة ضائع والمهمل بعد المراعاة زائع وسنذكر من احوال ادب الرياضة والاستصلاح فصولا تحتوي على ما يلزم مراعاته من الاخلاق ويجب معاناته من الادب وهى ستة فصول متفرعة

﴿ الفصل الاول ﴾ في مجانبة الكبر والاعجاب لانهما يسلبان الفضائل ويكسبان الرذائل وليس لمن استوليا عليه اصغاء لنصح ولا قبول لتأديب لان الكبر يكون بالمنزلة والعجب يكون بالفضيلة فالمتكبر يجل نفسه عن رتبة المتعلمين والمعجب يستكثر فضله عن استزادة المتأدبين فلذلك وجب تقديم القول فيهما بابانة ما يكسبانه من ذم ويوجبانه من لوم فنقول أما الكبر فيكسب المقت ويلهى عن التألف ويوغر صدور الاخوان وحسبك بذلك سوأ عن استقصاء ذمه . ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم لعمه العباس أنهاك عن الشرك بالله والكبر فان الله يحتجب منهما وقال ازدشير بن بابك ما الكبر الافضل حمق لم يدر صاحبه اين يذهب به فيصرفه الى الكبر وما أشبهما قال بالحق . وحكى ان مطرف بن عبد الله بن الشخير نظر الى المهلب بن ابي صفرة وعليه حلة يسحبها ويمشي الخيلاء فقال يا أبا عبد الله ما هذه المشية التي يبغضها الله ورسوله فقال المهلب اما تعرفنى فقال بل اعرفك اوّلك نطفة مذرة وآخرك جيفة قذرة وحشوك فيما بين ذلك بول وعذرة فاخذ ابن عوف هذا الكلام فنظمه شعرا فقال

عجبت من معجب بصورته * وكان بالامس نطفة مذره
وفى غد بعد حسن صورته * يصير فى اللحد جيفة قذره
وهو على تيهه ونخوته * ما بين ثوبيه يحمل العذره

وقد كان المهلب افضل من ان يخدع نفسه بهذا الجواب الغير الصواب ولكنها زلة من زلات الاسترسال وخطيئة من خطايا الادلال فاما الحمق الصريح والجهل القبيح فهو ما حكى عن نافع بن جبير بن مطعم انه جلس في حلقة العلاء بن عبد الرحمن الخرقى وهو يقرئ الناس فلما فرغ قال اتدرون لم جلست اليكم قالوا جلست لتسمع قال لا ولكني اردت ان اتواضع لله

بالجلوس اليكم فهل يرجي من هذا فضل أو ينفع فيه عذل . وقد قال ابن المعتز لما عرف أهل النقص حالهم عند ذوي الكمال استعانوا بالكبر ليعظم صغيرا ويرفع حقيرا وليس بفاعل واما الاعجاب فيخفي المحاسن ويظهر المساوى ويكسب المذام ويصد عن الفضائل . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ان العجب ليأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب وقال علي بن ابى طالب كرم الله وجهه الاعجاب ضد الصواب وآفة الالباب وقال بزرجمهر النعمة التى لا يحسد صاحبها عليها التواضع والبلاء الذي لا يرحم صاحبه منه العجب . وقال بعض الحكماء عجب المرء بنفسه أحد حساد عقله وليس الى ما يكسبه الكبر من المقت حد ولا الى ما ينتهى اليه العجب من الجهل غاية حتى انه ليطفئ من المحاسن ما انتشر ويسلب من الفضائل ما اشتهر وناهيك بسيئة تحبط كل حسنة وبمذمة تهدم كل فضيلة مع ما يثيره من حنق ويكسبه من حقد . حكى عمر بن حفص قال قيل للحجاج كيف وجدت منزلك بالعراق قال خير منزل لو كان الله بلغني قتل اربعة فتقربت اليه بدمائهم . ولما ولى مقاتل بن مسمع سجستان اتاه الناس فأعطاهم الاموال فلما عزل دخل مسجد البصرة فبسط الناس له اردیتهم فمشى عليها وقال لرجل يماشيه لمثل هذا فليعمل العاملون وعبد الله بن زياد بن ظبيان التميمي خوّف أهل البصرة أمر فخطب خطبة اوجز فيها فنادى الناس من اعراض المسجد اكثر الله فينا مثلك فقال لقد كلفتم الله شططا ومعبد بن زرارة كان ذات يوم جالسا فى طريق فمرت به امرأة فقالت له يا عبد الله كيف الطريق الى موضع كذا فقال ياهناة مثلى يكون من عبيد الله وابو شمال الاسدى اضل راحلته فالتمسها الناس فلم يجدوها فقال والله ان لم يرد الى راحلتي لاصليت له صلاة ابدا فالتمسها الناس فوجدوها فقالوا له قد رد الله راحلتك فصلّ فقال ان يميني يمين مصر فانظر الى هؤلاء كيف افضى بهم العجب الى حمق صاروا به نكالا فى الأولين ومثلا في الآخرين ولو تصور المعجب المتكبر ما فطر عليه من جبلة وبلى به من مهنة لخفض جناح نفسه واستبدل لينا من عتوه وسكونا من نفوره . وقال الاحنف بن قيس عجبت لمن جرى في مجرى البول مرتين كيف يتكبر وقد وصف بعض الشعراء الانسان فقال

يا مظهر الكبر اعجابا بصورته * انظر خلاك فان النتن تثريب
لو فكر الناس فيما في بطونهم * ما استشعر الكبر شبان ولا شيب
هل فى ابن آدم مثل الرأس مكرمة * وهو بخمس من الاقذار مضروب
انف يسيل واذن ريحها سهك * والعين مرفضة والثغر ملعوب
يا ابن التراب وما كول التراب غدا * اقصر فانك ما كول ومشروب

وأحق من كان للكبر مجانبا وللاعجاب مباينا من جل في الدنيا قدره وعظم فيها خطره لانه قد يستقل بعالي همته كل كثير ويستصغر معها كل كبير . وقال محمد بن علي لا ينبغي للشريف ان يرى شيأ من الدنيا لنفسه خطيرا فيكون بها نابها . وقال ابن السماك لعيسى بن موسى تواضعك في شرفك أشرف لك من شرفك وكان يقال اسمان متضادان بمعنى واحد التواضع والشرف وللكبر أسباب فمن اقوى أسبابه علو اليد ونفوذ الامر وقلة مخالطة الاكفاء . وحكي ان قوما مشوا خلف علي بن أبي طالب رضى الله عنه فقال أبعدوا عني خفق نعالكم فانها مفسدة لقلوب نوكى الرجال ومشوا خلف ابن مسعود فقال ارجعوا فانها زلة للتابع وفتنة للمتبوع . وروى قيس بن حازم ان رجلا أتى به للنبي صلى الله عليه وسلم فأصابته رعدة فقال له صلى الله عليه وسلم هوّن عليك فانما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد وانما قال ذلك صلى الله عليه وسلم حسما لمواد الكبر وقطعا لذرائع الاعجاب وكسرا لاشر النفس وتذليلا لسطوة الاستعلاء . ومثل ذلك ما روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه انه نادى الصلاة جامعة فلما اجتمع الناس صعد المنبر فحمد الله واثنى عليه وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم ثم قال ايها الناس لقد رأيتني ارعى على خالات لي من بني مخزوم فيقبضن لي القبضة من التمر والزبيب فاظل اليوم وأي يوم فقال له عبد الرحمن بن عوف والله ياأمير المؤمنين ما زدت على ان قصرت بنفسك فقال عمر رضى الله عنه ويحك يا ابن عوف اني خلوت فحدثتني نفسي فقالت أنت أمير المؤمنين فمن ذا افضل منك فاردت ان اعرّفها نفسها وللاعجاب اسباب فمن اقوى اسبابه كثرة مديح المتقربين واطراء المتملقين الذين جعلوا النفاق عادة ومكسبا والتملق خديعة وملعبا فاذا وجدوه مقبولا في العقول الضعيفة اغروا اربابها باعتقاد كذبهم وجعلوا ذلك زريعة الى الاستهزاء بهم . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه سمع رجلا يزكي رجلا فقال له قطعت مطاه لو سمعها ما افلح بعدها . وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه المدح ذبح . وقال ابن المقفع قابل المدح كمادح نفسه . وقال بعض الحكماء من رضي ان يمدح بما ليس فيه فقد امكن الساخر منه . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال اياكم والتمادح فانه الذبح ان كان احدكم مادحا اخاه لا محالة فليقل احسب ولا ازكي على الله احدا وقيل فيما انزل الله عز وجل من الكتب السالفة عجبت لمن قيل فيه الخير وليس فيه كيف يفرح وعجبت لمن قيل فيه الشر وهو فيه كيف يغضب . وقال بعض الشعراء

ياجا هلا غره افراط مادحه * لا يغلبن جهل من اطراك علمك بك
أثنى وقال بلا علم احاط به * وانت اعلم بالمحصول من ريبك

وهذا أمر ينبغي للعاقل ان يضبط نفسه عن ان يستفزها ويمنعها من تصديق المدح لها فان للنفس ميلا لحب الثناء وسماع المدح . وقال الشاعر

يهوى الثناء مبرز ومقصر * حب الثناء طبيعة الانسان

فاذا سامح نفسه في مدح الصبوة وتابعها على هذه الشهوة تشاغل بها عن الفضائل الممدوحة ولها بها عن المحاسن الممنوحة فصار الظاهر من مدحه كذبا والباطن من ذمه صدقا وعند تقابلهما يكون الصدق الزم الامرين وهذه خدعة لا يرتضيها عاقل ولا يخدع بها مميز وليعلم ان المتقرب بالمدح يسرف مع القبول ويكف مع الاباء فلا يغلبه حسن الظن على تصديق مدح هو اعرف بحقيقته وليكن تهمة المادح أغلب عليه فقل مدح كان جميعه صدقا وقل ثناء كان كله حقا ولذلك كره اهل الفضل ان يطلقوا ألسنتهم بالثناء والمدح تحرزا من التجاوز فيه وتنزيها عن التملق به . وقد روى مكحول قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تكونوا عيابين ولا تكونوا لعانين ولا متمادحين ولا متماوتين . وحكى الاصمعي ان أبا بكر الصديق رضى الله عنه كان اذا مدح قال اللهم انت اعلم بي من نفسي وانا اعلم بنفسي منهم اللهم اجعلني خيرا مما يحسبون واغفر لي ما لا يعلمون ولا تؤاخذني بما يقولون . وقال بعض الشعراء

اذا المرء لم يمدحه حسن فعاله * فمادحه يهذي وان كان مفصحا

وربما آل حب المدح بصاحبه الى ان يصير مادح نفسه اما لتوهمه ان الناس قد غفلوا عن فضله واخلوا بحقه واما ليخدعهم بتدليس نفسه بالمدح والاطراء فيعتقدون ان قوله حق متبع وصدق مستمع واما لتلذذه بسماع الثناء وسرور نفسه بالمدح والاطراء كما يتغنى بنفسه طربا اذا لم يسمع صوتا مطربا ولا غناء ممتعا ولاى ذلك كان فهو الجهل الصريح والنقص الفضيح . وقد قال بعض الشعراء

وما شرف ان يمدح المرء نفسه * ولكن اعمالا تذم وتمدح
وما كل حين يصدق المرء ظنه * ولا كل اصحاب التجارة يربح
ولا كل من ترجو لغيبك حافظا * ولا كل من ضم الوديعة يصلح

وينبغي للعاقل ان يسترشد اخوان الصدق الذين هم اصفياء القلوب ومرايا المحاسن والعيوب على ما ينبهونه عليه من مساويه التي صرفه حسن الظن عنها فانهم امكن نظرا واسلم فكرا ويجعلون ما ينبهونه عليه من مساويه عوضا عن تصديق المدح فيه . وقد روى انس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال المؤمن مرآة المؤمن اذا رأى فيه عيبا أصلحه

وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول رحم الله امرأ اهدى الينا مساوينا . وقيل لبعض الحكماء اتحب أن تهدى اليك عيوبك قال نعم من ناصح ومما يقارب معنى هذا القول ما روى عن عمر رضى الله عنه أنه قال لابن عباس رضى الله عنهما من ترى ان نوليه حمص فقال رجلا صحيحا منك صحيحا لك قال تكون أنت ذلك الرجل قال لا تنتفع بى مع سؤ ظني بك وسؤ ظنك بى . وقيل في منثور الحكم من أظهر عيب نفسه فقد زكاها فاذا قطع أسباب الكبر وحسم مواد العجب اعتاض بالكبر تواضعا وبالعجب تودد وذلك من أوكد أسباب الكرامة واقوى مواد النعم وأبلغ شافع الى القلوب يعطفها الى المحبة ويثنيها عن البغض . وقال بعض الحكماء من برئ من ثلاث نال ثلاثا من برئ من السرف نال العز ومن برئ من البخل نال الشرف ومن برئ من الكبر نال الكرامة وقال مصعب بن الزبير التواضع مصائد الشرف وقيل في منثور الحكم من دام تواضعه كثر صديقه وقد تحدث المنازل والولايات لقوم اخلاقا مذمومة يظهرها سوء طباعهم ولآخرين فضائل محمودة يبعث عليها زكاء شيمهم لان لتقلب الاحوال سكرة تظهر من الاخلاق مكنونها ومن السرائر مخزونها لا سيما اذا هجمت من غير تدريج وطرقت من غير تأهب . وقد قال بعض الحكماء فى تقلب الاحوال تعرف جواهر الرجال وقال الفضل بن سهل من كانت ولايته فوق قدره تكبر لها ومن كانت ولايته دون قدره تواضع لها . وقال بعض البلغاء الناس فى الولاية رجلان رجل يجل العمل بفضله ومروءته ورجل يجل بالعمل لنقصه ودناءته فمن جل عن عمله ازداد به تواضعا وبشرا ومن جل عنه عمله ازداد به تجبرا وتكبرا

﴿ الفصل الثاني في حسن الخلق ﴾ روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ان الله تعالى اختار لكم الاسلام دينا فأكرموه بحسن الخلق والسخاء فانه لا يكمل الا بهما وقال الاحنف بن قيس الا أخبركم بأدواء الداء قالوا بلى قال الخلق الدني واللسان البذي . وقال بعض الحكماء من ساء خلقه ضاق رزقه وعلة هذا القول ظاهرة . وقال بعض البلغاء الحسن الخلق من نفسه في راحة والناس منه في سلامة والسيئ الخلق الناس منه في بلاء وهو من نفسه فى عناء . وقال بعض الحكماء عاشر اهلك باحسن أخلاقك فان الثواء فيهم قليل . وقال بعض الشعراء

اذا لم تتسع أخلاق قوم * تضيق بهم فسيحات البلاد
اذا ما المرء لم يخلق لبيبا * فليس اللب عن قدم الولاد

فاذا حسنت أخلاق الانسان كثر مصافوه وقلّ معادوه فتسهلت عليه الامور الصعاب

ولانت له القلوب الغضاب · وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال حسن الخلق وحسن الجوار يعمران الديار ويزيدان في الاعمار · وقال بعض الحكماء من سعة الاخلاق كنوز الارزاق وسبب ذلك ما ذكرنا من كثرة الاصفياء المسعدين وقلة الاعداء المجحفين · ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم أحبكم الىّ أحسنكم أخلاقا الموطؤن أكنافا الذين يألفون ويؤلفون وحسن الخلق ان يكون سهل العريكة لين الجانب طليق الوجه قليل النفور طيب الكلمة وقد بين رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الاوصاف فقال أهل الجنة كل هين لين سهل طليق ولما ذكرنا من هذه الاوصاف حدود مقدرة ومواضع مستحقة كما قال الشاعر

أصفو وأكدر أحيانا لمختبري * وليس مستحسنا صفو بلا كدر

وليس يريد بالكدر الذي هو البذاء وشراسة الخلق فان ذلك ذم لا يستحسن وعيب لا يرتضى وانما يريد الكف والانقباض في موضع يلام فيه المساعد ويذم فيه الموافق فاذا كانت لمحاسن الاخلاق حدود مقدرة ومواضع مستحقة فان تجاوز بها الحد صارت ملقا وان عدل بها عن مواضعها صارت نفاقا والملق ذل والنفاق لؤم وليس لمن وسم بهما ودّ مبرور ولا أثر مشكور · وقد روى حكيم عن جابر بن عبدالله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم شر الناس ذو الوجهين الذي يأتى هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه · وروى مكحول عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ينبغى لذى الوجهين ان يكون وجيها عند الله تعالى وقال سعيد بن عروة لأن يكون لى نصف وجه ونصف لسان على ما فيهما من قبح المنظر وعجز المخبر أحب الىّ من أن أكون ذا وجهين وذا لسانين وذا قولين مختلفين · وقال الشاعر

خل النفاق لاهله * وعليك فالتمس الطريقا
وارغب بنفسك ان ترى * الا عدوّا او صديقا

وقال ابراهيم بن محمد

وكم من صديق ودّه بلسانه * خؤن بظهر الغيب لا يتذمم
يضاحكني عجبا اذا ما لقيته * ويصدفنى منه اذا غبت اسهم
كذلك ذوالوجهين يرضيك شاهدا * وفى غيبه ان غاب صاب وعلقم

وربما تغير حسن الخلق والوطاء الى الشراسة والبذاء لاسباب عارضة وأمور طارئة تجعل اللين خشونة والوطاء غلظة والطلاقة عبوسا فمن أسباب ذلك الولاية التى تحدث في الاخلاق تغيرا وعلى الخلطاء تنكرا اما من لؤم طبع واما من ضيق صدر · وقد قيل

من تاه في ولايته ذل في عزله وقيل ذل العزل يضحك من تيه الولاية . ومنها العزل فقد يسوء به الخلق ويضيق به الصدر اما لشدة اسف او لقلة صبر . حكى حميد الطويل ان عمار بن ياسر عزل عن ولاية فاشتد ذلك عليه وقال اني وجدتها حلوة الرضاع مرة الفطام . ومنها الغنى فقد تتغير به اخلاق اللئيم بطرا وتسوء طرائقه أشرا وقد قيل من نال استطال وأنشد الرياشي

غضبان يعلم ان المال ساق له * ما لم يسقه له دين ولا خلق
فمن يكن عن كرام الناس يسألني * فاكرم الناس من كانت له ورق

وقال بعض الشعراء

فان تكن الدنيا أنالتك ثروة * فأصبحت ذا يسر وقد كنت ذا عسر
لقد كشف الاثراء منك خلائقا * من اللؤم كانت تحت ثوب من الفقر

وبحسب ما افسده الغنى كذلك يصلحه الفقر و كتب قتيبة بن مسلم الى الحجاج ان أهل الشام قد التاثوا عليه فكتب اليه ان اقطع عنهم الارزاق ففعل فساءت حالهم فاجتمعوا اليه فقالوا أقلنا فكتب الى الحجاج فيهم فكتب اليه ان كنت آنست منهم رشدا فأجر عليهم ما كنت تجرى واعلم ان الفقر جند الله الاكبر يُذِلّ به كلَ جبار عنيد يتكبر . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لولا ان الله تعالى اذل ابن آدم بثلاث ما طأطا راسه لشيء الفقر والمرض والموت . ومنها الفقر فقد يتغير به الخلق اما أنفة من ذل الاستكانة او أسفا على فائت الغنى . ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم كاد الفقر ان يكون كفرا وكاد الحسد ان يغلب القدر . وقال ابو تمام الطائي

واعجب حالات ابن آدم خلقه * يضل اذا فكرت في كنهه الفكر
فيفرح بالشيء القليل بقاؤه * ويجزع مما صاروهو له ذخر

وربما تسلى من هذه الحالة بالاماني وان قل صدقها فقد قيل قلما تصدق الامنية ولكن قد يعتاض بها سلوة من هم او مسرة برجاء . وقد قال أبو العتاهية

حرك مناك اذا اغتمم * ت فانهن مراوح

وقال آخر

اذا تمنيت بت الليل مغتبطاً * ان المنى رأس اموال المفاليس

ومنها الهموم التي تذهل اللب وتشغل القلب فلا تتبع الاحتمال ولا تقوى على صبر وقد قيل الهم كالسم . وقال بعض الادباء الحزن كالداء المخزون في فؤاد المحزون . وقال بعض الشعراء

همومك بالعيش مقرونة * فما تقطع العيش الا بهم
اذا تم أمر بدا نقصه * ترقب زوالا اذا قيل تم
اذا كنت في نعمة فارعها * فان المعاصى تزيل النعم
وحام عليها بشكر الاله * فان الاله سريع النقم
حلاوة دنياك مسمومة * فما تاكل الشهد الا بسم
فكم قدر دب فى مهلة * فلم يعلم الناس حتى هجم

ومنها الامراض التي يتغير بها الطبع كما يتغير بها الجسم فلا تبقى الاخلاق على اعتدال ولا يقدر معها على احتمال . وقد قال المتنبي

آلة العيش صحة وشباب * فاذا وليا عن المرء ولى
واذا الشيخ قال أف فما مل حياة وانما الضعف ملا
واذا لم تجد من الناس كفؤا * ذات خدر ارادت الموت بعلا
أبدا تسترد ما تهب الدنيا فياليت جودها كان بخلا

ومنها علو السن وحدوث الهرم لتأثيره فى آلة الجسد كذلك يكون تأثيره فى اخلاق النفس فكما يضعف الجسد عن احتمال ما كان يطيقه من أثقال فكذلك تعجز النفس عن اثقال ما كانت تصبر عليه من مخافة الوفاق ومضيق الشقاق وكذلك ما ضاهاه . وقال منصور النمري

ما كنت اوفى شبابى كنه عزته * حتى مضى فاذا الدنيا له تبع
اصبحت لم تطعمى ثكل الشباب ولم * تشجى لغصته فالعذر لا يقع
ما كان اقصر ايام الشباب وما * ابقى حلاوة ذكراه التي تدع
ماواجه الشيب من عين وان رمقت * الا لها نبوة عنه ومرتدع
قد كدت تقضى على فوت الشباب اسى * لولا يعزيك ان العمر منقطع

فهذه سبعة أسباب أحدثت سوء خلق كان عاما وههنا سبب خاص يحدث سوء خلق خاص وهو البغض الذي تنفر منه النفس فتحدث نفورا عن المبغض فيؤل الى سوء خلق يخصه دون غيره فاذا كان سوء الخلق حادثا بسبب كان زواله مقرونا بزوال ذلك السبب ثم بالضد

﴿ الفصل الثالث فى الحياء ﴾ اعلم أن الخير والشر معان كامنة تعرف بسمات دالة كما قالت العرب فى أمثالها تخبر عن مجهوله مرآته . وكما قال عمر بن سلم الشاعر

لا تسأل المرء عن خلائقه * في وجهه شاهد من الخبر

فسمة الخير الدعة والحياء وسمة الشر القحة والبذاء وكفى بالحياء خيرا ان يكون على الخير دليلا وكفى بالقحة والبذاء شرا ان يكونا الى الشر سبيلا . وقد روى حسان بن عطية عن أبي امامة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الحياء والعيّ شعبتان من الايمان والبذاء والبيان شعبتان من النفاق ويشبه أن يكون العيّ في معنى الصمت والبيان في معنى التشادق كما جاء في الحديث الآخر ان أبغضكم الى الثرثارون المتفيهقون المتشدّقون . وروى أبو سلمة عن ابي هريرة رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الحياء من الايمان والايمان في الجنة والبذاء من الجفاء والجفاء في النار . وقال بعض الحكماء من كساه الحياء ثوبه لم ير الناس عيبه . وقال بعض البلغاء حياة الوجه بحيائه كما ان حيات الغرس بمائه . وقال بعض البلغاء العلماء يا عجبا كيف لا تستحي من كثرة ما لا تستحي وتبقى من طول ما لا تبقى . وقال بعض الشعراء وهو صالح بن عبد القدوس

اذا قل ماء الوجه قل حياؤه * ولا خير في وجه اذا قل ماؤه
حياؤك فاحفظه عليك وانما * يدل على فعل الكريم حياؤه

وليس لمن سلب الحياء صادّ عن قبيح ولا زاجر عن محظور فهو يقدم على ما يشاء ويأتي ما يهوى وبذلك جاء الخبر روى شعبة عن منصور بن ربعي عن أبي منصور البدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان مما أدرك الناس من كلام النبوة الاولى يا ابن آدم اذا لم تستحي فاصنع ما شئت وليس هذا القول اغراء بفعل المعاصي عند قلة الحياء كما توهمه بعض من جهل معاني الكلام ومواضعات الخطاب وفي مثل هذا الخبر قول الشاعر

اذا لم تخش عاقبة الليالي * ولم تستحي فاصنع ما تشاء
فلا والله ما في العيش خير * ولا الدنيا اذا ذهب الحياء
يعيش المرء ما استحيا بخير * ويبقى العود ما بقي اللحاء

واختلف اهل العلم في معنى هذا الخبر فقال أبو بكر بن محمد الشاشي في اصول الفقه معنى هذا الحديث ان من لم يستحي دعاه ترك الحياء الى ان يعمل ما يشاء لا يردعه عنه رادع فليستحي المرء فان الحياء يردعه وسمعت من يحكي عن أبي بكر الرازي من اصحاب أبي حنيفة ان المعنى فيه اذا عرضت عليك افعالك التي هممت بفعلها فلم تستحي منها لحسنها وجمالها فاصنع ما شئت منها فجعل الحياء حكما على افعاله وكلا القولين حسن والاول اشبه لان الكلام خرج من النبي صلى الله عليه وسلم مخرج الذم لا مخرج المدح لكن قد جاء الحديث بما يضاهي القول الثاني وهو قوله صلى الله عليه وسلم ما احببت ان تسمعه اذناك فأته وما كرهت ان تسمعه اذناك فاجتنبه

ويجوز ان يحمل هذا الحديث على المعنى الصريح فيه ويكون التأويل الاول في الحديث المتقدم اصح اذ ليس يلزم ان تكون احاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم كلها متفقة المعاني بل اختلاف معانيها ادخل في الحكمة وابلغ في الفصاحة اذا لم يضاد بعضها بعضا واعلم ان الحياء في الانسان قد يكون من ثلاثة اوجه احدها حياؤه من الله تعالى والثاني حياؤه من الناس والثالث حياؤه من نفسه فاما حياؤه من الله تعالى فيكون بامتثال اوامره والكف عن زواجره · وروى ابن مسعود ان النبي صلى الله عليه وسلم قال استحيوا من الله عز وجل حق الحياء فقيل يارسول الله فكيف نستحي من الله عزوجل حق الحياء قال من حفظ الرأس وما حوى والبطن وما وعى وترك زينة الحياة الدنيا وذكر الموت والبلى فقد استحيا من الله عز وجل حق الحياء وهذا الحديث من ابلغ الوصايا · وقال ابو الحسن الماوردي مصنف الكتاب رأيت رسول صلى الله عليه وسلم فى المنام ذات ليلة فقلت يا رسول الله اوصني فقال استحى من الله عزوجل حق الحياء ثم قال تغير الناس قلت وكيف ذلك يا رسول الله قال كنت انظر الى الصبي فارى من وجهه البشر والحياء وانا انظر اليه اليوم فلا ارى ذلك فى وجهه ثم تكلم بعد ذلك بوصايا وعظات تصورتها واذهلني السرور عن حفظها ووددت اني لو حفظتها فلم يبدأ بشيء صلى الله عليه وسلم قبل الوصية بالحياء من الله عزوجل وجعل ما سلبه الصبي من البشر والحياء سببا لتغير الناس وخص الصبي لان ما يأتيه لطبع من غير تكلف فصلى الله وسلم على من هدى امته وتابع انذارها وقطع اعذارها واوصل تأديبها وحفظ تهذيبها وجعل لكل عصر حظا من زواجره ونصيبا من اوامره اعاننا الله على قبولها بالعمل وعلى استدامتها بالتوفيق · وقد روى ان علقمة بن علانة قال يا رسول الله عظنى فقال النبي صلى الله عليه وسلم استحي من الله تعالى استحياءك من ذوى الهيبة من قومك وهذا الحياء يكون من قوة الدين وصحة اليقين ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم قلة الحياء كفر يعني من الله لما فيه من مخالفة اوامره وقال صلى الله عليه وسلم الحياء نظام الايمان فاذا انحل نظام الشئ تبدد ما فيه وتفرق وأما حياؤه من الناس فيكون بكف الاذى وترك المجاهرة بالقبيح · وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال من اتقى الله اتقى الناس · وروى ان حزيفة بن اليمان أتى الجمعة فوجد الناس قد انصرفوا فتنكب الطريق عن الناس وقال لاخير فيمن لا يستحي من الناس · وقال بشار بن برد

ولقد أصرف الفؤاد عن الشى * ء حياء وحبه في السواد
أمسك النفس بالعفاف وأمسى * ذاكرا فى غد حديث الاعادى

وهذا النوع من الحياء قد يكون من كمال المروءة وحب الثناء . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم من ألقى جلباب الحياء فلا غيبة له يعني والله أعلم لقلة مروءته وظهور شهوته . وروى الحسن عن ابي هريرة قال قال صلى الله عليه وسلم ان مروءة الرجل ممشاه ومدخله ومخرجه ومجلسه وآلفه وجليسه . وقال بعض الشعراء

ورب قبيحة ما حال بيني * وبين ركوبها الا الحياء
اذا رزق الفتى وجها وقاحا * تقلب في الامور كما يشاء

وقال آخر

اذا لم تصن عرضا ولم تخش خالقا * وتستحي مخلوقا فما شئت فاصنع

وأما حياؤه من نفسه فيكون بالعفة وصيانة الخلوات . وقال بعض الحكماء ليكن استحياؤك من نفسك أكثر من استحيائك من غيرك . وقال بعض الادباء من عمل في السر عملا يستحي منه في العلانية فليس لنفسه عنده قدر ودعا قوم رجلا كان يألف عشرتهم فلم يجبهم وقال انى دخلت البارحة في الاربعين وانا استحي من سنى . وقال بعض الشعراء

فسرى واعلاني وتلك خليقتي * وظلمة ليلى مثل ضوء نهارى

وهذا النوع من الحياء قد يكون من فضيلة النفس وحسن السريرة فمتى كمل حياء الانسان من وجوهه الثلاثة فقد كملت فيه اسباب الخير وانتفت عنه اسباب الشر وصار بالفضل مشهورا وبالجميل مذكورا . وقال بعض الشعراء

واني ليثنيني عن الجهل والخنا * وعن شتم ذي القربى خلائق اربع
حياء وإسلام وتقوى وطاعة * لربي ومثلى من يضر وينفع

وان أخل باحد وجوه الحياء لحقه من النقص باخلاله بقدر ما كان يلحقه من الفضل بكماله . وقد قال الرياشي يقال ان ابا بكر الصديق رضى الله عنه كان يتمثل بهذا الشعر

وحاجة دون أخرى قد سخت لها * جعلتها للتى اخفيت عنوانا
اني كأنى ارى من لا حياء له * ولا امانة وسط القوم عريانا

﴿ الفصل الرابع في الحلم والغضب ﴾ روى محمد بن حارث الهلالى ان جبريل نزل على النبى صلى الله عليه وسلم فقال يا محمد اني اتيتك بمكارم الاخلاق في الدنيا والاخرة خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين . وروى سفيان بن عيينة ان النبي صلى الله عليه وسلم حين نزلت هذه الآية قال ياجبريل ماهذا قال لا ادري حتى اسأل العالم ثم عاد جبريل وقال يامحمد ان ربك يأمرك أن تصل من قطعك وتعطي من حرمك وتعفو عمن ظلمك . وروى هشام عن الحسن

ان النبي صلى الله عليه وسلم قال أيعجز احدكم أن يكون كأبي ضمضم كان اذا خرج من منزله قال اللهم انى تصدقت بعرضى على عبادك . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ان الله يحب الحليم الحى ويبغض الفاحش البذى وقال عليه الصلاة والسلام من حلم ساد ومن تفهم ازداد . وقال بعض الادباء من غرس شجرة الحلم اجتنى ثمرة السلم . وقال بعض البلغاء ما ذب عن الاعراض كالصفح والاعراض . وقال بعض الشعراء

أحب مكارم الاخلاق جهدى * واكره ان أعيب وان اعابا
وأصفح عن سباب الناس حلما * وشر الناس من يهوى السبابا
ومن هاب الرجال تهيبوه * ومن حقر الرجال فلن يهابا

فالحلم من اشرف الاخلاق وأحقها بذوي الالباب لما فيه من سلامة العرض وراحة الجسد واجتلاب الحمد . وقد قال على ابن ابى طالب كرم الله وجهه أول عوض الحليم عن حلمه ان الناس انصاره وحد الحلم ضبط النفس عن هيجان الغضب وهذا يكون عن باعث وسبب واسباب الحلم الباعثة على ضبط النفس عشرة احدها الرحمة للجهال وذلك من خير يوافق رقة . وقد قيل في منثور الحكم من أوكد الحلم رحمة الجهال . وقال ابو الدرداء رضى الله عنه لرجل أسمعه كلاما يا هذا لا تغرقن في سبنا ودع للصلح موضعا فانا لا نكافئ من عصا الله فينا باكثر من ان نطيع الله عز وجل فيه وشتم رجل الشعبي فقال ان كنت كما قلت فغفر الله لي وان لم أكن كما قلت فغفر الله لك واغتاظت عائشة رضى الله عنها على خادم لها ثم رجعت الى نفسها فقالت لله در التقوى ما تركت لذى غيظ شفاء وقسم معاوية رضي الله عنه قطافا فاعطى شيخا من أهل دمشق قطيفة فلم تعجبه فخلف ان يضرب بها رأس معاوية فاتاه فاخبره فقال له معاوية أوف بنذرك وليرفق الشيخ بالشيخ والثانى من اسبابه القدرة على الانتصار وذلك من سعة الصدر وحسن الثقة . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال اذ قدرت على عدوك فاجعل العفو شكرا للقدرة عليه . وقال بعض الحكماء ليس من الكرم عقوبة من لا يجد امتناعا من السطوة . وقال بعض البلغاء أحسن المكارم عفو المقتدر وجود المفتقر والثالث من اسبابه الترفع عن السباب وذلك من شرف النفس وعلو الهمة كما قالت الحكماء شرف النفس ان تحمل المكاره كما تحمل المكارم وقد قيل ان الله تعالى سمى يحى عليه السلام سيد الحلمه وقد قال الشاعر

لا يبلغ المجد أقوام وان كرموا * حتى يذلوا وان عزوا الاقوام
ويشتموا فترى الالوان مسفرة * لاصفح ذل ولكن صفح احلام

والرابع من أسبابه الاستهانة بالمسيء وذلك عن ضرب من الكبر والاعجاب كما حكى عن مصعب بن الزبير انه لما ولى العراق جلس يوما لعطاء الجند وامر مناديه فنادى ابن عمرو بن جرموز وهو الذي قتل اباه الزبير فقيل له ايها الامير انه قد تباعد في الارض فقال او يظن الجاهل اني أقيده بابي عبدالله فليظهر آمنا ليأخذ عطاءه موفرا فعدّ الناس ذلك من مستحسن الكبر ومثل ذلك قول بعض الزعماء فى شعره

او كلّما طن الذباب طردته * ان الذباب اذاً عليّ كريم

وأكثر رجل من سب الاحنف وهو لايجيبه فقال والله ما منعه من جوابي الا هوانى عليه وفي مثله يقول الشاعر

نجى بك لؤمك منجى الذباب * حمّته مقاذيره أن ينالا

وأسمع رجل ابن هبيرة فاعرض عنه فقال له الرجل اياك أعني فقال له وعنك أعرض وفي مثله يقول الشاعر

فاذهب فانت طليق عرضك انه * عرض عززت به وأنت ذليل

وقال عمرو بن علي

اذا نطق السفيه فلا تجبه * فخير من اجابته السكوت

سكت عن السفيه فظن أني * عييت عن الجواب وماعييت

والخامس من أسبابه الاستحياء من جزاء الجواب وهذا يكون من صيانة النفس وكمال المروءة وقد قال بعض الحكماء احتمال السفيه خير من التحلي بصورته والاغضاء عن الجاهل خير من مشاكلته . وقال بعض الادباء ما أفحش حليم ولا أوحش كريم . وقال لقيط بن زرارة وقل لبنى سعد فمالى ومالكم * ترقون مني ما استطعتم وأعتق

أغركم اني باحسن شيمة * بصير وأني بالفواحش أخرق

وان تك قد فاحشتني فقهرتنى * هنيئاً مريئاً أنت بالفحش أحذق

والسادس من أسبابه التفضل على السباب فهذا يكون من الكرم وحب التألف كما قيل للاسكندر ان فلانا وفلانا ينقصانك ويثلبانك فلو عاقبتهما فقال هما بعد العقوبة أعذر في تنقصى وثلبى فكان هذا تفضلا منه وتألفا . وقد حكى عن الاحنف بن قيس انه قال ما عاداني احد قط الا اخذت فى امره باحدى ثلاث خصال ان كان اعلى مني عرفت له قدره وان كان دوني رفعت قدرى عنه وان كان نظيرى تفضلت عليه فاخذه الخليل فنظمه شعرا فقال

سألزم نفسى الصفح عن كل مذنب * وان كثرت منه الىّ الجرائم
فما الناس الا واحد من ثلاثة * شريف ومشروف ومثل مقاوم
فاما الذى فوقى فاعرف قدره * واتبع فيه الحق والحق لازم
واما الذى دونى فاحلم دائبا * اصون به عرضى وان لام لائم
واما الذى مثلى فان زل او هفا * تفضلت ان الفضل بالفخر حاكم

والسابع من اسبابه استكاف السباب وقطع السباب وهكذا يكون من الحزم كما حكى ان رجلا قال لضرار بن القعقاع والله لو قلت واحدة لسمعت عشرا فقال له ضرار والله لو قلت عشرا لم تسمع واحدة . وحكى ان على بن ابى طالب كرم الله وجهه قال لعامر بن مرة الزهرى من احمق الناس قال من ظن انه اعقل الناس قال صدقت فمن اعقل الناس قال من لم يتجاوز الصمت في عقوبة الجهال وقال الشعبي ما ادركت امى فابرها ولكن لا اسب احدا فيسبها . وقال بعض الحكماء فى اعراضك صون أعراضك . وقال بعض الشعراء

وفي الحلم ردع للسفيه عن الاذى * وفي الخرق اغراء فلا تك اخرقا
فتندم اذ لا تنفعنك ندامة * كما ندما المغبون لما تفرقا

وقال آخر

قل ما بدا لك من زور ومن كذب * حلمى اصم واذنى غير صماء

والثامن من اسبابه الخوف من العقوبة على الجواب وهذا يكون من ضعف النفس وربما اوجبه الراى واقتضاه الحزم وقد قيل في منثور الحكم الحلم حجاب الآفات . وقال الشاعر

ارفق اذا خفت من ذى هفوة خرقا * ليس الحليم كمن في امره خرق

والتاسع من اسبابه الرعاية ليد سالفة وحرمة لازمة وهذا يكون من الوفاء وحسن العهد وقد قيل في منثور الحكم اكرم الشيم ارعاها للذمم . وقال الشاعر

ان الوفاء على الكريم فريضة * واللؤم مقرون بذى الاخلاف
وترى الكريم لمن يعاشر منصفاً * وترى اللئيم مجانب الانصاف

والعاشر من اسبابه المكر وتوقع الفرص الخفية وهذا يكون من الدهاء وقد قيل في منثور الحكم من ظهر غضبه قل كيده . وقال بعض الادباء غضب الجاهل في قوله وغضب العاقل في فعله . وقال بعض الحكماء اذا سكت عن الجاهل فقد اوسعته جوابا واوجعته عقابا . وقال اياس بن قتادة

تعاقب ايدينا ويحلم رايئا * ونشتم بالافعال لا بالتكلم

وقال بعض الشعراء

وللكف عن شتم اللئيم تكرما * أضر له من شتمه حين يشتم

فهذه عشرة اسباب تدعو الى الحلم وبعض الاسباب افضل من بعض وليس اذا كان بعض أسبابه مفضولا مايقتضي أن تكون نتيجته من الحلم مذمومة وانما الاولى بالانسان أن يدعوه للحلم افضل اسبابه وان كان الحلم كله فضلا وان عرى عن أحد هذه الاسباب كان ذلا ولم يكن حلما لاننا قد ذكرنا في حد الحلم أنه ضبط النفس عن هيجان الغضب فاذا فقد الغضب لسماع مايغضب كان ذلك من ذل النفس وقلة الحمية . وقد قالت الحكماء ثلاثة لا يعرفون الا في ثلاثة مواطن لا يعرف الجواد الا في العسرة والشجاع الا في الحرب والحليم الا في الغضب . وقال الشاعر

ليست الاحلام في حال الرضى * انما الاحلام في حال الغضب

وقال آخر

من يدعى الحلم أغضبه لتعرفه * لايعرف الحلم الا ساعة الغضب

وأنشد النابغة الجعدى بحضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم

ولا خير في حلم اذا لم يكن له * بوادر تحمى صفوه أن يكدرا

ولا خير في جهل اذا لم يكن له * حليم اذا ماأورد الامر أصدرا

فلم ينكر صلى الله عليه وسلم قوله عليه ومن فقد الغضب في الاشياء المغضبة حتى استوت حالتاه قبل الاغضاب وبعده فقد عدم من فضائل النفس الشجاعة والانفة والحمية والغيرة والدفاع والاخذ بالثار لانها خصال مركبة من الغضب فاذا عدمها الانسان هان بها ولم يكن لباقى فضائله في النفوس موضع ولا لوفور حلمه في القلوب موقع وقد قال المنصور اذا كان الحلم مفسدة كان العفو معجزة . وقال بعض الحكماء العفو يفسد من اللئيم بقدر اصلاحه من الكريم . وقال عمرو بن العاص اكرموا سفهاءكم فانهم يقونكم العار والشنار . وقال مصعب بن الزبير ماقل سفهاء قوم الاذلوا . وقال أبو تمام الطائي

والحرب تركب رأسها في مشهد * عدل السفيه به بالف حليم

وليس هذا القول اغراء بتحكم الغضب والانقياد اليه عند حدوث مايغضب فيكسب بالانقياد للغضب من الرذائل اكثر مما يسلبه عدم الغضب من الفضائل ولكن اذا ثار به الغضب عند هجوم مايغضبه كف سورته بحزمه واطفأ نائرته بحلمه ووكل من استحق المقابلة الى غيره ولم يعدم مسيئا مكافيا كما لم يعدم محسنا مجازيا والعرب تقول دخل بيتا ماأخرج منه

أي ان أخرج منه خير دخله خير وان أخرج منه شر دخله شر . وانشد ابن دريد عن أبي حاتم

اذا أمن الجهال جهلك مرة * فعرضك للجهال غنم من الغنم
فم عليه الحلم والجهل والقه * بمنزلة بين العداوة والسلم
اذا أنت جازيت السفيه كما جزى * فانت سفيه مثله غير ذي حلم
ولا تغضبن عرض السفيه وداره * بحلم فان أعي عليك فبالصرم
فيرجوك تارات ويخشاك تارة * ويأخذ فيما بين ذلك بالحزم
فان لم تجد بدًّا من الجهل فاستعن * عليه بجهال فذاك من العزم

وهذه من احكم ابيات وجدتها في تدبير الحلم والغضب وهذا التدبير انما يستعمل فيما لايجد الانسان بدا من مقارنته ولا سبيل الى اطراحه ومتاركته اما لخوف شره او للزوم امره فأما من أمكن اطراحه ولم يضر ابعاده فالهوان به اولى والاعراض عنه أصوب فاذا كان على ما وصفت استفاد بتحريك الغضب فضائله وأمن بكف نفسه عن الانقياد له رذائله وصار الحلم مدبرا للامور المغضبة بقدر لايعتريه نقص بعدم الغضب ولا يلحقه زيادة بفقد الحلم ولو عزب عنه الحلم حتى انقاد لغضبه ضل عنه وجه الصواب فيه وضعف رأيه عن خيرة اسبابه ودواعيه حتى يصير بليد الرأى مغمور الروية مقطوع الحجة مسلوب العزاء قليل الحيلة مع ماينالـه من اثر ذلك في نفسه وجسده حتى يصير اضر عليه مما غضب له . وقد قال بعض الحكماء من كثر شططه كثر غلطه . وروى أن سلمان قال لعلي رضي الله عنه ماالذي يباعدني عن غضب الله عز وجل قال لاتغضب . وقال بعض السلف اقرب مايكون العبد من غضب الله عز وجل اذا غضب . وقال بعض البلغاء من رد غضبه هدّ من اغضبه . وقال بعض الادباء ما هيج جاشك كغيظ اجاشك . وقال رجل لبعض الحكماء عظني قال لاتغضب فينبغي لذي اللب السوى والحزم القوى ان يتلقى قوة الغضب بحلمه فيصدها ويقابل دواعي شرته بحزمه فيردها ليحظى باجل الخيرة ويسعد بحميد العاقبة . وقال بعض الادباء في اغضابك راحة اعصابك وسبب الغضب هجوم ما تكرهه النفس ممن دونها وسبب الحزن هجوم ما تكرهه النفس ممن فوقها والغضب يتحرك من داخل الجسد الى خارجه . والحزن يتحرك من خارج الجسد الى داخله فلذلك قتل الحزن ولم يقتل الغضب لبروز الغضب وكمون الحزن وصار الحادث عن الغضب السطوة والانتقام لبروزه والحادث عن الحزن المرض والاسقام لكمونه ولذلك افضى الحزن الى الموت ولم يفض اليه الغضب فهذا فرق مابين الحزن والغضب واعلم ان لتسكين الغضب اذا هجم اسبابا يستعان بها على الحلم منها ان يذكر الله عز وجل

فيدعوه ذلك الى الخوف منه ويبعثه الخوف منه على الطاعة له فيرجع الى ادبه ويأخذ بندبه فعند ذلك يزول الغضب . قال الله تعالى واذكر ربك اذا نسيت قال عكرمة يعني اذا غضبت وقال الله تعالى واما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله ومعنى قوله ينزغنك اي يغضبنك فاستعذ بالله انه هو السميع العليم يعني انه سميع بجهل من جهل عليم بما يذهب عنك الغضب وذكر ان في التوراة مكتوبا يا ابن آدم اذكرني حين تغضب اذكرك حين اغضب فلا امحقك فيمن امحق . وحكى ان بعض ملوك الفرس كتب كتابا ودفعه الى وزيرله وقال اذا غضبت فناولنيه وكان فيه مالك والغضب انما انت بشر ارحم من في الارض يرحمك من فى السماء . وقال بعض الحكماء من ذكر قدرة الله لم يستعمل قدرته في ظلم عباد الله . وقال عبد الله بن مسلم بن محارب لهارون الرشيد يا امير المؤمنين أسألك بالذي انت بين يديه اذل مني بين يديك وبالذي هو اقدر على عقابك منك على عقابي لما عفوت عني فعفا عنه لما ذكره قدرة الله تعالى . وروى ان رجلا شكا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم القسوة فقال اطلع في القبور واعتبر بالنشور وكان بعض ملوك الطوائف اذا غضب ألقى عنده مفاتيح تُرَب الملوك فيزول غضبه ولذلك قال عمر رضي الله عنه عن اكثر من ذكر الموت رضي من الدنيا باليسير ومنها ان ينتقل عن الحالة التى هو فيها الى حالة غيرها فيزول عنه الغضب بتغير الاحوال والتنقل من حال الى حال وكان هذا مذهب المأمون اذا غضب او شتم وكانت الفرس تقول اذا غضب القائم فليجلس واذا غضب الجالس فليقم ومنها ان يتذكر ما يؤول اليه الغضب من الندم ومذمة الانتقام وكتب ابرويز الى ابنه شيرويه ان كلمة منك تسفك دما وأخرى منك تحقن دما وان نفاذ امرك مع كلامك فاحترس في غضبك من قولك ان تخطئ ومن لونك ان يتغير ومن جسدك ان يخف فان الملوك تعاقب قدرة وتعفو حلما . وقال بعض الحكماء الغضب على من لا تملك عجز وعلى من تملك لؤم . وقال بعض الادباء اياك وعزة الغضب فانها تفضى الى ذل العذر . وقال بعض الشعراء

واذا ما اعتراك في الغضب العزة فاذكر تذلل الاعذار

ومنها ان يذكر ثواب العفو وجزاء الصفح فيقهر نفسه على الغضب رغبة في الجزاء والثواب وحذرا من استحقاق الذم والعقاب . روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ينادي مناديوم القيامة من له اجر على الله عز وجل فليقم فيقوم العافون عن الناس ثم تلا فمن عفا واصلح فاجره على الله . وقال رجاء بن حيوة لعبد الملك بن مروان في اساري ابن الاشعث ان الله قد أعطاك ما تحب من الظفر فأعط الله ما يحب من العفو . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم

انه قال الخير ثلاث خصال فمن كن فيه فقد استكمل الايمان من اذا رضى لم يدخله رضاه في باطل واذا غضب لم يخرجه غضبه من حق واذا قدر عفا وأسمع رجل عمر بن عبد العزيز كلاما فقال عمر اردت ان يستفزني الشيطان لعزة السلطان فانال منك اليوم ما تناله مني غدا انصرف رحمك الله ومنها ان يذكر انعطاف القلوب عليه وميل النفوس اليه فلا يرى اضاعة ذلك بتغير الناس عنه فيرغب في التألف وجميل الثناء . وروى ابن ابى ليلى عن عطية عن ابى سعيد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما ازداد احد بعفو الا عزا فاعفوا يعزكم الله . وقال بعض البلغاء ليس من عادة الكرام سرعة الانتقام ولا من شروط الكرم ازالة النعم . وقال المأمون لابراهيم بن المهدي انى شاورت في أمرك فاشاروا علىّ بقتلك الى أنى وجدت قدرك فوق ذنبك فكرهت القتل للازم حرمتك فقال ياامير المؤمنين ان المشير اشار بما جرت به العادة في السياسة الا انك أبيت ان تطلب النصر الا من حيث ما عودته من العفو فان عاقبت فلك نظير وان عفوت فلا نظير لك وأنشأ يقول

البرّ بى منك وطأ العذر عندك لى * فيما فعلت فلم تعذل ولم تلم
وقام علمك بى فاحتج عندك لى * مقام شاهد عدل غير متهم
لئن جحدتك معروفا منحت به * انى لفى اللؤم اخطى منك بالكرم
تعفو بعدل وتسطو ان سطوت به * فلا عدمناك من عاف ومنتقم

﴿ الفصل الخامس فى الصدق والكذب ﴾ قال الله تعالى وهو أصدق القائلين ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين وقال تعالى انما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال للحسن بن على رضى الله عنهما دع ما يريبك الى مالا يريبك فان الكذب ريبة والصدق طمأنينة . وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال رحم الله امرأ أصلح من لسانه وأقصر من عنانه وألزم طريق الحق مقوله ولم يعوّد الخطل مفصله . وروى صفوان بن سليم قال قيل للنبي صلى الله عليه وسلم أيكون المؤمن جبانا قال نعم قيل أفيكون بخيلا قال نعم قيل أفيكون كذابا قال لا . وقال ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى ولا تلبسوا الحق بالباطل أي لا تخلطوا الصدق بالكذب . وقيل فى منثور الحكم الكذاب لص لان اللص يسرق مالك والكذاب يسرق عقلك . وقال بعض الحكماء الخرس خير من الكذب وصدق اللسان أول السعادة . وقال بعض البلغاء الصادق مصان جليل والكاذب مهان ذليل . وقال بعض الادباء لا سيف كالحق ولا عون كالصدق . وقال بعض الشعراء

وما شيء اذا فكرت فيه * باذهب للمروءة والجمال
من الكذب الذي لاخير فيه * وابعد بالبهاء من الرجال

والكذب جماع كل شر واصل كل ذم لسوء عواقبه وخبث نتائجه لانه ينتج النميمة والنميمة تنتج البغضاء والبغضاء تؤول الى العداوة وليس مع العداوة امن ولا راحة ولذلك قيل من قل صدقه قل صديقه والصدق والكذب يدخلان الاخبار الماضية كما ان الوفاء والخلف يدخلان المواعيد المستقبلة فالصدق هوالاخبار عن الشيء على ماهو عليه والكذب هو الاخبار عن الشيء بخلاف ماهو عليه ولكل واحد منها دواع فدواعي الصدق لازمة ودواعى الكذب عارضة لان الصدق يدعو اليه عقل موجب وشرع مؤكد فالكذب يمنع منه العقل ويصدّ عنه الشرع ولذلك جاز أن تستفيض الاخبار الصادقة حتى تصير متواترة ولم يجز أن تستفيض الاخبار الكاذبة لان اتفاق الناس في الصدق والكذب انما هو لاتفاق الدواعي فدواعى الصدق يجوز أن يتفق الجمع الكثير عليها حتى اذا تلقوا خبرا وكانوا عددا ينتفى عن مثلهم المواطأة وقع فى النفس صدقه لان الدواعى اليه نافعة واتفاق الناس في الدواعى النافعة ممكن ولايجوز أن يتفق العدد الكثيرالذي لايمكن مواطأة مثلهم على نقل خبر يكون كذبا لان الدواعي اليه غير نافعة وربما كانت ضارة وليس في جاري العادة أن يتفق الجمع الكثير على دواع غير نافعة ولذلك جاز اتفاق الناس على الصدق لجواز اتفاق دواعيهم ولم يجز ان يتفقوا على الكذب لامتناع اتفاق دواعيهم واذا كان للصدق والكذب دواع فلا بد من ذكر ماسنح به الخاطر من دواعيهما اما دواعى الصدق فمنها العقل لانه موجب لقبح الكذب لا سيما اذا لم يجلب نفعا ولم يدفع ضررا والعقل يدعو الى فعل ماكان مستحسنا ويمنع من اتيان ما كان مستقبحا وليس ما استحسن من مبالغات الشعراء حتى صار كذبا صراحا استحسانا للكذب في العقل كالذي انشدنيه الازدي لبعض الشعراء

توهمه فكري فاصبح خده * وفيه مكان الوهم من فكرتى اثر
وصافحه كفى فآلم كفه * فمن لمس كفى في أنامله عقر
ومر بقلبي خاطرا فجرحته * ولم ار شيأ قط تجرحه الفكر

وكقول العباس بن الاحنف وان كان دون هذه المبالغة

تقول وقد كتبت دقيق خطي * اليها لم تجنبت الجليلا
فقلت لها تحملت فصار خطى * مساعدة لكاتبه نحيلا

لانه خرج مخرج المبالغة في التشبيه والاقتدار على صنعة الشعر وان شواهد الحال تخرجه

عن تليس الكذب وكذلك ما استحسن في الصنعة ولم يستقبح افي العقل وان كان الكذب مستقبحا ومنها الدين الوارد باتباع الصدق وحظر الكذب لان الشرع لايجوز أن يرد بارخاص ماحظره العقل بل قد جاء الشرع زائدا على مااقتضاه العقل من حظر الكذب لان الشرع ورد بحظر الكذب وان جرنفعا او دفع ضررا والعقل انما حظر مالايجلب نفعا ولا يدفع ضررا ومنها المروءة فانها مانعة من الكذب باعثة على الصدق لانها قد تمنع من فعل ماكان مستكرها فاولى من فعل ماكان مستقبحا ومنها حب الثناء والاشتهار بالصدق حتى لايرد عليه قول ولا يلحقه ندم . وقد قال بعض البلغاء ليكن مرجعك الى الحق ومنزعك الى الصدق فالحق اقوى معين والصدق افضل قرين . وقال بعض الشعراء

عوّد لسانك قول الصدق تحظ به * ان اللسان لما عودت معتاد
موكل بتقاضى ما سننت له * في الخير والشر فانظر كيف ترتاد

واما دواعي الكذب فمنها اجتلاب النفع واستدفاع الضر فيرى ان الكذب اسلم واغنم فيرخص لنفسه فيه اغترارا بالخدع واستشغافا للطمع وربما كان الكذب ابعد لما يؤمل واقرب لما يخاف لان القبيح لايكون حسنا والشر لايصير خيرا وليس يجني من الشوك العنب ولا من الكرم الحنظل . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال تحروا الصدق وان رايتم فيه الهلكة فان فيه النجاة وتجنبوا الكذب وان رايتم ان فيه النجاة فان فيه الهلكة وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه لان يضعني الصدق وقلما يفعل احب الىّ من ان يرفعني الكذب وقلما يفعل . وقال بعض الحكماء الصدق منجيك وان خفته والكذب مرديك وان امنته . وقال الجاحظ الصدق والوفاء توأمان والصبر والحلم توأمان فبهن تمام كل دين وصلاح كل دنيا وأضدادهن سبب كل فرقة واصل كل فساد ومنها ان يؤثر ان يكون حديثه مستعذبا وكلامه مستظرفا فلا يجد صدقا يعذب ولا حديثا يستظرف فيستحلى الكذب الذى ليست غرائبه معوزة ولا ظرائفه معجزة وهذا النوع اسوأ حالا مما قبل لانه يصدر عن مهانة النفس ودناءة الهمة . وقد قال الجاحظ لم يكذب احد قط الا لصغر قدر نفسه عنده . وقال ابن المقفع لا تتهاون بارسال الكذبة من الهزل فانها تسرع الى ابطال الحق ومنها ان يقصد بالكذب التشفي من عدوه فيسمه بقبائح يخترعها عليه ويصفه بفضائح ينسبها اليه ويرى ان معرة الكذب غنم وان ارسالها في العدو سهم وسم وهذا اسوأ حالا من النوعين الاولين لانه قد جمع بين الكذب المعر والشر المضر ولذلك ورد الشرع برد شهادة العدو على عدوه ومنها ان تكون دواعي الكذب قد ترادفت عليه حتى الفها فصار الكذب له عادة ونفسه اليه منقادة

حتى لو رام مجانبة الكذب عسر عليه لان العادة طبع ثان . وقد قالت الحكماء من استحلى رضاع الكذب عسر فطامه . وقيل في منثور الحكم لا يلزم الكذاب شيء الا غلب عليه واعلم ان للكذاب قبل خبرته أمارات دالة عليه فمنها أنك اذا لقنته الحديث تلقنه ولم يكن بين ما لقنته وبين ما أورده فرق عنده ومنها انك اذا شككته فيه تشكك حتى يكاد يرجع فيه ولولاك ما تخالجه الشك فيه ومنها انك اذا ردّدت عليه قوله حصر وارتبك ولم يكن عنده نصرة المحتجين ولا برهان الصادقين ولذلك قال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه الكذاب كالسراب ومنها ما يظهر عليه من ريبة الكذابين وينم عليه من ذلة المتوهمين لان هذه امور لا يمكن الانسان دفعها عن نفسه لما في الطبع من آثارها . ولذلك قالت الحكماء العينان أنم من اللسان . وقال بعض البلغاء الوجوه مرايا تريك أسرار البرايا . وقال بعض الشعراء

تريك أعينهم ما في صدورهم * ان العيون يؤدى سرها النظر

واذا اتسم بالكذب نسبت اليه شوارد الكذب المجهولة وأضيفت الى أكاذيبه زيادات مفتعلة حتى يصير الكاذب مكذوبا عليه فيجمع بين معرة الكذب منه ومضرة الكذب عليه . وقد قال الشاعر

حسب الكذوب من البليـــة بعض ما يحكى عليه

فاذا سمعت بكـذبة * من غيره نسبت اليه

ثم انه ان تحرى الصدق اتهم وان جانب الكذب كذب حتى لا يعتقد له حديث يصدق ولا كذب مستنكر . وقد قال الشاعر

اذا عرف الكذاب بالكذب لم يكد * يصدّق فى شيء وان كان صادقا

ومن آفة الكذاب نسيان كذبه * وتلقاه ذا حفظ اذا كان صـادقا

وقد وردت السنة بارخاص الكذب في الحرب واصلاح ذات البين على وجه التورية والتأويل دون التصريح به فان السنة لا يجوز ان ترد باباحة الكذب لما فيه من التنفير وانما ذلك على طريق التورية والتعريض كما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد تطرف برداء وانفرد عن أصحابه فقال له رجل ممن أنت قال من ماء فورّى عن الاخبار بنسبه بأمر يحتمل فظن السائل أنه عني القبيلة المنسوبة الى ذلك وانما أراد رسول ان صلى الله عليه وسلم انه من الماء الذى يخلق منه الانسان فبلغ ما أحب من اخفاء نفسه وصدق فى خبره وكالذى حكى عن ابى بكر الصديق رضى الله عنه انه كان يسير خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم حين هاجر معه فتلقاه العرب وهم يعرفون ابا بكر ولا يعرفون رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقولون يا ابا بكر من هذا فيقول هاد يهديني السبيل فيظنون انه يعني هداية الطريق وهو انما يريد هداية سبيل الخير فيصدق فى قوله

ويورى عن مراده . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ان فى المعاريض لمندوحة عن الكذب . وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه ان في المعاريض ما يكفى أن يعِفّ الرجل عن الكذب . وقال بعض اهل التأويل فى قوله تعالى لا تؤاخذني بما نسيت انه لم ينسا ولكنه معاريض الكلام . وقال ابن سيرين الكلام أوسع من ان يصرح فيه بالكذب واعلم أن من الصدق ما يقوم مقام الكذب فى القبح والمعرة ويزيد عليه فى الاذى والمضرة وهى الغيبة والنميمة والسعاية فاما الغيبة فانها خيانة وهتك ستر يحدثان عن حسد وغدر قال الله تعالى ولا يغتب بعضكم بعضا أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا يعني أنه كما لا يحل لحمه ميتا لا تحل غيبته حيا . وروى ان امرأتين صامتا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وجعلتا تغتابان الناس فاخبر بذلك النبى صلى الله عليه وسلم فقال صامتا عما أحل لهما وأفطرتا على ما حرم عليهما . وروت اسماء بنت يزيد قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذب عن لحم اخيه بظهر الغيب كان حقا على الله عز وجل ان يحرم لحمه على النار . وقال عدى بن حاتم الغيبة رعى اللئام وكان الحسن البصرى رحمه الله تعالى يقول الغيبة فاكهة النساء . وقال رجل لابن سيرين رحمه الله اني اغتبتك فاجعلني فى حل فقال ما أحب أن أحل لك ما حرم الله عليك . وقال ابن السماك لا تعن الناس على عيبك بسوء غيبك . وقال الشاعر

لا تلتمس من مساوى الناس ما ستروا * فيهتك الله سترا عن مساويكا
واذكر محاسن ما فيهم اذا ذكروا * ولا تعب احدا منهم بما فيك

وربما عذر المغتاب نفسه بانه يقول حقا ويعلن فسقا ويستشهد بما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال ثلاثة ليست غيبتهم بغيبة الامام الجائر وشارب الخمر والمعلن بفسقه فيبعد من الصواب ويجانب الادب لانه وان كان بالغيبة صادقا فقد هتك سترا كان بصونه اولى وجاهر من أسر وأخفى وربما دعى المغتابَ ذلك الى اظهار ما كان يستره والمجاهرة بما كان يضمره فلم يفد ذلك الا فساد اخلاقه من غير ان يكون فيه صلاح لغيره . وقد قيل لانوشروان ما الذى لا خير فيه قال ما ضرنى ولم ينفع غيري او ضر غيري ولم ينفعني فلا اعلم فيه خيرا . وقيل في منثور الحكم لا تبد من العيوب ما ستره علام الغيوب . وقد روى العلاء ابن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة قال سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الغيبة فقال هي ان تقول لاخيك ما فيه فان كنت صادقا فقد اغتبته وان كنت كاذبا فقد بهته . وقال عبد الرحمن بن زيد فى قوله تعالى يا ايها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى ان يكونوا خيرا منهم انه استهزاء المسلم بمن اعلن بفسقه . ودخلت امرأة على النبى صلى الله عليه وسلم مستفتية

فلما خرجت قالت عائشة رضى الله عنها يارسول الله ماقصرها فقال مهلا اياك والغيبة فقالت يارسول الله انما قلت مافيها قال اجل ولولا ذلك لكان بهتانا . وسئل بعض الادباء عن صفة اللئيم فقال اللئيم اذا غاب عاب واذا حضر اغتاب فاما الخبر فمحمول على الانكار لافعال هؤلاء ولا يكون الانكار غيبة لانه نهى عن منكر وفرق بين انكار المجاهر وغيبة المساتر واما النميمة فهى ان تجمع الى مذمة الغيبة رداءة وشرا وتضم الى لؤمها دناءة وغدرا ثم تؤول الى تقاطع المتواصلين وتباغض المتحابين . وروى شهر بن حوشب عن اسماء بنت يزيد عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال ألا اخبركم بشراركم قالوا بلى يارسول الله قال من شراركم المشاؤون بالنميمة المفسدون بين الاحبة الباغون العيوب . وروى محمد بن عمرو عن ابى سلمة عن ابى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ملعون ذو الوجهين ملعون ذو اللسانين ملعون كل شغار ملعون كل قتات ملعون كل منان الشغار المحرش بين الناس يلقى بينهم العداوة والقتات النمام وقيل النمام الذى يكون مع القوم يتحدثون فينم حديثهم والقتات هو الذي يستمع عليهم وهم لايعلمون فينم حديثهم والمنان هو الذي يصنع الخير ويمن به . وقيل في منثور الحكم النميمة سيف قاتل . وقال بعض الادباء لم يمش ماش شر من واش فاما السعاية فهى شر الثلاثة لانها تجمع الى مذمة الغيبة ولؤم النميمة التغرير بالنفوس والاموال والقدح فى المنازل والاحوال . وروى ابن قتيبة أن النبى صلى عليه وسلم قال الجنة لايدخلها ديوث ولا قلاع الديوث هو الذي يجمع بين الرجال والنساء سمى بذلك لانه يدث بينهم والقلاع هوالساعى الذي يقع في الناس عند الامراء سمى بذلك لانه يأتي الرجل المتمكن عند الامير فلا يزال يقع فيه حتى يقلعه وقال بعض الحكماء الساعى بين منزلتين قبيحتين اما ان يكون صدق فقد خان الامانة واما ان تكون قد كذب فخالف المروءة . وقال بعض الحكماء الصدق يزين كل احد الا السعاة فان الساعى اذم وآثم ما يكون اذا صدق . وقال بعض البلغاء النميمة دناءة والسعاية رداءة وهما رأس الغدر واساس الشر فتجنب سبلهما واجتنب اهلهما ووقع الفضل بن سهل على قصة ساع سعى اليه نحن نرى قبول السعاية شرا منها لان السعاية دلالة والقبول اجازة فاتقوا الساعي فانه ان كان في سعايته صادقا كان فى صدقه آثما اذ لم يحفظ الحرمة ويستر العورة . وقال الاسكندر لرجل سعى اليه برجل أتحب أن نقبل منك ماتقول فيه على أن نقبل منه مايقول فيك قال لا قال فكف عن الشر يكف عنك الشر وروى ان الله تعالى اوحى الى موسى على نبينا وعليه السلام ان في بلدك ساعيا ولست اخبرك وهو في ارضك فقال يارب دلنى عليه حتى اخرجه فقال ياموسى اكره النميمة وانم

﴿ الفصل السادس في الحسد والمنافسة ﴾ اعلم أن الحسد خلق ذميم مع اضراره بالبدن وفساده للدين حتى لقد أمر الله بالاستعاذة من شره فقال تعالى ومن شر حاسد اذا حسد وناهيك بحال ذلك شرا . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال دب اليكم داء الامم قبلكم البغضاء والحسد هي الحالقة حالقة الدين لا حالقة الشعر والذى نفس محمد بيده لا تؤمنوا حتى تحابوا ألا أنبئكم بامر اذا فعلتموه تحاببتم أفشوا السلام بينكم فاخبر صلى الله عليه وسلم بحال الحسد وأن التحابب ينفيه وان السلام يبعث على التحابب فصار السلام اذاً نافيا للحسد وقد جاء كتاب الله تعالى بما يوافق هذا القول وقال الله تعالى ادفع بالتي هي احسن فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم قال مجاهد معناه ادفع بالسلام اساءة المسيء . وقال الشاعر

قد يلبث الناس حينا ليس بينهم * ودّ فيزرعه التسليم واللطف

وقال بعض السلف الحسد اول ذنب عصى الله به فى السماء يعنى حسد ابليس لآدم عليه السلام وأول ذنب عصى الله به في الارض يعنى حسد ابن آدم لاخيه حتى قتله . وقال بعض الحكماء من رضى بقضاء الله تعالى لم يسخطه احد ومن قنع بعطائه لم يدخله حسد . وقال بعض البلغاء الناس حاسد ومحسود ولكل نعمة حسود . وقال بعض الادباء مارأيت ظالما أشبه بمظلوم من الحسود نفس دائم وهم لازم وقلب هائم . فاخذه بعض الشعراء فقال

ان الحسود الظلوم في كرب * يخاله من يراه مظلوما
ذا نَفَس دائم على نَفَس * يظهر منها ماكان مكتوما

ولو لم يكن من ذم الحسد الا أنه خلق دنيء يتوجه نحو الاكفاء والاقارب ويختص بالمخالط والمصاحب لكانت النزاهة عنه كرما والسلامة منه مغنما فكيف وهو بالنفس مضر وعلى الهم مصر حتى ربما افضى بصاحبه الى التلف من غير نكاية في عدو ولا اضرار بمحسود . وقد قال معاوية رضى الله عنه ليس فى خصال الشر اعدل من الحسد يقتل الحاسد قبل أن يصل الى المحسود . وقال بعض الحكماء يكفيك من الحاسد أنه يغتم في وقت سرورك . وقيل في منثور الحكم عقوبة الحاسد من نفسه . وقال الاصمعى قلت لاعرابى ما أطول عمرك قال تركت الحسد فبقيت . وقال رجل لشريح القاضي انى لا احسدك على ارى من صبرك على الخصوم ووقوفك على غامض الحكم فقال مانفعك الله بذلك ولا ضرنى . وقال عبد الله ابن المعتز رحمه الله تعالى

اصبر على كيد الحسو * د فان صبرك قاتله
فالنار تأكل بعضها * ان لم تجد ما تأكله

وحقيقة الحسد شدة الاسى على الخيرات تكون للناس الافاضل وهو غير المنافسة وربما غلط قوم فظنوا أن المنافسة في الخير هى الحسد وليس الامر على ماظنوا لان المنافسة طلب التشبه بالافاضل من غير ادخال ضرر عليهم والحسد مصروف الى الضرر لان غايته ان يعدم الافاضل فضلهم من غير أن يصير الفضل له فهذا الفرق بين المنافسة والحسد فالمنافسة اذا فضيلة لانها داعية الى اكتساب الفضائل والاقتداء باخيار الافاضل . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال المؤمن يغبط والمنافق يحسد . وقال الشاعر

نافس على الخيرات اهل العلا * فانما الدنيا احاديث
كل امرئ في شأنه كادح * فوارث منهم ومورث

واعلم ان دواعى الحسد ثلاثة احدها بغض المحسود فيأسى عليه بفضيلة تظهر او منقبة تشكر فيثير حسدا قد خامر بغضا وهذا النوع لايكون عاما وان كان اضرها لانه ليس يبغض كل الناس والثاني ان يظهر من المحسود فضل يعجز عنه فيكره تقدمه فيه واختصاصه به فيثير ذلك حسدا لولاه لكف عنه وهذا اوسطها لانه لايحسد الاكفاء من دنا وانما يختص بحسد من علا وقد يمتزج بهذا النوع ضرب من المنافسة ولكنها مع عجز فلذلك صارت حسدا والثالث ان يكون في الحاسد شح بالفضائل وبخل بالنعم وليست اليه فيمنع منها ولا بيده فيدفع عنها لانها مواهب قد منحها الله من شاء فيسخط على الله عز وجل في قضائه ويحسد على ما منح من عطائه وان كانت نعم الله عز وجل عنده أكثر ومنحه عليه اظهر وهذا النوع من الحسد اعمها واخبثها اذ ليس لصاحبه راحة ولا لرضاه غاية فان اقترن بشر وقدرة كان بورا وانتقاما وان صادف عجزا ومهانة كان كمدا وسقاما . وقد قال عبد الحميد الحسود من الهم كساقى السم فان سرى سمه زال عنه همه واعلم ان بحسب فضل الانسان وظهور النعمة عليه يكون حسد الناس له فان كثر فضله كثر حساده وان قلّ قلوا لان ظهور الفضل يثير الحسد وحدوث النعمة يضاعف الكمد ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم استعينوا على قضاء الحوائج بسترها فان كل ذي نعمة محسود وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه ما كانت نعمة الله على احد الا وجد لها حاسدا فلو كان الرجل اقوم من القدح لما عدم غامزا . وقد قال الشاعر

ان يحسدونى فانى غير لائمهم * قبلى من الناس اهل الفضل قد حسدوا
فدام لي ولهم ما بى وما بهم * ومات اكثرنا غيظا بما يجد

وربما كان الحسد منبها على فضل المحسود ونقص الحسود . كما قال ابو تمام الطائى

واذا اراد الله نشر فضيلة * طويت اتاح لها لسان حسود

لولا اشتعال النار فيما جاورت * ما كان يعرف طيب عرف العود
لولا التخوف للعواقب لم يزل * للحاسد النعمى على المحسود

فاما مايستعمله من كان غالبا عليه الحسد وكان طبعه اليه مائلا لينتفى عنه ويكفاه ويسلم من ضرره وعداوته فامور هى له حسم ان صادفها عزم فمنها اتباع الدين فى اجتنابه والرجوع الى الله عز وجل فى آدابه فيقهر نفسه على مذموم خلقها وينقلها عن لئيم طبعها وان كان نقل الطباع عسرا لكن بالرياضة والتدريج يسهل منها مااستصعب ويحبب منها ماتعب وان تقدم قول القائل من ربه خلقه كيف يخلى خلقه غير انه اذا عانى تهذيب نفسه تظاهر بالتخلق دون الخلق ثم بالعادة يصير كالخلق . قال ابو تمام الطائى

فلم اجد الاخلاق الا تخلقا * ولم اجدالافضال الا تفضلا

ومنها العقل الذي يستقبح به من نتائج الحسد ما لا يرضيه ويستنكف من هجنة مساويه فيذلل نفسه انفة ويقهرها حمية فتذعن لرشدها وتجيب الى صلاحها وهذا انما يصح لذي النفس الابية والهمة العلية وان كان ذو الهمة يجل عن دناءة الحسد . وقد قال الشاعر

ابى له نفسان نفس زكية * ونفس اذا ماخافت الظلم تشمس

ومنها ان يستدفع ضرره ويتوقى اثره ويعلم ان مكانته فى نفسه ابلغ ومن الحسد ابعد فيستعمل الحزم في دفع ما كدّه وأكمده ليكون أطيب نفسا واهنأ عيشا . وقد قيل العجب لغفلة الحساد عن سلامة الاجساد . وقد قال الشاعر

بصير باعقاب الامور كأنما * يرى بصواب الراي ما هو واقع

ومنها ما يرى من نفور الناس عنه وبعدهم منه فيخافهم اما على نفسه من عداوة او على عرضه من ملامة فيتألفهم بمعالجة نفسه ويراهم ان صلحوا اجدى نفعا واخلص ودّا . وقال ابن العميد رحمه الله تعالى

داوي جوي بجوى وليس بحازم * من يستكف النار بالحلفاء

وقال المؤمل بن أميل

لا تحسبوتى غنيا عن مودتكم * انى اليكم وان ايسرت مفتقر

ومنها ان يساعد القضاء ويستسلم للمقدور ولا يرى ان يغالب قضاء الله فيرجع مغلوبا ولا ان يعارضه فى امره فيرد محروما مسلوبا . وقد قال ازدشير بن بابك اذا لم يساعدنا القضاء ساعدناه . وقال محمود الوراق

قدر الله كائن * حين يقضى وروده
قد مضى فيك علمه * وانتهى ما يريده
فأرد ما يكون ان * لم يكن ما تريده

فان أظفرته السعادة باحد هذه الاسباب وهدته المراشد الى استعمال الصواب سلم من سقامه وخلص من غرامه واستبدل بالنقص فضلا واعتاض من الذم حمدا ولمن استنزل نفسه عن مذمة فصرفها عن لائمة هو أظهر حزما واقوى عزما ممن كفته النفس جهادها وأعطته قيادها ولذلك قال علي بن أبي طالب رضى الله عنه خياركم كل مفتن تواب وان صدته الشهوة عن مراشده وأضله الحرمان عن مقاصده فانقاد للطبع اللئيم وغلب عليه الخلق الذميم حتى ظهر حسده واشتد كمده فقد باء باربع مذام احداهنّ حسرات الحسد وسقام الجسد ثم لا يجد لحسرته انتهاء ولا يؤمل لسقامه شفاء . وقال ابن المعتز الحسد داء الجسد والثانية انخفاض المنزلة وانحطاط المرتبة لانحراف الناس عنه ونفورهم منه . وقد قيل فى منثور الحكم الحسود لا يسود والثالثة مقت الناس له حتى لا يجد فيهم محبا وعداوتهم له حتى لا يرى فيهم وليا فيصير بالعداوة مأثورا وبالمقت مزجورا . ولذلك قال النبي صلي الله عليه وسلم شر الناس من يبغض الناس ويبغضونه والرابعة اسخاط الله تعالى في معارضته واجتناب الاوزار فى مخالفته اذ ليس يرى قضاء الله عدلا ولا لنعمه من الناس أهلا . ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب . وقال عبدالله ابن المعتز الحاسد مغتاظ على من لا ذنب له بخيل بما لا يملكه طالب ما لا يجده واذا بلي الانسان بمن هذه حاله من حساد النعم وأعداء الفضل استعاذ بالله من شره وتوقى مصارع كيده وتحرز من غوائل حسده وأبعد عن ملابسته وادنائه لعضل دائه واعواز دوائه فقد قيل حاسد النعمة لا يرضيه الا زوالها . وقال بعض الحكماء من ضر بطبعه فلا تأنس بقربه فان قلب الاعيان صعب المرام . وقال عبد الحميد أسد تقاربه خير من حسود تراقبه . وقال محمود الوراق

أعطيت كل الناس من نفسى الرضا * الا الحسود فانه اعياني
ما ان لى ذنبا اليه علمته * الا تظاهر نعمة الرحمن
وأبى فما يرضيه الا ذلتى * وذهاب اموالى وقطع لسانى

وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ثلاثة لا يسلم احد منهنّ الطيرة وسوء الظن والحسد فاذا تطيرت فلا ترجع واذا ظننت فلا تحقق واذا حسدت فلا تبغ

﴿ فصل ﴾ واما آداب المواضعة والاصطلاح فضربان احدهما ما تكون المواضعة فى فروعه والعقل موجب لاصوله والثانى ما تكون المواضعة في فروعه واصوله وذلك متضح في الفصول التى نذكرها اذا سبرت وهى ثمانية

﴿ الفصل الاول في الكلام والصمت ﴾ اعلم ان الكلام ترجمان يعبر عن مستودعات الضمائر ويخبر بمكنونات السرائر لا يمكن استرجاع بوادره ولا يقدر على رد شوارده فحق على العاقل ان يحترز من زلله بالامساك عنه او بالاقلال منه . روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال رحم الله من قال خيرا فغنم اوسكت فسلم . وقال صلى الله عليه وسلم لمعاذ يا معاذ انت سالم ما سكتّ فاذا تكلمت فعليك او لك . وقال علي بن ابى طالب كرم الله وجهه اللسان معيار اطاشه الجهل وارجحه العقل . وقال بعض الحكماء الزم الصمت تُعَدَّ حكيما جاهلا كنت او عالما . وقال بعض الادباء سعد من لسانه صموت وكلامه قوت . وقال بعض العلماء من اعوز ما يتكلم به العاقل ان لا يتكلم الا لحاجته او محجته ولا يفكر الا في عاقبته او في آخرته . وقال بعض البلغاء الزم الصمت فانه يكسبك صفو المحبة ويؤمنك سوء المغبة ويلبسك ثوب الوقار ويكفيك مؤنة الاعتذار . وقال بعض الفصحاء اعقل لسانك الا عن حق توضحه او باطل تدحضه او حكمة تنشرها او نعمة تذكرها . وقال الشاعر

رايت العز في ادب وعقل * وفى الجهل المذلة والهوان
وماحسن الرجال لهم بحسن * اذا لم يسعد الحسن البيان
كفى بالمرء عيبا ان تراه * له وجه وليس له لسان

واعلم ان للكلام شروطا لايسلم المتكلم من الزلل الا بها ولا يعرى من النقص الا بعد ان يستوفيها وهى اربعة فالشرط الاول ان يكون الكلام لداع يدعو اليه اما في اجتلاب نفع او دفع ضرر والشرط الثانى ان يأتى به في موضعه ويتوخى باصابة فرصته والشرط الثالث ان يقتصر منه على قدر حاجته والشرط الرابع ان يتخير اللفظ الذي يتكلم به فهذه اربعة شروط متى اخل المتكلم بشرط منها فقد اوهن فضيلة باقيها وسنذكر تعليل كل شرط منها بما ينبئ عن لزومه فاما الشرط الاول وهو الداعي الى الكلام فلأن مالا داعي له هذيان وما لا سبب له هجر ومن سامح نفسه فى الكلام اذا عنّ ولم يراع صحة دواعيه واصابة معانيه كان قوله مرذولا ورأيه معلولا كالذي حكى ابن عائشة ان شابا كان يجالس الاحنف ويطيل الصمت فاعجب ذلك الاحنف فجلت الحلقة يوما فقال له الاحنف تكلم ياابن اخي فقال ياعم لو ان رجلا سقط من شرف هذا المسجد هل كان يضره شيء فقال ياابن اخي ليتنا تركناك مستورا

ثم تمثل الاحنف بقول الاعور الشنى

وكائن ترى من صامت لك معجب * زيادته أو نقصه في التكلم
لسان الفتى نصف ونصف فؤاده * فلم يبق الا صورة اللحم والدم

وكالذي حكي عن ابي يوسف الفقيه أن رجلا كان يجلس اليه فيطيل الصمت فقال له أبو يوسف ألا تسأل قال بلى متى يفطر الصائم قال اذا غربت الشمس قال فان لم تغرب الى نصف الليل قال فتبسم أبو يوسف رحمه الله وتمثل ببيتي الخطفى جد جرير

عجبت لازراء العي بنفسه * وصمت الذي قد كان بالقول أعلما
وفي الصمت ستر للعي وانما * صحيفة لب المرء أن يتكلما

ومما اطرفك به عنى أنى كنت يوما فى مجلسي بالبصرة وانا مقبل على تدريس اصحابى اذ دخل علىّ رجل مسن قد ناهز الثمانين أو جاوزها فقال لى قد قصدتك بمسألة اخترتك لها فقلت اسأل عافاك الله وظننته يسأل عن حادث نزل به فقال اخبرنى عن نجم ابليس ونجم آدم ما هو فان هذين لعظم شأنهما لا يسئل عنهما الاعلماء الدين فعجبت وعجب من في مجلسى من سؤاله وبدر اليه قوم منهم بالانكار والاستخفاف فكففتهم وقلت هذا لا يقنع مع ما ظهر من حاله الا بجواب مثله فاقبلت عليه وقلت يا هذا ان المنجمين يزعمون ان نجوم الناس لا تعرف الا بمعرفة مواليدهم فان ظفرت بمن يعرف ذلك فاسأله فحينئذ أقبل علىّ وقال جزاك الله خيرا ثم انصرف مسروراً فلما كان بعد ايام عاد وقال ما وجدت الى وقتى هذا من يعرف مولد هذين فانظر الى هؤلاء كيف ابانوا بالكلام عن جهلهم وأعربوا بالسؤال عن نقصهم اذ لم يكن لهم داع اليه ولا روية فيما تكلموا به ولو صدر عن روية ودعا اليه داع لسلموا من شينه وبرئوا من عيبه ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم لسان العاقل من وراء قلبه فاذا اراد الكلام رجع الى قلبه فان كان له تكلم وان كان عليه امسك وقلب الجاهل من وراء لسانه يتكلم بكل ما عرض له . وقال عمر بن عبد العزيز من لم يعدّ كلامه من عمله كثرت خطاياه . وقال بعض الحكماء عقل المرء مخبوء تحت لسانه . وقال بعض البلغاء احبس لسانك قبل ان يطيل حبسك او يتلف نفسك فلا شيء اولى بطول حبس من لسان يقصر عن الصواب ويسرع الى الجواب . وقال ابو تمام الطائى

ومما كانت الحكماء قالت * لسان المرء من تبع الفؤاد

وكان بعض الحكماء يحسم الرخصة في الكلام ويقول اذا جالست الجهال فانصت لهم واذا جالست العلماء فانصت لهم فان فى انصاتك للجهال زيادة في الحلم وفي انصاتك للعلماء زيادة في العلم

واما الشرط الثاني فهو ان يأتى بالكلام في موضعه لان الكلام في غير حينه لايقع موقع الانتفاع به وما لاينفع من الكلام فقد تقدم القول بانه هذيان وهجر فان قدم مايقتضي التأخير كان عجلة وخرقا وان أخر ما يقتضي التقديم كان توانيا وعجزا لان لكل مقام قولا وفي كل زمان عملا . وقد قال الشاعر

تضع الحديث على مواضعه * وكلامها من بعدها نزر

واما الشرط الثالث وهو ان يقتصر منه على قدر حاجته فان الكلام ان لم ينحصر بالحاجة ولم يقدر بالكفاية لم يكن لحده غاية ولا لقدره نهاية ومالم يكن من الكلام محصورا كان حصرا ان قصر وهذرا ان كثر . وروى ان اعرابيا تكلم عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وطوّل فقال النبي صلى الله عليه وسلم كم دون لسانك من حجاب قال شفتاي واسناني قال فان الله عز وجل يكره الانبعاق في الكلام فنضر الله وجه امرئ اوجز في كلامه فاقتصر على حاجته . وحكى ان بعض الحكماء رأى رجلا يكثر الكلام ويقل السكوت فقال ان الله تعالى انما خلق لك اذنين ولسانا واحدا ليكون ماتسمعه ضعف ماتتكلم به . وقال بعض الحكماء من كثر كلامه كثرت آثامه . وقال ابن مسعود انذركم فضول المنطق . وقال بعض البلغاء كلام المرء بيان فضله وترجمان عقله فاقصره على الجميل واقتصر منه على القليل واياك مايسخط سلطانك ويوحش اخوانك فمن اسخط سلطانه تعرض للمنية ومن أوحش اخوانه تبرأ من الحرية . وقال بعض الشعراء

وزن الكلام اذا نطقت فانما * يبدي عيوب ذوي العيوب المنطق

ولمخالفة قدر الحاجة من الكلام حالتان تقصير يكون حصرا وتكثير يكون هذرا وكلاهما شَيْنٌ وشَيْنُ الهذر اشنع وربما كان في الغالب اخوف قال النبي صلى الله عليه وسلم وهل يكب الناسَ على مناخرهم في نار جهنم الا حصائد ألسنتهم . وقال بعض الحكماء مقتل الرجل بين فكيه . وقال بعض البلغاء الحصر خير من الهذر لان الحصر يضعف الحجة والهذر يتلف الحجة . وقد قال الشاعر

رأيت اللسان على اهله * اذا ساسه الجهل ليثا مغيرا

وقال بعض الادباء (يارُبَّ ألسنة كالسيوف تقطع اعناق اصحابها وما ينقص من هيئات الرجال يزيد فى بهائها والبابها) . وقد ذهب بعضهم الى ان الكلام اذا كثر عن قدر الحاجة وزاد على حد الكفاية وكان صوابا لايشوبه خطل وسليما لايتعوده زلل فهو البيان والسحر الحلال . وقال سليمان بن عبد الملك وقد ذم الكلام فى مجلسه كلا ان من تكلم فأحسن

قدر على ان يسكت فيحسن وليس من سكت فاحسن قدر على ان يتكلم فيحسن ووصف بعضهم الكاتب فقال الكاتب من اذا أخذ شبرا كفاه واذا وجد طومارا أملاه . وانشد بعضهم في خطباء اياد

يرمون بالخطب الطوال وتارة * وحى الملاحظ خيفة الرقباء

وقال الهيثم بن صالح لابنه يا بنى اذا اقللت من الكلام اكثرت من الصواب فقال يا أبتي فان انا اكثرت واكثرت يعني كلاما وصوابا فقال يا بني ما رأيت موعوظا احق بان يكون واعظا منك . وانشدت لابى الفتح البستي

تكلم وسدّد ما استطعت فانما * كلامك حي والسكوت جماد

فان لم تجد قولا سديدا تقوله * فصمتك عن غير السداد سداد

وقيل لاياس بن معاوية ما فيك عيب الا كثرة الكلام فقال أفتسمعون صوابا او خطأ قالوا لا بل صوابا قال فالزيادة من الخير خير . وقال ابو عثمان الجاحظ للكلام غاية ولنشاط السامعين نهاية وما فضل عن مقدار الاحتمال ودعا الى الاستثقال والملال فذلك الفاضل هو الهذر وصدق ابو عثمان لان الاكثار منه وان كان صوابا يُمِلّ السامع ويُكِلّ الخاطر وهو صادر عن اعجاب به لولاه قصر عنه ومن اعجب بكلامه استرسل فيه والمسترسل في الكلام كثير الذلل دائم العثار . وقال بعض الحكماء من اعجب بقوله اصيب بعقله وليس لكثرة الهذر رجاء يقابل خوفه ولا نفع يوازي ضره لانه يخاف من نفسه الزلل ومن سامعيه الملل وليس فى مقابلة هذين حاجة داعية ولا نفع مرجوّ . وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال ابغضكم اليّ المتفيهق المكثار والملحّ المهذار وسأل رجل حكيما فقال متى اتكلم قال اذا اشتهيت الصمت فقال متى اصمت قال اذا اشتهيت الكلام . وقال جعفر بن يحيى اذا كان الايجاز كافيا كان الاكثار عيا وان كان الاكثار واجبا كان التقصير عجزا . وقيل في منثور الحكم اذا تم العقل نقص الكلام . وقال بعض الادباء من اطال صمته اجتلب من الهيبة ما ينفعه ومن الوحشة مالا يضره . وقال بعض البلغاء عيّ تسلم منه خير من منطق تندم عليه فاقتصر من الكلام على ما يقيم حجتك ويبلغ حاجتك واياك وفضوله فانه يزل القدم ويورث الندم . وقال بعض الفصحاء فم العاقل ملجم اذا هم بالكلام احجم وفم الجاهل مطلق كلما شاء اطلق . وقال بعض الشعراء

ان الكلام يعد القوم جلوته * حتى يلج به عيّ واكثار

وأما الشرط الرابع وهو اختيار اللفظ الذي يتكلم به فلأن اللسان عنوان الانسان يترجم عن مجهوله ويبرهن عن محصوله فيلزم أن يكون بتهذيب الفاظه حريا وبتقويم لسانه مليا . روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لعمه العباس يعجبني جمالك قال وما جمال الرجل يا رسول الله قال لسانه . وقال خالد بن صفوان ما الانسان لولا اللسان هل الا بهيمة مهملة او صورة ممثلة . وقال بعض الحكماء اللسان وزير الانسان . وقال بعض الادباء كلام المريد وافد ادبه . وقال بعض البلغاء يستدل على عقل الرجل بقوله وعلى أصله بفعله . وقال بعض الشعراء

وان لسان المرء مالم تكن له * حصاة على عوراته لدليل

وليس يصح اختيار الكلام الا لمن اخذ نفسه بالبلاغة وكلفها لزوم الفصاحة حتى يصير متدربا بها معتادا لها فلا يأتي بكلام مستكره اللفظ ولا مختل المعنى لان البلاغة ليست على معان مفردة ولا لالفاظها غاية وانما البلاغة ان تكون بالمعاني الصحيحة مستودعة فى الفاظ فصيحة فتكون فصاحة الالفاظ مع صحة المعانى هى البلاغة . وقد قيل لليونانى ما البلاغة قال اختيار الكلام وتصحيح الاقسام . وقيل ذلك للرومى فقال حسن الاختصار عند البديهة والغزارة يوم الاطالة . وقيل للهندي فقال معرفة الفصل من الوصل . وقيل للعربى فقال ماحسن ايجازه وقل مجازه . وقيل للبدوي فقال مادون السحر وفوق الشعر يفت الخردل ويحط الجندل . وقيل للحضري فقال ما كثر اعجازه وتناسبت صدوره واعجازه . وقال ابن المقفع البلاغة قلة الحصر والجراءة على البشر . وسئل الحجاج بن القرية عن الايجاز قال أن تقول فلا تبطئ وان تصيب فلا تخطئ . وقال الشاعر

خير الكلام قليل * على كثير دليل
والحي معنى قصير * يحويه لفظ طويل
وفي الكلام فضول * وفيه قال وقيل

واما صحة المعاني فتكون من ثلاثة اوجه احدها ايضاح تفسيرها حتى لاتكون مشكلة ولا مجملة والثاني استيفاء تقسيمها حتى لا يدخل فيها ما ليس منها ولا يخرج عنها ما هو فيها والثالث صحة مقابلاتها والمقابلة تكون من وجهين احدها مقابلة المعنى بما يوافقه وحقيقة هذه المقاربة لان المعانى تصير متشاكلة والثانى مقابلته بما يضاده وهو حقيقة المقابلة وليس للمقابلة الا احد هذين الوجهين الموافقة في الائتلاف والمضادة مع الاختلاف فاما فصاحة الالفاظ فتكون بثلاثة اوجه أحدها مجانبة الغريب الوحشي حتى لايجه سمع

ولا ينفر منه طبع والثاني تنكب اللفظ المستبذل والعدول عن الكلام المسترذل حتى لا يستسقطه خاصى ولا ينبو عن فهم عامي كما قال الجاحظ في كتاب البيان أما أنا فلم أر قوما أمثل طريقة في البلاغة من الكتاب وذلك أنهم قد التمسوا من الالفاظ مالم يكن متوعرا وحشيا ولا ساقطا عاميا والثالث ان يكون بين الالفاظ ومعانيها مناسبة ومطابقة أما المطابقة فهي أن تكون الالفاظ كالقوالب لمعانيها فلا تزيد عليها ولا تنقص عنها . وقال بشر بن المعتمر في وصيته في البلاغة اذا لم تجد اللفظة واقعة موقعها ولا صائرة الى مستقرها ولا حالة فى مركزها بل وجدتها قلقة في مكانها نافرة عن موضعها فلا تكرهها على القرار في غير موضعها فانك ان لم تتعاط قريض الشعر الموزون ولم تتكلف اختيار الكلام المنثور لم يعبك بترك ذلك أحد واذا أنت تكلفتهما ولم تكن حاذقا فيهما عابك من أنت أقل عيبا منه وأزرأ عليك من انت فوقه واما المناسبة فهي ان يكون المعنى يليق ببعض الالفاظ اما لعرف مستعمل او لاتفاق مستحسن حتى اذا ذكرت تلك المعانى بعد تلك الالفاظ كانت نافرة عنها وان كانت افصح واوضح لاعتياد ما سواها . وقال بعض البلغاء لا يكون البليغ بليغا حتى يكون معنى كلامه اسبق الى فهمك من لفظه الى سمعك واما معاطاة الاعراب وتجنب اللحن فانما هو من صفات الصواب والبلاغة اعلى منه رتبة واشرف منزلة وليس لمن لحن في كلامه مدخل في الادباء فضلا عن ان يكون في عداد البلغاء واعلم ان للكلام آدابا ان اغفلها المتكلم اذهب رونق كلامه وطمس بهجة بيانه ولها الناس عن محاسن فضله بمساوى ادبه فعدلوا عن مناقبه بذكر مثالبه فمن آدابه ان لا يتجاوز فى مدح ولا يسرف في ذم وان كانت النزاهة عن الذم كرما والتجاوز في المدح ملقا يصدر عن مهانة والسرف في الذم انتقام يصدر عن شر وكلاهما شين وان سلم من الكذب . يروى انه لما قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفد تميم سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عمرو بن الاهتم عن قيس بن عاصم فمدحه فقال قيس والله يارسول الله لقد علم اني خير مما وصف ولكن حسدنى فذمه عمرو وقال والله يارسول الله لقد صدقت فى الاولى وما كذبت في الاخرى لانى رضيت في الاولى فقلت احسن ما علمت وسخطت في الاخرى فقلت اقبح ما علمت فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان من البيان لسحرا على ان السلامة من الكذب في المدح والذم متعذرة لا سيما اذا مدح تقربا وذم تحنقا . وحكى عن الاحنف بن قيس انه قال سهرت ليلتى افكر في كلمة ارضي بها سلطانى ولا اسخط بها ربى فما وجدتها . وقال عبد الله بن مسعود ان الرجل ليدخل على السلطان ومعه دينه فيخرج وما معه دينه قيل وكيف ذلك قال يرضيه بما يسخط الله عز وجل

وسمع ابن الرومي رجلا يصف رجلا ويبالغ في مدحه فأنشا يقول

اذا ما وصفت امرأ لامرئ * فلا تغل فى وصفه واقصد
فانك ان تغل تغل الظنو * ن فيه الى الامد الابعد
فيضأل من حيث عظمته * لفضل المغيب على المشهد

ومن آدابه ان لاتبعثه الرغبة والرهبة على الاسترسال في وعد او وعيد يعجز عنهما ولا يقدر على الوفاء بهما فان من اطلق بهما لسانه وارسل فيهما عنانه ولم يستثقل من القول ما يستثقله من العمل صار وعده نكثا ووعيده عجزا . وحكى ان سليمان بن داود عليهما السلام مر بعصفور يدور حول عصفورة فقال لاصحابه هل تدرون ما يقول لها قالوا لا يا نبى الله قال انه يخطبها لنفسه ويقول لها زوجيني نفسك اسكنك اى غرف دمشق شئت وقال سليمان كذب العصفور فان غرف دمشق مبنية بالصخور لايقدر ان يسكنها هناك ولكن كل خاطب كاذب ومن آدابه ان قال قولا حققه بفعله واذا تكلم بكلام صدقه بعمله فان ارسال القول اختيار والعمل به اضطرار ولان يفعل ما لم يقل اجمل من أن يقول مالم يفعل . وقال بعض الحكماء احسن الكلام مالا يحتاج فيه الى الكلام اى يكتفى بالفعل من القول . وقال محمود الوراق

القول ماصدقه الفعل * والفعل ما وكده العقل
لايثبت القول اذالم يكن * يقله من تحته الاصل

ومن آدابه أن يراعى مخارج كلامه بحسب مقاصده واغراضه فان كان ترغيبا قرنه باللين واللطف وان كان ترهيبا خلطه بالخشونة والعنف فان لين اللفظ في الترهيب وخشونته في الترغيب خروج عن موضعهما وتعطيل للمقصود بهما فيصير الكلام لغوا والغرض المقصود لهوا . وقد قال ابو الاسود الدؤلى لابنه يابني ان كنت في قوم فلا تتكلم بكلام من هو فوقك فيمقتوك ولا بكلام من هو دونك فيزدروك ومن آدابه أن لايرفع بكلامه صوتا مستنكرا ولا ينزعج له انزعاجا مستهجنا وليكف عن حركة تكون طيشا وعن حركة تكون عيا فان نقص الطيش أكثر من فضل البلاغة . وقد حكى أن الحجاج قال لاعرابي أخطيب أنا قال نعم لولا أنك تكثر الرد وتشير باليد وتقول أما بعد ومن آدابه أن يتجافى هجر القول ومستقبح الكلام وليعدل الى الكناية عما يستقبح صريحه ويستهجن فصيحه ليبلغ الغرض ولسانه نزه وأدبه مصون . وقد قال محمد بن على فى قوله تعالى واذا مروا باللغو مروا كراما قال كانوا اذا ذكروا الفروج كنوا عنها وكما أنه يصون لسانه عن ذلك فهكذ

يصون عنه سمعه فلا يسمع خنى ولا يصغى الى فحش فان سماع الفحش داع الى اظهاره وذريعة الى انكاره واذا وجد عن الفحش معرضا كف قائله وكان اعراضه أحد النكيرين كما ان سماعه أحد الباعثين وأنشدني ابو الحسن بن الحارث الهاشمي

تحرّ من الطرق أوساطها * وعدّ عن الموضع المشتبه
وسمعك صن عن قبيح الكلام * كصون اللسان عن النطق به
فانك عند استماع القبيح * شريك لقائله فانتبه

ومما يجرى مجرى فحش القول وهجره في وجوب اجتنابه ولزوم تنكبه ما كان شنيع البديهة مستنكر الظاهر وان كان عقب التأمل سليما وبعد الكشف والروية مستقيما كالذي رواه الازدى عن الصولى لبعض المتكلمين من الشعراء

انني شيخ كبير * كافر بالله سيرى
أنت ربي والهى * رازق الطفل الصغير

يريد بقوله كافر اى لابس لان الكفر التغطية ولذلك سمى الكافر بالله كافرا لانه قد غطى نعمة الله بمعصيته وقوله بالله سيرى يقسم عليها أن تسير وقوله انت ربى يعنى ربى ولدك من التربية والهي رازق الطفل الصغير كما انه رازق الولد الكبير فانظر الى هذا التكلف الشنيع والتعمق البشيع ما اعتاض من حيث البديهة اذا سلم بعد الفكر والروية الا لؤما ان حسن فيه الظن او ذما ان قوى فيه الارتياب وقلما يكون ذلك الا من خليع بطر او مرتاب أشر فاما الحديث المروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لا تصلوا على النبي فخارج من هذا النوع من التليس وفي تأويله وجهان أحدهما انه اراد النهى عن الصلاة في المكان المرتفع المحدودب مأخوذ من النبوة والثانى انه اراد الطريق ومنه سمى رسل الله أنبياء لانهم الطرق اليه وانما زال عنه التليس اذ قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم وان كان من قول غيره تليسا شنيعا لان موضوع خطابه وشواهد احواله يصرفان كلامه عن التجوز والاسترسال في أمر او نهي الى ما يجوز ان يرد به شرع وينهى عنه نبي وليس يمتنع ذلك في غيره ولذلك افترق وجوده منه ومن غيره ومن آدابه ان يجتنب أمثال العامة الغوغاء ويتخصص بامثال العلماء الادباء فان لكل صنف من الناس امثالا تشاكلهم فلا تجد لساقط الا مثلا ساقطا وتشبيها مستقبحا وللساقط امثال فمنها تمثيلهم للشئ المريب كما قال الصنوبرى

اذا ما كنت ذا بول صحيح * ألا فاضرب به وجه الطبيب

ولذلك علتان احداهما ان الامثال من هواجس الهمم وخطرات النفوس ولم يكن لذى الهمة الساقطة الا مثل مرذول وتشبيه معلول والثانية ان الامثال مستخرجة من احوال المتمثلين بها فبحسب ما هم عليه تكون امثالهم فلهاتين العلتين وقع الفرق بين امثال الخاصة وأمثال العامة وربما الف المتخصص مثلا عاميا او تشبيها ركيكا لكثرة ما يطرق سمعه من مخالطة الاراذل فيسترسل في ضربه مثلا فيصير به مثلا كالذى حكى عن الاصمعى ان الرشيد سأله يوما عن انساب بعض العرب فقال على الخبير سقطت يا أمير المؤمنين فقال له الفضل بن الربيع أسقط الله جنبيك أتخاطب امير المؤمنين بمثل هذا الخطاب فكان الفضل بن الربيع مع قلة علمه اعلم بما يستعمل من الكلام في محاورة الخلفاء من الاصمعى الذى هو واحد عصره وفريد دهره وللامثال من الكلام موقع في الاسماع وتأثير في القلوب لا يكاد الكلام المرسل يبلغ مبلغها ولا يؤثر تأثيرها لان المعاني بها لائحة والشواهد بها واضحة والنفوس بها وامقة والقلوب بها واثقة والعقول لها موافقة فلذلك ضرب الله الامثال في كتابه العزيز وجعلها من دلائل رسله واوضح بها الحجة على خلقه لانها في العقول معقولة وفي القلوب مقبولة ولها اربعة شروط احدها صحة التشبيه والثاني ان يكون العلم بها سابقا والكل عليها موافقا والثالث ان يسرع وصولها للفهم ويعجل تصورها في الوهم من غير ارتياء في استخراجها ولا كد في استنباطها والرابع ان تناسب حال السامع لتكون ابلغ تأثيرا واحسن موقعا فاذا اجتمعت في الامثال المضروبة هذه الشروط الاربعة كانت زينة للكلام وجلاء للمعانى وتدبرا للافهام

﴿ الفصل الثاني في الصبر والجزع ﴾ اعلم ان من حسن التوفيق وامارات السعادة الصبر على الملمات والرفق عند النوازل وبه نزل الكتاب وجاءت السنة قال الله تعالى يا ايها الذين آمنو اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون يعنى اصبروا على ما افترض الله عليكم وصابروا عدوكم ورابطوا فيه تأويلان احدهما على الجهاد والثاني على انتظار الصلوات . وعن ابي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الا ادلكم على مايمحط الله به الخطايا ويرفع به الدرجات قالوا بلى يا رسول الله قال اسباغ الوضوء عند المكاره وكثرة الخطا الى المسجد وانتظار الصلاة بعد الصلاة فذلكم الرباط فنزل الكتاب بتأكيد الصبر فيما امر به وندب اليه وجعله من عزائم التقوى فيما افترضه وحث عليه . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال الصبر ستر من الكروب وعون على الخطوب . وقال على بن ابى طالب كرم الله وجهه الصبر مطية لا تكبو والقناعة سيف لا ينبو . وقال عبد الحميد لم اسمع اعجب من قول

عمر بن الخطاب رضى الله عنه لو أن الصبر والشكر بعيران ما باليت ايهما ركبت . وقال عبد الله ابن عباس رضى الله عنهما افضل العدّة الصبر على الشدّة . وقال بعض البلغاء من خير خلالك الصبر على اختلالك . وقيل في منثور الحكم من احب البقاء فليعد للمصائب قلبا صبورا . وقال بعض الحكماء بالصبر على مواقع الكره تدرك الحظوظ . وقال بعض الشعراء وهو عبيد ابن الابرص

صَبِّر النفس عند كل ملم * ان في الصبر حيلة المحتال
لاتضيقن في الامور فقد تكشف غماؤها بغير احتيال
ربما تجزع النفوس من الامر له فرجة كحل العقال

وقال ابن المقفع في كتاب اليتيمة الصبر صبران فالتام اصبر اجساما والكرام اصبر نفوسا وليس الصبر الممدوح صاحبه ان يكون الرجل قوي الجسد على الكد والعمل لان هذا من صفات الحمير ولكن ان يكون للنفس غلوبا وللامور متحملا ولجاشه عند الحفاظ مرتبطا واعلم ان الصبر على ستة اقسام وهو في كل قسم منها محمود فاول اقسامه واولاها الصبر على امتثال ما امر الله تعالى به والانتهاء عما نهى الله عنه لان به تخلص الطاعة وبها يصح الدين وتؤدى الفروض ويستحق الثواب كما قال فى محكم الكتاب انما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم الصبر من الايمان بمنزلة الرأس من الجسد وليس لمن قل صبره على طاعة حظ من بر ولا نصيب من صلاح ولم ير لنفسه صبرا يكسبها ثوابا ويدفع عنها عقابا كان من سوء الاختيار بعيدا من الرشاد حقيقا بالضلال وقد قال الحسن البصري رحمه الله تعالى يامن يطلب من الدنيا ما لا يلحقه أترجو ان تلحق من الآخرة ما لاتطلبه . وقال أبو العتاهية رحمه الله تعالى

أراك امرأ ترجو من الله عفوه * وانت على ما لا يحب مقيم
تدل على التقوى وانت مقصر * فيامن يداوي الناس وهو سقيم

وهذا النوع من الصبر انما يكون لفرط الجزع وشدة الخوف فان من خاف الله عز وجل صبر على طاعته ومن جزع من عقابه وقف عند أوامره والقسم الثاني الصبر على ما تقضيه اوقاته من رزية قد اجهده الحزن عليها او حادثة قد اكده الهم بها فان الصبر عليها يعقبه الراحة منها ويكسبه المثوبة عنها فان صبر طائعا والا احتمل هما لازما وصبر كارها آثما . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال يقول الله تعالى من لم يرض بقضائي ويصبر على بلائي فليختر ربا سواي . وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه للاشعث بن قيس انك ان صبرت جرى عليك القلم

وانت مأجور وان جزعت جرى عليك القلم وانت مأزور . وقد ذكر ذلك ابو تمام في شعره فقال وقال عليّ في التعازي لاشعث * وخاف عليه بعض تلك المآثم

أتصبر للبلوى عزاء وخشية * فتؤجر او تسلو سلوّ البهائم

وقال شبيب بن شيبة للمهدي ان احق ما تصبر عليه ما لم تجد الى دفعه سبيلا وانشد

ولئن تصبك مصيبة فاصبر لها * عظمت مصيبة مبتلي لا يصبر

وقال آخر

تصبرت مغلوبا واني لموجع * كما صبر الظمآن في البلد القفر

وليس اصطباري عنك صبر استطاعة * ولكنه صبر امرء من الصبر

والقسم الثالث الصبر على مافات ادراكه من رغبة مرجوة واعوز نيله من مسرة مأمولة فان الصبر عنها يعقب السلو منها والاسف بعد اليأس خرق . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال من أُعطي فشكر ومُنِعَ فصبر وظُلِم فغفر وظَلَم فاستغفر فاؤلئك لهم الامن وهم مهتدون . وقال بعض الحكماء اجعل ماطلبته من الدنيا فلم تنله مثل مالا يخطر ببالك فلم تقله وقال بعض الشعراء

اذا ملك القضاء عليك امرا * فليس يحله غير القضاء

فمالك والمقام بدار ذل * ودار العز واسعة الفضاء

وقال بعض الحكماء ان كنت تجزع على مافات من يدك فاجزع على مالا يصل اليك فاخذه بعض الشعراء فقال

لا تطل الحزن على فائت * فقلما يجدي عليك الحزن

سيان محزون على فائت * ومضمر حزنا لما لم يكن

والقسم الرابع الصبر فيما يخشى حدوثه من رهبة يخافها او يحذر حلوله من نكبة يخشاها فلا يتعجل هم ما لم يأت فان أكثر الهموم كاذبة وان الاغلب من الخوف مدفوع . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال بالصبر يتوقع الفرج ومن يدمن قرع باب يلج . وقال الحسن البصري رحمه الله لا تحملن على يومك هم غدك فحسب كل يوم همه . وانشد الجاحظ لحارثة بن زيد

اذا الهم امسى وهو داء فأمضه * ولست بممضيه وانت تعادله

ولا تنزلن امر الشديدة بامرء * اذا هم امر اعوقته عواذله

وقل للفؤاد ان تجد بك ثروة * من الروع فافرح أكثر الهم باطله

والقسم الخامس الصبر فيما يتوقعه من رغبة يرجوها وينتظر من نعمة يأملها فانه ان ادهشه التوقع لها واذهله التطلع اليها انسدت عليه سبل المطالب واستفزه تسويل المطامع فكان أبعد لرجائه واعظم لبلائه واذا كان مع الرغبة وقورا وعند الطلب صبورا انجلت عنه عماية الدهش وانجابت عنه حيرة الوله فابصر رشده وعرف قصده . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال الصبر ضياء يعنى والله اعلم أنه يكشف ظلم الحيرة ويوضح حقائق الامور . وقال أكثم بن صيفى من صبر ظفر . وقال ابن المقفع كان مكتوبا في قصر ازدشير الصبر مفتاح الدرك . وقال بعض الحكماء بحسن التأني تسهل المطالب . وقال بعض البلغاء من صبر نال المنى ومن شكر حصّن النعمى . وقال محمد بن بشير

ان الامور اذا سدت مطالبها * فالصبر يفتق منها كل ما ارتتجا
لا تيأسنّ وان طالت مطالبة * اذا استعنت بصبر ان ترى فرجا
أخلق بذى الصبر ان يحظى بحاجته * ومدمن القرع للابواب ان يلجا

والقسم السادس الصبر على ما نزل من مكروه أو حل من أمر مخوف فبالصبر في هذا تنفتح وجوه الآراء وتستدفع مكائد الاعداء فان من قل صبره عزب رأيه واشتد جزعه فصار صريع همومه وفريسة غمومه . وقد قال الله تعالى واصبر على ما اصابك ان ذلك من عزم الامور . وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ان استطعت ان تعمل لله بالرضا في اليقين فافعل وان لم تستطع فاصبر فان في الصبر على ماتكره خيرا كثيرا واعلم ان النصر مع الصبر والفرج مع الكرب واليسر مع العسر . وقال على بن أبي طالب رضى الله عنه الصبر مستأصل الحدثان والجزع من اعوان الزمان . وقال بعض الحكماء بمفتاح عزيمة الصبر تعالج مغاليق الامور . وقال بعض البلغاء عند انسداد الفرج تبدو مطالع الفرج . وروى ابن عباس رضى الله عنهما ان سليمان بن داود عليهما السلام لما استكدّ شياطينه في البناء شكوا ذلك الى ابليس لعنه الله فقال ألستم تذهبون فرغا وترجعون مشاغيل قالوا بلى قال ففى ذلك راحة فبلغ ذلك سليمان على نبينا وعليه السلام فشغلهم ذاهبين وراجعين فشكوا ذلك الى ابليس لعنه الله فقال ألستم تستريحون بالليل قالوا بلى قال ففى هذا راحة لكم نصف دهركم فبلغ ذلك سليمان عليه السلام فشغلهم بالليل والنهار فشكوا ذلك الى ابليس لعنه الله فقال الآن جاءكم الفرج فما لبث ان أصيب سليمان عليه السلام ميتا على عصاه فاذا كان هذا فى نبي من انبياء الله يعمل بامره ويقف على حده فكيف بما جرت به الاقدار من أيد عادية وساقه القضاء من حوادث نازلة هل تكون مع التناهي الا منقرضة

وعند بلوغ الغاية الا منحسرة . وأنشد بعض الادباء لعثمان بن عفان رضي الله عنه

خليليّ لا والله ما من مملة * تدوم على حي وان هي جلت
فان نزلت يوما فلا تخضعن لها * ولا تكثر الشكوى اذا النعل زلت
فكم من كريم قد بلى بنوائب * فصابرها حتى مضت واضمحلت
وكم غمرة هاجت بامواج غمرة * تلقيتها بالصبر حتى تجلت
وكانت على الايام نفسي عزيزة * فلما رأيت صبري على الذل ذلت
فقلت لها يانفس موتي كريمة * فقد كانت الدنيا لنا ثم ولت

ولتسهيل المصائب وتخفيف الشدائد أسباب اذا قارنت حزما وصادفت عزما هان وقعها وقل تأثيرها وضررها فمنها اشعار النفس بما تعلمه من نزول الفناء وتقضي المسار وان لها آجالا منصرمة ومددا منقضية اذ ليس للدنيا حال تدوم ولا لمخلوق فيها بقاء . وروى بن مسعود رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ما مثلي ومثل الدنيا الا كمثل راكب مال الى ظل شجرة في يوم صائف ثم راح وتركها . وسئل علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن الدنيا فقال تغر وتضر وتمر . وسأل بعض خلفاء بني العباس جليسا له عن الدنيا فقال اذا أقبلت أدبرت وقال عمرو بن عبيد الدنيا أمد والآخرة أبد . وقال أنوشروان ان أحببت ان لا تغتم فلا تقتن ما به تهتم فاخذه بعض الشعراء فقال

الم تر أن الدهر من سوء فعله * يكدر ما أعطى ويسلب ما أسدى
فمن سره أن لا يرى مايسوءه * فلا يتخذ شيئا يخاف له فقدا

وانشد بعض الحكماء

لحكيمنا بقراط خير قضية * ووصية تنفي الهموم الركدا
قال الهموم تكون من طبع الورى * في لبث مافي طبعه أن ينفدا
فاذا اقتنيت من الزجاجة قابلا * للكسر فانكسرت فلا تك مكمدا

وانشدني بعض اهل العلم لسعيد بن مسلم

انما الدنيا هبات * وعوار مسترده
شدة بعد رخاء * ورخاء بعد شده

ولما قتل بزرجمهر وجد في جيب قميصه رقعة فيها مكتوب اذا لم يكن جد ففيم الكد وان لم يكن للامر دوام ففيم السرور واذا لم يرد الله دوام ملك ففيم الحيلة . وقال ابن الرومي

رأيت حياة المرء رهنا بموته * وصحته رهنا كذلك بالسقم

اذا طاب لى عيش تنغص طيبه * بصدق يقينى أن سيذهب كالحلم
ومن كان في عيش يراعى زواله * فذلك في بؤس وان كان في نعم

ومنها ان يتصور انجلاء الشدائد وانكشاف الهموم وأنها تتقدر باوقات لا تنصرم قبلها ولا تستديم بعدها فلا تقصر بجزع ولا تطول بصبر وان كل يوم يمر بها يذهب منها بشطر ويأخذ منها بنصيب حتى تنجلى وهو عنها غافل . وحكى ان الرشيد حبس رجلا ثم سأل عنه بعد زمان فقال للموكل به قل له كل يوم يمضى من نعمه يمضى من بؤسى مثله والامر قريب والحكم لله تعالى فاخذ هذا المعنى بعض الشعراء فقال

لو ان ما أنتم فيه يدوم لكم * ظننت ما أنا فيه دائما أبدا
لكننى عالم أنى وأنكم * سنستجد خلاف الحالتين غدا

وأنشدت لبعض الشعراء

عواقب مكروه الامور خيار * وايام ضر لا تدوم قصار
وليس بباق بؤسها ونعيمها * اذا كر ليل ثم كر نهار

وأنشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين حضرته الوفاة

ألم تر ان ربك ليس تحصى * اياديه الحديثة والقديمه
تسل عن الهموم فليس شئ * يقوم ولا همومك بالمقيمه
لعل الله ينظر بعد هذا * اليك بنظرة منه رحيمه

ومنها أن يعلم أن فيما وقى من الرزايا وكفى من الحوادث ماهو اعظم من رزيته وأشد من حادثته ليعلم انه ممنوح بحسن الدفاع ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم ان لله تعالى فى اثناء كل محنة منحة . وقيل للشعبي فى نائبة كيف اصبحت قال بين نعمتين خير منشور وشر مستور وقال بعض الشعراء

لا تكره المكروه عند حلوله * ان العواقب لم تزل متباينه
كم نعمة لا تستقل بشكرها * لله في طى المكاره كامنه

ومنها ان يتأسى بذوي الغير ويتسلى بأولى العبر ويعلم انهم الاكثرون عددا والاسرعون مددا فيستجد من سلوة الاسى وحسن العزا ما يخفف شجوه ويقل هلعه . وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه ألصقوا بذوى الغير تتسع قلوبكم وعلى مثل ذلك كانت مراثى الشعراء قال البحتري فلا عجب للاسد ان ظفرت بها * كلاب الاعادي من فصيح واعجمى
فخربة وحشيّ سقت حمزة الردى * وموت علىّ من حسام بن ملجم

وقال ابو نواس

المرء بين مصائب لا تنقضي * حتى يوارى جسمه في رمسه
فمؤجل يلقى الردى فى أهله * ومعجل يلقى الردى في نفسه

ومنها أن يعلم ان النعم زائرة وانها لا محالة زائلة وان السرور بها اذا أقبلت مشوب بالحذر من فراقها اذا أدبرت وانها لا تفرح باقبالها فرحا حتى تعقب بفراقها ترحا فعلى قدر السرور يكون الحزن . وقد قيل في منثور الحكم المفروح به هو المحزون عليه وقيل من بلغ غاية ما يحب فليتوقع غاية ما يكره . وقال بعض الحكماء من علم ان كل نائبة الى انقضاء حسن عزاؤه عند نزول البلاء . وقيل للحسن البصري رحمه الله كيف ترى الدنيا قال شغلنى توقع بلائها عن الفرح برخائها فأخذه أبو العتاهية فقال

تزيده الايام ان اقبلت * شدة خوف لتصاريفها
كأنها في حال اسعافها * تسمعه وقعة تخويفها

ومنها ان يعلم ان سروره مقرون بمساءة غيره وكذلك حزنه مقرون بسرور غيره اذا كانت الدنيا تنتقل من صاحب الى صاحب وتصل صاحبا بفراق صاحب فتكون سرورا لمن وصلته وحزنا لمن فارقته . وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم ما قرعت عصا على عصا الا فرح لها قوم وحزن آخرون وقال البحتري

متى أرت الدنيا نباهة خامل * فلا ترتقب الا خمول نبيه

وقال المتنبي

بذا قضت الايام ما بين اهلها * مصائب قوم عند قوم فوائد

وانشد بعض اهل الادب

ألا انما الدنيا غضارة ايكة * اذا اخضر منها جانب جف جانب
فلا تفرحن منها لشيء تفيده * سيذهب يوما مثل ما انت ذاهب
وما هذه الايام الا فجائع * وما العيش واللذات الا مصائب

ومنها ان يعلم ان طوارق الانسان من دلائل فضله ومحنه من شواهد نبله وذلك لاحدى علتين اما لان الكمال معوز والنقص لازم فاذا تواتر الفضل عليه صار النقص فيما سواه وقد قيل من زاد فى عقله نقص من رزقه . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ما انتقصت جارحة من انسان الا كانت ذكاء في عقله . وقال ابو العتاهية

ما جاوز المرء من اطرافه طرفا * الا تخوّنه النقصان من طرف

وأنشدني بعض اهل الادب لابراهيم بن هلال الكاتب

اذا جمعت بين امرئين صناعة * فاحببت أن تدرى الذي هو احذق
فلا تتفقد منهما غير ماجرت * به لهما الارزاق حين تفرق
فحيث يكون النقص فالرزق واسع * وحيث يكون الفضل فالرزق ضيق

واما لان ذا الفضل محسود وبالاذى مقصود فلايسلم في بره من معاد واشتطاط مناو · وقال الصنوبرى

محن الفتى يخبرن عن فضل الفتى * كالنار مخبرة بفضل العنبر

وقلما تكون محنة فاضل الا من جهة ناقص وبلوى عالم الا على يد جاهل وذلك لاستحكام العداوة بينهما بالمباينة وحدوث الانتقام لاجل التقدم · وقد قال الشاعر

فلا غرو ان يمنى عليم بجاهل * فمن ذنب التنين تنكسف الشمس

ومنها مايعتاضه من الارتياض بنوائب عصره ويستفيده من الحنكة ببلاء دهره فيصلب عوده ويستقيم عموده ويكمل بادنى شدته ورخائه ويتعظ بحالتي عفوه وبلائه · حكى عن ثعلب قال دخلت على عبيد الله بن سليمان بن وهب وعليه خلع الرضا بعد النكبة فلما مثلت بين يديه قال لي يا أبا العباس اسمع ما أقول

نوائب الدهر ادبتني * وانما يوعظ الاديب
قد ذقت حلوا وذقت مرا * كذاك عيش الفتى ضروب
لم يمض بؤس ولا نعيم * الا ولى فيهما نصيب
كذاك من صاحب الليالى * تغذوه من درّها الخطوب

فلقت لمن هذه الابيات قال لي ومنها أن يختبر أمور زمانه ويتنبه على صلاح شأنه فلا يغتر برخاء ولايطمع في استواء ولا يؤمل أن تبقى الدنيا على حالة اوتخلو من تقلب واستحالة فان من عرف الدنيا وخبر احوالها هان عليه بؤسها ونعيمها · وانشد بعض الادباء

اني رأيت عواقب الدنيا * فتركت ماأهوى لما اخشى
فكرت في الدنيا وعالمها * فاذا جميع أمورها تفنى
وبلوت أكثر اهلها فاذا * كل امرئ في شأنه يسعى
أسنى منازلها وأرفعها * في العز اقربها من المهوى
تعفو مساويها محاسنها * لافرق بين النعي والبشرى
ولقد مررت على القبور فما * ميزت بين العبد والمولى
أتراك تدري كم رأيت من الاحياء ثم رأيتهم موتى

فاذا ظفر المصاب بأحد هذه الاسباب تخففت عنه أحزانه وتسهلت عليه أشجانه فصار وشيك السلوة قليل الجزع حسن العزاء . وقال بعض الحكماء من حاذر لم يهلع ومن راقب لم يجزع ومن كان متوقعا لم يكن متوجعا . وقال بعض الشعراء

مايكون الامر سهلا كله * انما الدنيا سرور وحزون
هَوِّن الامر تَعِشْ في راحة * فلما هوّنت الا سَيَهُون
تطلب الراحة فى دار العنا * ضل من يطلب شيئا لايكون

فان اغفل نفسه عن دواعى السلوة ومنعها من اسباب الصبر تضاعف عليه من شدة الاسى وهم الجزع مالا يطيق عليه صبرا ولا يجد عنه سلوا . وقال ابن الرومى

ان البلاء يطاق غير مضاعف * فاذا تضاعف صار غير مطاق

فاذا ساعده جزعه بالاسباب الباعثة عليه وامده هلعه بالذرائع الداعية اليه فقد سعى في حتفه واعان على تلفه فمن اسباب ذلك تذكر المصاب حتى لايتناساه وتصوره حتى لايغرب عنه ولايجد من التذكار سلوة ولا يخلط مع التصور تعزية. وقدقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه لاتستفزز الدموع بالتذكر . وقال الشاعر * ولا يبعث الاحزان مثل التذكر *

ومنها الاسف وشدةالحسرة فلا يرى من مصابه خلفا ولا يجدلمفقوده بدلا فيزدادبالاسف ولها وبالحسرة هلعا . ولذلك قال الله تعالى لكيلا تأسوا على مافاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم . وقال بعض الشعراء

اذا بليت فثق بالله وارض به * ان الذي يكشف البلوى هو الله
اذا قضى الله فاستسلم لقدرته * ما لامرئ حيلة فيما قضى الله
اليأس يقطع احيانا بصاحبه * لاتيأسنّ فان الصانع الله

ومنها كثرة الشكوى وبث الجزع فقد قيل في قوله تعالى فاصبر صبرا جميلا انه الصبر الذي لاشكوى فيه ولا بث . روى انس بن مالك أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ماصبر من بث . وحكى كعب الاحبار انه مكتوب في التوراة من اصابته مصيبة فشكى الى الناس فانما يشكو ربه وحكى ان اعرابية دخلت من البادية فسمعت صراخا في دار فقالت ماهذا فقيل لها مات لهم انسان فقالت ماراهم الا من ربهم يستغيثون وبقضائه يتبرمون وعن ثوابه يرغبون . وقد قيل في منثور الحكم من ضاق قلبه اتسع لسانه . وانشد بعض اهل العلم

لا تكثر الشكوى الى الصديق * وارجع الى الخالق لاالمخلوق
* لا يخرج الغريق بالغريق *

وقال بعض الشعراء

لاتشكُ دهرك ما صحبت به * ان الغنى هو صحة الجسم
هبك الخليفة كنت منتفعا * بغضارة الدنيا مع السقم

ومنها اليأس من خير مصابه ودرك طلابه فيقترن بحزن الحادثة قنوط الاياس فلا يبقى معها صبر ولا يتسع لها صدر وقد قيل المصيبة بالصبر أعظم المصيبتين . وقال ابن الرومى

اصبرى ايتها النف * س فان الصبر أحجى
ربما خاب رجاء * وأتى ما ليس يرجى

وأنشدنى بعض اهل العلم

أتحسب ان البؤس للحر دائم * ولو دام شئ عده الناس في العجب
لقد عرفتك الحادثات ببؤسها * وقد أدبت ان كان ينفعك الادب
ولو طلب الانسان من صرف دهره * دوام الذى يخشى لاعياه ما طلب

ومنها ان يعزى بملاحظة من حيطت سلامته وحرست نعمته حتى التحف بالامن والدعة واستمتع بالثروة والسعة ويرى انه قد خُصَّ من بينهم بالرزية بعد ان كان مساويا وافرد بالحادثة بعد ان كان مكافيا فلا يستطيع صبرا على بلوى ولا يلزم شكرا على نعمى ولو قابل بهذه النظرة ملاحظةَ مَن شاركه في الرزية وساواه في الحادثة لتكافأ الامران فهان عليه الصبر وحان منه الفرج . وانشدت لامرأة من العرب

ايها الانسان صبرا * ان بعد العسر يسرا
كم رأينا اليوم حرًّا * لم يكن بالامس حرا
ملك الصبر فاضحى * مالكا خيرا وشرا
اشرب الصبر وان كا * ن من الصبر أمرّا

وانشدت لبعض اهل الادب

يراع الفتى للخطب تبدو صدوره * فيأسى وفى عقباه يأتي سروره
الم تر ان الليل لما تراكمت * دجاه بدا وجه الصباح ونوره
فلا تصحبن اليأس ان كنت عالما * لبيبا فان الدهر شتى اموره

واعلم انه قل من صبر على حادثة وتماسك في نكبة الا كان انكشافها وشيكا وكان الفرج منه قريبا أخبرنى بعض اهل الادب ان ابا ايوب الكاتب حبس في السجن خمس عشرة سنة حتى ضاقت حيلته وقل صبره فكتب الى بعض اخوانه يشكو له طول حبسه فرد عليه جواب رقعته بهذا

صبرا ابا ايوب صبرا مبرح * فاذا عجزت عن الخطوب فمن لها
ان الذى عقد الذى انعقدت له * عقد المكاره فيك يملك حلها
صبرا فان الصبر يعقب راحة * ولعلها ان تنجلى ولعلها

فاجابه ابو ايوب يقول

صبرتني ووعظتنى وانا لها * وستنجلى بل لا اقول لعلها
ويحلها من كان صاحب عقدها * كرما به اذ كان يملك حلها

فلم يلبث بعد ذلك في السجن الا اياما حتى اطلق مكرما . وانشد ابن دريد عن ابى حاتم

اذا اشتملت على اليأس القلوب * وضاق لما به الصدر الرحيب
واوطنت المكاره واطمأنت * وارست في مكانتها الخطوب
ولم تر لانكشاف الضر وجها * ولا اغنى بحيلته الاريب
اتاك على قنوط منك غوث * يمن به اللطيف المستجيب
وكل الحادثات اذا تناهت * فموصول بها الفرج القريب

﴿ الفصل الثالث في المشورة ﴾ اعلم ان من الحزم لكل ذى لب ان لا يبرم امرا ولا يمضى عزما الا بمشورة ذي الرأي الناصح ومطالعة ذي العقل الراجح فان الله تعالى امر بالمشورة نبيه صلى الله عليه وسلم مع ما تكفل به من ارشاده ووعد به من تأييده فقال تعالى وشاورهم في الامر . قال قتادة امره بمشاورتهم تألفا لهم وتطييبا لانفسهم . وقال الضحاك امره بمشاورتهم لما علم فيها من الفضل . وقال الحسن البصرى رحمه الله تعالى امره بمشاورتهم ليستن به المسلمون ويتبعه فيها المؤمنون وان كان عن مشورتهم غنيا . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال المشورة حصن من الندامة وامان من الملامة . وقال علي بن ابي طالب رضى الله عنه نعم الموازرة المشاورة وبئس الاستعداد الاستبداد . وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه الرجال ثلاثة رجل ترد عليه الامور فيسددها برأيه ورجل يشاور فيما أشكل عليه وينزل حيث يأمره اهل الرأى ورجل حائر بامره لا يأتمر رشدا ولا يطيع مرشدا . وقال عمر بن عبد العزيز ان المشورة والمناظرة بابا رحمة ومفتاحا بركة لا يضل معهما رأى ولا يفقد معهما حزم . وقال سيف بن ذى يزن من اعجب برأيه لم يشاور ومن استبد برأيه كان من الصواب بعيدا . وقال عبد الحميد المشاور في رأيه ناظر من ورائه . وقيل في منثور الحكم المشاورة راحة لك وتعب على غيرك . وقال بعض الحكماء الاستشارة عين الهداية وقد خاطر من استغنى برأيه . وقال بعض الادباء ما خاب من استخار ولا ندم من استشار .

وقال بعض البلغاء من حق العاقل ان يضيف الى رأيه آراء العقلاء ويجمع الى عقله عقول الحكماء فالراي الفذ ربما زل والعقل الفرد ربما ضل . وقال بشار بن برد

اذا بلغ الرأي المشورة فاستعن * برأي نصيح او نصيحة حازم
ولا تجعل الشورى عليك غضاضة * فان الخوافي قوة للقوادم

فاذا عزم على المشاورة ارتاد لها من اهلها من قد استكملت فيه خمس خصال احداهن عقل كامل مع تجربة سالفة فان بكثرة التجارب تصح الرويه . وقد روى ابو الزناد عن الاعرج عن ابى هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال استرشدوا العاقل ترشدوا ولا تعصوه فتندموا . وقال عبدالله بن الحسن لابنه محمد احذر مشورة الجاهل وان كان ناصحا كما تحذر عداوة العاقل اذا كان عدوّا فانه يوشك ان يورطك بمشورته فيسبق اليك مكر العاقل وتوريط الجاهل وقيل لرجل من عبس ما اكثر صوابكم قال نحن الف رجل وفينا حازم ونحن نطيعه فكأنا الف حازم وكان يقال اياك ومشاورة رجلين شاب معجب بنفسه قليل التجارب في غيره او كبير قد اخذ الدهر من عقله كما اخذ من جسمه . وقيل في منثور الحكم كل شئ يحتاج الى العقل والعقل يحتاج الى التجارب ولذلك قيل الايام تهتك لك عن الاستار الكامنة . وقال بعض الحكماء التجارب ليس لها غاية والعاقل منها في زيادة . وقال بعض الحكماء من استعان بذوي العقول فاز بدرك المأمول . وقال ابو الاسود الدؤلى

وما كل ذى لب بمؤتيك نصحه * ولا كل مؤت نصحه بلبيب
ولكن اذا ما استجمعا عند صاحب * فحُقَّ له من طاعة بنصيب

والخصلة الثانية ان يكون ذا دين وتقى فان ذلك عماد كل صلاح وباب كل نجاح ومن غلب عليه الدين فهو مأمون السريرة موفق العزيمة . روى عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من اراد امرا فشاور فيه امرأ مسلما وفقه الله لارشد اموره . والخصلة الثالثة ان يكون ناصحا ودودا فان النصح والمودة يصدقان الفكرة ويمحضان الراي . وقد قال بعض الحكماء لا تشاور الا الحازم غير الحسود واللبيب غير الحقود واياك ومشاورة النساء فان رايهن الى الافن وعزمهنّ الى الوهن . وقال بعض الادباء مشورة المشفق الحازم ظفر ومشورة غير الحازم خطر . وقال بعض الشعراء

اصف ضميرا لمن تعاشره * واسكن الى ناصح تشاوره
وارض من المرء في مودته * بما يؤدى اليك ظاهره
من يكشف الناس لا يجد احدا * تنصح منهم له سرائره

أوشك ان لا يدوم وصل أخ * في كل زلاته تنافره

والخصلة الرابعة أن يكون سليم الفكر من هم قاطع وغم شاغل فان من عارضت فكره شوائب الهموم لا يسلم له رأي ولا يستقيم له خاطر . وقدقيل في منشور الحكم كل شئ يحتاج الى العقل والعقل يحتاج الى التجارب وكان كسرى اذا دهمه امر بعث الى مرازبته فاستشارهم فان قصروا في الرأي ضرب قهارمته وقال ابطأتم بارزاقهم فأخطوا فى آرائهم. وقال صالح بن عبد القدوس

ولا مشير كذى نصح ومقدرة * في مشكل الامر فاختر ذاك منتصحا

والخصلة الخامسة ان لا يكون له في الامر المستشار غرض يتابعه ولا هوى يساعده فان الاغراض جاذبة والهوى صادّ والراي اذا عارضه الهوى وجاذبته الاغراض فسد . وقد قال الفضل بن العباس بن عتبة بن ابي لهب

وقد يحكم الايام من كان جاهلا * ويردى الهوى ذا الراي وهو لبيب

ويحمد فى الامر الفتى وهو مخطئ * ويعذل في الاحسان وهو مصيب

فاذا استكملت هذه الخصال الخمس في رجل كان أهل للمشورة ومعدنا للرأى فلا تعدل عن استشارته اعتمادا على ما تتوهمه من فضل رأيك وثقة بما تستشعره من صحة رويتك فان رأى غير ذى الحاجة أسلم وهو من الصواب اقرب لخلوص الفكر وخلو الخاطر مع عدم الهوى وارتفاع الشهوة . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال رأس العقل بعد الايمان بالله التودد الى الناس وما استغنى مستبد برأيه وما هلك احد عن مشورة فاذا اراد الله بعبد هلكة كان اول ما يهلكه رأيه . وقال على بن ابى طالب رضى الله عنه الاستشارة عين الهداية وقد خاطر من استغنى برأيه. وقال لقمان الحكيم لابنه شاور من جرب الامور فانه يعطيك من رايه ما قام عليه بالغلاء وانت تأخذه مجانا . وقال بعض الحكماء نصف رأيك مع اخيك فشاوره ليكمل لك الرأي . وقال بعض الادباء من استغنى برأيه ضل ومن اكتفى بعقله زل . وقال بعض البلغاء الخطأ مع الاسترشاد احمد من الصواب مع الاستبداد . وقال الشاعر

خليلىّ ليس الرأي في صدر واحد * اشيرا علىّ بالذي تريان

ولا ينبغي ان يتصور فى نفسه انه ان شاور في امره ظهر للناس ضعف رأيه وفساد رويته حتى افتقر الى رأي غيره فان هذه معاذير النوكى وليس يراد الرأي للمباهاة به وانما يراد للانتفاع بنتيجته والتحرز من الخطأ عند زلله وكيف يكون عارا ما ادّى الى صواب وصدّ عن خطأ . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال لقحوا عقولكم بالمذاكرة واستعينوا

على اموركم بالمشاورة . وقال بعض الحكماء من كمال عقلك استظهارك على عقلك . وقال بعض البلغاء اذا اشكلت عليك الامور وتغير لك الجمهور فارجع الى راى العقلاء وافزع الى استشارة العلماء ولا تأنف من الاسترشاد ولا تستنكف من الاستمداد فلأن تسأل وتسلم خير لك من ان تستبد وتندم وينبغى ان تكثر من استشارة ذوى الالباب لا سيما فى الامر الجليل فقلما يضل عن الجماعة رأى او يذهب عنهم صواب لارسال الخواطر الثاقبة واجالة الافكار الصادقة فلا يعزب عنها ممكن ولا يخفى عليها جائز . وقد قيل في منثور الحكم من اكثر المشورة لم يعدم عند الصواب مادحا وعند الخطأ عاذرا وان كان الخطأ من الجماعة بعيدا فاذا استشار الجماعة فقد اختلف اهل الرأى فى اجتماعهم عليه وانفراد كل واحد منهم به فمذهب الفرس ان الاولى اجتماعهم على الارتياء واجالة الفكر ليذكر كل واحد منهم ما قدحه خاطره واتجه فكره حتى اذا كان فيه قدح عورض او توجه عليه ردّ نوقض كالجدل الذي تكون فيه المناظرة وتقع فيه المنازعة والمشاجرة فانه لا يبقى فيه مع اجتماع القرائح عليه خلل الا ظهر ولا زلل الا بان وذهب غيرهم من اصناف الامم الى ان الاولى استسرار كل واحد بالمشورة ليجيل كل واحد منهم فكره فى الرأى طمعاً في الحظوة بالصواب فان القرائح اذا انفردت استكدها الفكر واستفرغها الاجتهاد واذا اجتمعت فوّضت وكان الاول من بدائها متبوعا ولكل واحد من المذهبين وجه ووجه الثاني اظهر والذى أراه في الاولى غير هذين المذهبين على الاطلاق ولكن ينظر في الشورى فان كانت في حال واحدة هل هي صواب ام خطأ كان اجتماعهم عليها اولى لان ما تردد بين امرين فالمراد منه الاعتراض على فساده او ظهور الحجة في صلاحه وهذا مع الاجتماع ابلغ وعند المناظرة اوضح وان كانت الشورى في خطب قد استبهم صوابه واستعجم جوابه من امور خافية واحوال غامضة لم يحصرها عدد ولم يجمعها تقسيم ولا عرف لها جواب يكشف عن خطئه وصوابه فالاولي في مثله انفراد كل واحد بفكره وخلوه بخاطره ليجتهد في الجواب ثم يقع الكشف عنه اخطأهو ام صواب فيكون الاجتهاد فى الجواب منفردا والكشف عن الصواب مجتمعا لان الانفراد في الاجتهاد اصح والاجتماع على المناظرة ابلغ فهكذا هذا وينبغى ان يسلم اهل الشورى من حسد او تنافس فيمنعهم من تسليم الصواب لصاحبه ثم يعرض المستشير ذلك على نفسه مع مشاركتهم فى الارتياء والاجتهاد فاذا تصفح اقاويل جميعهم كشف عن اصولها واسبابها وبحث عن نتائجها وعواقبها حتى لا يكون فى الامر مقلدا ولا فى الرأى مفوّضا فانه يستفيد بذلك مع ارتياضه بالاجتهاد ثلاث خصال احداهن معرفة عقله وصحة رويته والثانية معرفة عقل

صاحبه وصواب رأيه والثالثة وضوح ما استعجم من الرأي وافتتاح ما أغلق من الصواب فاذا تقرر له الرأى أمضاه فلم يؤاخذهم بعواقب الاكداء فيه فانما على الناصح الاجتهاد وليس عليه ضمان النجح لا سيما والمقادير غالبة ومتى عرف منه تعقب المشير وكل الى رأيه واسلم الى نفسه فصار فردا لا يعان برأى ولا يمد بمشورة وقد قالت الفرس في حكمها أضعف الحيلة خير من أقوى الشدة واقل التأنى خير من اكثر العجلة والدولة رسول القضاء المبرم واذا استبدّ الملك برأيه عميت عليه المراشد واذا ظفر برأى من خامل لا يراه للرأى اهلا ولا للمشورة مستوجبا اغتنمه عفوا فان الرأى كالضالة تؤخذ اين وجدت ولا يهون لمهانة صاحبه فيطرح فان الدرة لا يضعها مهانة غائصها والضالة لا تترك لذلة واجدها وليس يراد الرأى لمكان المشير به فيراعى قدره وانما يراد لانتفاع المستشير وأنشد ابو العيناء عن الاصمعى

النصح ارخص ما باع الرجال فلا * تردد على ناصح نصحا ولا تلم
ان النصائح لا تخفى مناهجها * على الرجال ذوى الالباب والفهم

ثم لا وجه لمن تقرر له رأى ان ينى في امضائه فان الزمان غادر والفرص منتهزة والثقة عجز وقيل لملك زال عنه ملكه ما الذى سلبك ملكك قال تأخيرى عمل اليوم لغد. وقال الشاعر

اذا كنت ذا رأى فكن ذا عزيمة * ولاتك بالترداد للرأى مفسدا
فانى رأيت الريب في العزم مجنة * وانفاذ ذي الرأى العزيمة أرشدا

وينبغى لمن انزل منزلة المستشار واحل محل الناصح المواد حتى صار مأمول النجح مرجو الصواب ان يؤدى حق هذه النعمة باخلاص السريرة ويكافئ على الاستسلام ببذل النصح فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ان من حق المسلم على المسلم اذا استنصحه ان ينصحه وربما ابطرته المشاوره فاعجب برأيه فاحذره فى المشاورة فليس للمعجب رأى صحيح ولا روية سليمة وربما شح في الرأي لعداوة او حسد فورّى او مكر فاحذر العدوّ ولا تثق بحسود ولا عذر لمن استشاره عدو او صديق ان يكتم رأيا وقد استرشد ولا ان يخون وقد ائتمن. روى محمد بن المنكدر عن عائشة رضى الله عنها ان النبى صلى الله عليه وسلم قال المستشير والمستشار مؤتمن . وقال سليمان بن دريد

وأجب اخاك اذا استشارك ناصحا * وعلى اخيك نصيحة لا تردد

ولا ينبغى ان يشير قبل ان يستشار الا فيما مس ولا ان يتبرع بالرأى الا فيما لزم فانه لا ينفك من ان يكون رأيا متهما او مطرحا وفي اى هذين كان وصمة وانما يكون الرأى مقبولا اذا كان عن رغبة وطلب او كان لباعث وسبب . روي ابو بلال العجلى عن حذيفة بن اليمان

عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال قال لقمان لابنه يابني اذا استشهدت فاشهد واذا استعنت فاعن واذا استشرت فلا تعجل حتى تنظر · وقال بيهس الكلابي

من الناس من ان يستشرك فتجتهد * له الرأي يستغششك ما لا تبايعه
فلا تمتحن للرأي من ليس اهله * فلا أنت محمود ولا الرأى نافعه

﴿ الفصل الرابع في كتمان السر ﴾ اعلم أن كتمان الاسرار من اقوى اسباب النجاح وادوم لاحوال الصلاح · روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال استعينوا على الحاجات بالكتمان فان كل ذي نعمة محسود · وقال علي بن ابي طالب كرم الله وجهه سرك اسيرك فان تكلمت به صرت اسيره · وقال بعض الحكماء لابنه يا بني كن جوادا بالمال فى موضع الحق ضنينا بالاسرار عن جميع الخلق فان احمد جود المرء الانفاق في وجه البر والبخل بمكتوم السر · وقال بعض الادباء من كتم سره كان الخيار اليه ومن افشاه كان الخيار عليه · وقال بعض البلغاء مااسرك ما كتمت سرك · وقال بعض الفصحاء مالم تغيبه الاضالع فهو مكشوف ضائع · وقال بعض الشعراء وهو أنس بن أسيد

ولا تفش سرك الا اليك * فان لكل نصيح نصيحا
فاني رأيت وشاة الرجا * ل لايتركون اديما صحيحا

وكم من اظهار سر اراق دم صاحبه ومنع من نيل مطالبه ولو كتمه كان من سطوته آمنا وفي عواقبه سالما ولنجاح حوائجه راجيا · وقال انو شروان من حصن سره فله بتحصينه خصلتان الظفر بحاجته والسلامة من السطوات واظهار الرجل سر غيره أقبح من اظهاره سر نفسه لانه يبوء باحدى وصمتين الخيانة ان كان مؤتمنا أو النميمة ان كان مستودعا فاما الضرر فربما استويا فيه او تفاضلا وكلاهما مذموم وهو فيهما ملوم وفي الاسترسال بابداء السر دلائل على ثلاثة احوال مذمومة احدها ضيق الصدر وقلة الصبر حتى انه لم يتسع لسر ولم يقدر على صبر · وقال الشاعر

اذا المرء افشى سره بلسانه * ولام عليه غيره فهو احمق
اذاضاق صدرالمرء عن سر نفسه * فصدر الذي يستودع السر اضيق

والثانية الغفلة عن تحذر العقلاء والسهو عن يقظة الاذكياء · وقد قال بعض الحكماء انفرد بسرك ولا تودعه حازما فيزل ولا جاهلا فيخون والثالثة ماارتكبه من الغرر واستعمله من الخطر · وقد قال بعض الحكماء سرك من دمك فاذا تكلمت به فقد ارقته واعلم ان من الاسرار مالا يستغني فيه عن مطالعة صديق مساهم واستشارة ناصح مسالم فليختر العاقل لسره أمنيا

ان لم يجد الى كتمه سبيلا وليتحر في اختيار من يأتمنه عليه ويستودعه اياه فليس كل من كان على الاموال امينا كان على الاسرار مؤتمنا والعفة عن الاموال ايسر من العفة عن اذاعة الاسرار لان الانسان قد يذيع سر نفسه بمبادرة لسانه وسقط كلامه ويشح باليسير من ماله حفظا له وضنا به ولا يرى مااضاع من سره كبيرا في جنب ماحفظه من يسير ماله مع عظم الضرر الداخل عليه فمن اجل ذلك كان امناء الاسرار اشد تعذرا واقل وجودا من امناء الاموال وكان حفظ المال ايسر من كتم الاسرار لان احراز الاموال منيعة واحراز الاسرار بارزة يذيعها لسان ناطق ويشيعها كلام سابق . وقال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه القلوب اوعية الاسرار والشفاه اقفالها والألسن مفاتيحها فليحفظ كل امرئ مفتاح سره ومن صفات امين السر ان يكون ذا عقل صادّ ودين حاجز ونصح مبذول وود موفور وكتوما بالطبع فان هذه الامور تمنع من الاذاعة وتوجب حفظ الامانة فمن كملت فيه فهو عنقاء مغرب . وقيل في منثور الحكم قلوب العقلاء حصون الاسرار وليحذر صاحب السر ان يودع سره من يتطلع اليه ويؤثر الوقوف عليه فان طالب الوديعة خائن . وقيل في منثور الحكم لاتنكح خاطب سرك . وقال صالح بن عبد القدوس

لاتذع سرا الى طالبه * منك فالطالب للسر مذيع

وليحذر كثرة المستودعين لسره فان كثرتهم سبب الاذاعة وطريق الى الاشاعة لامرين احدهما ان اجتماع هذه الشروط في العدد الكثير معوز ولا بد اذا كثروا من ان يكون فيهم من اخل ببعضها والثاني ان كل واحد منهم يجد سبيلا الى نفي الاذاعة عن نفسه واحالة ذلك على غيره فلا يضاف اليه ذنب ولا يتوجه عليه عتب . وقد قال بعض الحكماء كلما كثرت خزان الاسرار ازدادت ضياعا . وقال بعض الشعراء

وسرك ماكان عند امرئ * وسر الثلاثة غير الخفي

وقال آخر

فلا تنطق بسرك كل سر * اذا ماجاوز الاثنين فاشي

ثم من اذاعتهم لم يسلم من ادلالهم واستطالتهم فان لمن ظفر بسر من فرط الادلال وكثرة الاستطالة ما ان لم يحجزه عنه عقل ولم يكفه عنه فضل كان اشد من ذل الرق وخضوع العبد . وقد قال بعض الحكماء من افشى سره كثر عليه المتأمرون فاذا اختار وارجو ان يوفق للاختيار واضطر الى استيداع سره وليته كفى الاضطرار وجب على المستودع له اداء الامانة فيه بالتحفظ والتناسي له حتى لايخطر له ببال ولايدور له في خلد ثم يرى ذلك حرمة يرعاها

ولايدل ادلال اللئام . وحكى ان رجلا اسرّ الى صديق له حديثا ثم قال أفهمت قال بل جهلت قال أحفظت قال بل نسيت . وقيل رجل كيف كتمانك للسر قال اجحد الخبر واحلف للمستخبر . وقال بعض الشعراء

ولو قدرت على نسيان ما اشتملت * من الضلوع على الاسرار والخبر
لكنت اول من ينسى سرائره * اذ كنت من شرها يوما على خطر

وحكى ان عبد الله بن طاهر تذاكر الناس في مجلسه حفظ السر فقال ابنه

ومستودعي سرا تضمنت سره * فاودعته من مستقر الحشى قبرا
ولكننى أخفيه عني كانني * من الدهر يوما ما احطت به خبرا
وما السر في قلبي كميت بحفرة * لانى اري المدفون ينتظر النشرا

﴿ الفصل الخامس فى المزاح والضحك ﴾ اعلم ان للمزاح ازاحة عن الحقوق ومخرجا الى القطيعة والعقوق يصِم المازح ويؤذي الممازح فوصمة المازح ان يذهب عنه الهيبة والبهاء ويجرئ عليه الغوغاء والسفهاء واما اذية الممازح فلانه معقوق بقول كريه وفعل ممض ان أمسك عنه احزن قلبه وان قابل عليه جانب ادبه فحق على العاقل ان يتقيه وينزه نفسه عن وصمة مساويه . وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال المزاح استدراج من الشيطان واختداع من الهوى . وقال عمر بن عبد العزيز اتقوا المزاح فانه حمقة تورث ضغينة . وقال بعض الحكماء انما المزاح سباب الا ان صاحبه يضحك وقيل انما سمى المزاح مزاحا لانه يزيح عن الحق . وقال ابراهيم النخعى المزاح من سخف او بطر . وقيل في منثور الحكم المزاح يأكل الهيبة كما تأكل النار الحطب . وقال بعض الحكماء من كثر مزاحه زالت هيبته ومن كثر خلافه طابت غيبته . وقال بعض البلغاء من قل عقله كثر هزله . وذكر خالد بن صفوان المزاح فقال يصك احدكم صاحبه باشد من الجندل وينشقه أحرق من الخردل ويفرغ عليه أحر من المرجل ثم يقول انما كنت امازحك . وقال بعض الحكماء خير المزاح لا ينال وشره لا يقال فنظمه السابورى في قصيدته الجامعة للآداب فقال وزاد

شر مزاح المرء لا يقال * وخيره يا صاح لا ينال
وقد يقال كثرة المزاح * من الفتي تدعو الى التلاحى
ان المزاح بدؤه حلاوه * لكنما آخره عداوه
يحتدّ منه الرجل الشريف * ويجترى بسخفه السخيف

وقال ابو نواس

خل جنبيك لرام * وامض عنه بسلام
مت بداء الصمت خير * لك من داء الكلام
انما السالم من ألجم فاه بلجام
ربما استفتح بالمز * ح مغاليق الحمام
والمنايا آكلات * شاربات للانام

واعلم انه قلما يعرى من المزاح من كان سهلا فالعاقل يتوخى بمزاحه احدى حالتين لاثالث لهما احداهما ايناس المصاحبين والتودد الى المخالطين وهذا يكون بما انس من جميل القول وبسط من مستحسن الفعل وقد قال سعيد بن العاص لابنه اقتصد في مزاحك فان الافراط فيه يذهب البهاء ويجرئ عليك السفهاء وان التقصير فيه يفض عنك المؤانسين ويوحش منك المصاحبين والحالة الثانية ان ينفى بالمزاح ما طرأ عليه من سأم واحدث به من هم فقد قيل لا بد للصدور ان ينفث . وانشدت لابى الفتح البستى

افد طبعك المكدود بالجد راحة * يجمّ وعلّله بشئ من المزح
ولكن اذا اعطيته المزح فليكن * بمقدار ما يعطى الطعام من الملح

وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يمزح على هذا الوجه روى عنه صلى الله عليه وسلم انه قال انى لامزح ولا اقول الا حقا فمن مزاحه صلى الله عليه وسلم ما روى ان عجوزا من الانصار اتته فقالت يا رسول الله ادعُ لى بالمغفرة فقال اما علمت ان الجنة لا يدخلها العجائز فصرخت فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال اما قرأت قول الله عز وجل انا انشأناهنّ انشاء فجعلناهنّ ابكارا عربا اترابا وأتته اخرى في حاجة لزوجها فقال لها ومن زوجك فقالت فلان فقال لها الذي فى عينه بياض فقالت لا فقال بلى فانصرفت عجلى الى زوجها وجعلت تتأمل عينيه فقال لها ما شأنك فقالت اخبرني رسول الله صلى الله عليه وسلم ان فى عينيك بياضا فقال اما ترين بياض عيني اكثر من سوادها . واتى رجل على بن ابي طالب رضي الله عنه فقال انى احتلمت على امي فقال اقيموه في الشمس واضربوا ظله الحد . وسئل الشعبى عن اكل لحم الشيطان فقال نحن نرضى منه بالكفاف وقيل له ما اسم امرأة ابليس لعنه الله فقال ذلك نكاح ما شهدناه وقال رجل لغلام بكم تعمل معى قال بطعامى فقال له احسن قليلا قال فاصوم الاثنين والخميس . وحكى عن ابي صالح بن حسان وكان محدّثا انه قال يوما لاصحابه افقه الناس وضاح اليمن في قوله

اذا قلت هاتي نوليني تبرمت * وقالت معاذ الله من فعل ماحرم
فما نولت حتى تضرعت عندها * وانبأتها ما رخص الله في اللمم

فاما الخروج الى حد الخلاعة فمجنة ومذمة كالذى حكى عن ابى معاوية الضرير وكان محدثا انه خرج يوما الى اصحابه وهو يقول

واذا المعدة جاشت * فارمها بالمنجنيق
بثلاث من نبيذ * ليس بالحلو الرقيق

اما ترى كيف طرق بخلاعته التهمة على نفسه بهذا المزح فيما لعله برىء منه وبعيد عنه . وقد كان ابو هريرة رضى الله عنه مسترسلا في مزاحه . روى ابن قتيبة فى المعارف ان مروان ربما كان يستخلفه على المدينة فيركب حمارا قد شد عليه بردعة فيسير فيلقى الرجل فيقول الطريق قد جاء الامير وربما اتى الصبيان وهم يلعبون لعبة الاعراب فلا يشعرون حتى يلقى نفسه بينهم ويضرب برجله فيفزع الصبيان فينفرون وهذا خروج عن القدر المستسمح به ويوشك ان يكون لهذا الفعل منه تأويل سائغ . وقد كان صهيب بن سنان مزاحا فقال له النبي صلى الله عليه وسلم أتأكل تمرا وبك رمد فقال يارسول الله انما امضغ على الناحية الاخرى وانما استجاز صهيب ان يعرض لرسول الله صلى الله عليه وسلم بالمزح في جوابه لان استخباره صلى الله عليه وسلم قد كان يتضمن المزح فاجابه عن استخباره بما يوافقه مساعدة لغرضه وتقربا من قلبه والا فليس لاحد ان يجعل جواب رسول الله صلى الله عليه وسلم مزحا لان المزح هزل ومن جعل جواب رسول الله صلى الله عليه وسلم المبين عن الله عزوجل احكامه المؤدي الى خلقه أوامره هزلا ومزحا فقد عصى الله ورسوله وصهيب كان اطوع لله سبحانه وتعالى من ان يكون بهذه المنزلة فقد قال صلى الله عليه وسلم انا سابق العرب وصهيب سابق الروم وسلمان سابق الفرس وبلال سابق الحبش ومن مستحسن المزح ومستسمح الدعابة ماحكى الزبير ابن بكار عن الكندي ان القشيري وقف على شيخ من الاعراب فقال ياعرابي ممن انت فقال من عقيل قال من اي عقيل قال من بنى خفاجه فقال القشيري (رأيت شيخا من بنى خفاجة) فقال الاعرابي ماشأنه قال (له اذا جن الظلام حاجة) فقال الاعرابي ماهى قال (كحاجة الديك الى الدجاجة) فاستعبر الاعرابي ضاحكا وقال قاتلك الله ماعرافك بسرائر القوم فانظر كيف بلغ بهذا المزح غايته ولسانه نزه وعرضه مصون وهذا غاية مايتسامح به الفضلاء من الخلاعة وان كان مستكره الفحوى والنزاهة عن مثله اولى وليحذر ان يسترسل في ممازحة عدو فيجعل له طريقا الى اعلان المساوي وهو مجد ويفسح له في التشفى مزحا وهو محق .

وقد قال بعض الحكماء اذا مازحت عدوك ظهرت له عيوبك واما الضحك فان اعتياده شاغل عن النظر فى الامور المهمة مذهل عن الفكر في النوائب الملمة وليس لمن أكثر منه هيبة ولا وقار ولا لمن وصم بهخطر ولامقدار ٠ روى ابوادريس الخولانى عن ابي ذر الغفارى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اياك وكثرة الضحك فانه يميت القلب ويذهب بنور الوجه ٠ وروى عن ابن عباس في قوله تعالى مالهذا الكتاب لايغادر صغيرة ولا كبيرة الا احصاها ان الصغيرة الضحك وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه من كثر ضحكه قلت هيبته ٠ وقال على بن ابي طالب كرم الله وجهه اذا ضحك العالم ضحكة مج من العلم مجة ٠ وقيل في منثور الحكم ضحكة المؤمن غفلة من قلبه والقول في الضحك كالقول في المزاح ان تجافاه الانسان نفر عنه وأوحش منه وان ألفه كانت حاله ماوصفنا فليكن بدل الضحك عند الاياس تبسما ٠ وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه التبسم دعابة وهذا أبلغ فى الاياس من الضحك الذي هو قد يكون استهزاء وتعجبا وليس ينكر منه المرة النادرة لطارئ استغفل النفس عن دفعه هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أملك الخلق لنفسه قد تبسم حتى بدت نواجذه وانما كان ذلك منه صلى الله عليه وسلم على الوجه الذي ذكرناه

﴿ الفصل السادس في الطيرة والفال ﴾ اعلم أنه ليس شيء اضر بالرأى ولا افسد للتدبير من اعتقاد الطيرة ومن ظن أن خوار بقرة اونعيب غراب يرد قضاء او يدفع مقدورا فقد جهل ٠ وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لاعدوى ولا طيرة ولاهامة ولا صَفَر فالعدوى مايظنه الناس من تعدى العلل والامراض فاخبر أنها لاتعدي فقيل يارسول الله انا نرى النقطة من الجرب فى مشفر البعير فتتعدى الى جميعه فقال صلى الله عليه وسلم فما اعدى الاول وأما الهامة فهو ماكانت العرب في الجاهلية تعتقده من ان القتيل اذا طُلَّ دمه فلم يدرك بثاره صاحت هامته في القبر اسقونى ٠ قال الزبرقان بن بدر يعنيها

ياعمرو ان لاتدع شتمى ومنقصتى * أضربك حتى تقول الهامة اسقوني

وقال ابراهيم بن هرمة

وكيف وقد صاروا عظاما وأقبرا * يصيح صداها بالعشيّ وهامها
تفانوا ولم يبقوا وكل قبيلة * سريع الى ورد الفناء كرامها

وأما الصفر فهو كالحية يكون فى الجوف يصيب الماشية والناس وهو اعدى عندهم من الجرب وفيه يقول الشاعر

لايمسك الساق من أين ولا تعب * ولا يعض على شرسوفه الصفر

وروى ابوهريرة رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اذا ظننتم فلا تحققوا واذا حسدتم فلا تبغوا واذا تطيرتم فامضوا وعلى الله فتوكلوا . وقال الشاعر

طيرة الناس لا ترد قضاء * فاعذر الدهر لا تشبه بلوم
اي يوم تخصه بسعود * والمنايا ينزلن في كل يوم
ليس يوم الا وفيه سعود * ونحوس تجرى لقوم وقوم

وقد كانت الفرس اكثر الناس طيرة وكانت العرب اذا ارادت سفرا نفرت اول طائر تلقاه فان طار يمنة سارت وتيمنت واذا طار يسرة رجعت وتشاءمت فنهى النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك وقال اقروا الطير على وكناتها . وحكى عِكْرِمة قال كنا جلوسا عند ابن عباس رضى الله عنهما فمر طائر يصيح فقال رجل من القوم خير فقال ابن عباس لا خير ولا شر . وقال لبيد

لعمرك ما تدرى الضوارب بالحصى * ولا زاجرات الطير ما الله صانع

واعلم انه قلما يخلو من الطيرة احد لا سيما من عارضته المقادير فى ارادته وصده القضاء عن طلبته فهو يرجو والياس عليه أغلب ويأمل والخوف اليه اقرب فاذا عاقه القضاء وخانه الرجاء جعل الطيرة عذر خيبته وغفل عن قضاء الله عز وجل ومشيئته فاذا تطير احجم عن الاقدام ويئس من الظفر وظن ان القياس فيه مطرد وان العبرة فيه مستمرة ثم يصير ذلك له عادة فلا ينجح له سعى ولا يتم له قصد فاما من ساعدته المقادير ووافقه القضاء فهو قليل الطيرة لاقدامه ثقة باقباله وتعويلا على سعادته فلا يصدّه خوف ولا يكفه حزن ولا يؤب الاظافرا ولا يعود الا منجحا لان الغنم بالاقدام والخيبة مع الاحجام فصارت الطيرة من سمات الادبار واطراحها من امارات الاقبال فينبغى لمن منى بها وبلى ان يصرف عن نفسه وساوس النوكى ودواعى الخيبة وذرائع الحرمان ولا يجعل للشيطان سلطانا في نقض عزائمه ومعارضة خالقه ويعلم ان قضاء الله تعالى عليه غالب وان رزقه له طالب الا ان الحركة سبب فلا يثنيه عنها ما لا يضر مخلوقا ولا يدفع مقدورا وليمض فى عزائمه واثقا بالله تعالى ان اعطى وراضيا به ان منع فقد روى ابو هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان في الانسان ثلاثة الطيرة والظن والحسد فمخرجه من الطيرة ان لا يرجع ومخرجه من الظن ان لا يحقق ومخرجه من الحسد ان لا يبغى . وروى عنه صلى ان عليه وسلم انه قال كفارة الطير التوكل على الله تعالى . وقيل فى منثور الحكم الخير في ترك الطيرة وليقل ان عارضه في الطيرة ريب او خامره فيها وهم ما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال من تطير فليقل اللهم لا يأتى بالخيرات الا أنت ولا يدفع السيئات الا انت ولا حول ولا قوة الا بالله . وقد روى ان رجلا جاء الى النبي صلى الله

عليه وسلم فقال يا رسول الله انا نزلنا دارا فكثر فيها عددنا وكثرت فيها اموالنا ثم تحولنا عنها الى اخرى فقلت فيها اموالنا وقل فيها عددنا فقال النبي صلى الله عليه وسلم ذروها فهى ذميمة وليس هذا القول منه صلى الله عليه وسلم على وجه الطيرة ولكن على طريق التبرك بما فارق وترك ما استوحش منه الى ما أنس به واما الفال ففيه تقوية للعزم وباعث على الجد ومعونة على الظفر فقد تفاءل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزواته وحروبه. وروى ابو هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع كلمة فاعجبته فقال أخذنا فألك من فيك فينبغى لمن تفاءل ان يتأول الفأل باحسن تأويلاته ولا يجعل لسوء الظن على نفسه سبيلا فقد قال النبى صلى الله عليه وسلم ان البلاء موكل بالمنطق . روى ان يوسف عليه السلام شكا الى الله تعالى طول الحبس فأوحى الله تعالى اليه يا يوسف انت حبست نفسك حيث قلت رب السجن أحب الىّ ولو قلت العافية أحب الىّ لعوفيت . وحكى ان المؤمل بن اميل الشاعر لما قال يوم الحرة

شف المؤمل يوم الحرة النظر * ليت المؤمل لم يخلق له بصر

عمى فأتاه آت فى منامه فقال له هذا ما طلبت. وحكى ان الوليد بن يزيد بن عبد الملك تفاءل يوما في المصحف فخرج له قوله تعالى واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد فمزق المصحف وانشأ يقول

أتوعِد كل جبار عنيد * فها انا ذاك جبار عنيد

اذاما جئت ربك يوم حشر * فقل يا رب مزقنى الوليد

فلم يلبث الا اياما حتى قتل شر قتلة وصلب رأسه على قصره ثم على سور بلده فنعوذ بالله من البغي ومصارعه والشيطان ومكائده وهو حسبنا وعليه توكلنا

﴿ الفصل السابع في المروءة ﴾ اعلم ان من شواهد الفضل ودلائل الكرم المروءة التى هى حلية النفوس وزينة الهمم فالمروءة مراعاة الاحوال التى تكون على افضلها حتى لا يظهر منها قبيح عن قصد ولا يتوجه اليها ذم باستحقاق . روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال من عامل الناس فلم يظلمهم وحدثهم فلم يكذبهم ووعدهم فلم يخلفهم فهو ممن كملت مروءته وظهرت عدالته ووجبت اخوّته . وقال بعض البلغاء من شرائط المروءة ان يتعفف عن الحرام ويتصلف عن الآثام وينصف في الحكم ويكف عن الظلم ولا يطمع فيما لا يستحق ولا يستطيل على من لا يسترق ولا يعين قويا على ضعيف ولا يؤثر دنيا على شريف ولا يسر ما يعقبه الوزر والاثم ولا يفعل ما يقبح الذكر والاسم. وسئل بعض الحكماء عن الفرق بين العقل والمروءة فقال العقل يأمرك بالانفع والمروءة تأمرك بالاجمل ولن تجد الاخلاق على ما وصفنا من حد المروءة منطبعة ولا عن المراعاة مستغنية وانما المراعاة هى المروءة

لاما انطبعت عليه من فضائل الاخلاق لان غرور الهوى ونازع الشهوة يصرفان النفس أن تركب الافضل من خلائقها والاجمل من طرائقها وان سلمت منها وبعيد ان تسلم الا لمن استكمل شرف الاخلاق طبعا واستغنى عن تهذيبها تكلفا وتطبعا . وقال الشاعر

من لك بالمحض وليس محض * يخبث بعض ويطيب بعض

ثم لو استكمل الفضل طبعا وفى المعوز ان يكون مستكملا لكان في المستحسن من عادات دهره والموضوع من اصطلاح عصره من حقوق المروءة وشروطها ما لا يتوصل اليه الا بالمعاناة ولا يوقف عليه الا بالتفقد والمراعاة فثبت أن مراعاة النفس على افضل أحوالها هى المروءة واذا كانت كذلك فليس ينقاد لها مع ثقل كلفها الا من تسهلت عليه المشاق رغبة في الحمد وهانت عليه الملاذ حذرا من الذم ولذلك قيل سيد القوم أشقاهم . وقال ابو تمام الطائي

والحمد شهد لا يرى مشتاره * يجنيه الا من نقيع الحنظل

غل لحامله ويحسبه الذي * لم يوه عاتقه خفيف المحمل

وقد لحظ المتنبي ذلك في قوله

لولا المشقة ساد الناس كلهم * الجود يفقِر والاقدام قتال

وله أيضا

واذا كانت النفوس كبارا * تعبت فى مرادها الاجسام

والداعي الى استسهال ذلك شيئان أحدهما علو الهمة والثانى شرف النفس أما علو الهمة فلانه باعث علي التقدم وداع الى التخصيص أنفة من خمول الضعة واستنكارا لمهانة النقص ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم ان الله يحب معالى الامور واشرافها ويكره دنيها وسفسافها . وروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه انه قال لا تصغرن هممكم فانى لم أر اقعد عن المكرمات من صغر الهمم . وقال بعض الحكماء الهمة راية الجد . وقال بعض البلغاء علوّ الهمم بذر النعم . وقال بعض العلماء اذا طلب رجلان أمرا ظفر به اعظمهما مروءة . وقال بعض الادباء من ترك التماس المعالى بسوء الرجاء لم ينل جسيما . واما شرف النفس فان به يكون قبول التأديب واستقرار التقويم والتهذيب لان النفس ربما جمحت عن الافضل وهى به عارفة ونفرت عن التأديب وهى له مستحسنة لانها عليه غير مطبوعة وله غير ملائمة فتصير منه أنفر ولضده الملائم آثر وقد قيل ما أكثر من يعرف الحق ولا يطيعه واذا شرفت النفس كانت للآداب طالبة وفي الفضائل راغبة فاذا مازجها صادف طبعا ملائما فنمى واستقر فاما من منى بعلوّ الهمة وسلب شرف النفس فقد صار عُرضة لامر أعوزته آلته

وأفسدته جهالته فصار كضرير يروم تعلم الكتابة واخرس يريد الخطبة فلا يزيده الاجتهاد الا عجزا والطلب الا عَوَزا ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم ما هلك امرؤ عرف قدره . وقيل لبعض الحكماء من اسوأ الناس حالا قال من بعدت همته واتسعت امنيته وقصرت آلته وقلت مقدرته . وقال افنون التغلبي

ولا خير فيما يكذب المرء نفسه * وتقواله للشيء يا ليت ذا ليا
لعمرك ما يدري امرؤ كيف يتقى * اذا هو لم يجعل له الله واقيا

وقال بعض الحكماء تجنبوا المنى فانها تذهب بهجة ما خولتم وتستصغرون بها نعمة الله عليكم . وقيل في منثور الحكم المنى من بضائع النوكى فان صادف بهمته حظا نال به املا كان فيما ناله كالمغتصب وفيما وصل اليه كالمتغلب اذ ليس في الحظوظ تقدير لحق ولا تمييز لمستحق وانما هي كالسحاب الذي يمسك عن منابت الاشجار الى مغايص البحار وينزل حيث صادف من خبيث وطيب فان صادف ارضا طيبة نفع وان صادف ارضا خبيثة ضر كذلك الحظ ان صادف نفسا شريفة نفع وكان نعمة عامة وان صادف نفسا دنية ضر وكان نقمة طامة . وحكى ان موسى بن عمران عليه السلام دعا على قوم بالعذاب فأوحي اليه قد ملكت اسفلها على اعلاها فقال يارب كنت احب لهم عذابا عاجلا فأوحى الله تعالى اليه أو ليس هذا كل العذاب العاجل الاليم فاما شرف النفس اذا تجرد عن علوّ الهمة فان الفضل به عاطل والقدر به خامل وهو كالقوة في الجلد الكسل والجبان الفشل تضيع قوته بكسله وجلده بفشله . وقد قيل في منثور الحكم من دام كسله خاب أمله . وقال بعض الحكماء نكح العجز التواني فخرج منهما الندامة ونكح الشؤم الكسل فخرج منهما الحرمان . وقال بعض الشعراء

اذا انت لم تعرف لنفسك حقها * هوانا بها كانت على الناس أهونا
فنفسك أكرمها وان ضاق مسكن * عليك لها فاطلب لنفسك مسكنا
واياك والسكني بمنزل ذلة * يعدّ مسيئا فيه من كان محسنا

وشرف النفس مع صغر الهمة أولى من علوّ الهمة مع دناءة النفس لان من علت همته مع دناءة نفسه كان متعديا الى طلب مالا يستحقه ومتخطيا الى التماس مالا يستوجبه ومن شرفت نفسه مع صغر همته فهو تارك لما يستحق ومقصر عما يجب له وفضل ما بين الامرين ظاهر وان كان لكل واحد منهما من الذم نصيب . وقد قيل لبعض الحكماء ما أصعب شيء على الانسان قال ان يعرف نفسه ويكتم الاسرار فاذا اجتمع الامران واقترن بشرف النفس علو الهمة كان الفضل بهما ظاهرا والادب بهما وافرا ومشاق الحمد بينهما مسهلة

وشروط المروءة بينهما متباينة . وقد قال الحضين بن المنذر الرقاشي

إن المروءة ليس يدركها امرؤ * ورث المكارم عن أب فاضاعها
أمرته نفس بالدناءة والخنا * ونهته عن سبل العلا فاطاعها
فاذا اصاب من المكارم خلة * يبنى الكريم بها المكارم باعها

واعلم ان حقوق المروءة اكثر من ان تحصى وأخفى من ان تظهر لان منها مايقوم في الوهم حسا ومنها مايقتضيه شاهد الحال حدسا ومنها ما يظهر بالفعل ويخفى بالتغافل فلذلك اعوز استيفاء شروطها الا جملا يتنبه الفاضل عليها بيقظته ويستدل العاقل عليها بفطرته وان كان جميع ماتضمنه كتابنا هذا من حقوق المروءة وشروطها وانما نذكر في هذا الفصل الاشهر من قواعدها واصولها والاظهر من شروطها وحقوقها محصورا في تقسيم جامع وهو ينقسم قسمين احدهما شروط المروءة في نفسه والثاني شروطها فى غيره فاما شروطها في نفسه بعد التزام ماأوجبه الشرع من احكامه فيكون بثلاثة امور وهي العفة والنزاهة والصيانة فاما العفة فنوعان احدهما العفة عن المحارم والثاني العفة عن المآثم فاما العفة عن المحارم فنوعان احدهما ضبط الفرج عن الحرام والثاني كف اللسان عن الاعراض فاما ضبط الفرج عن الحرام فلأنه مع وعيد الشرع وزاجر العقل معرة فاضحة وهتكة داحضة ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم من وقى شر ذبذبه ولقلقه وقبقبه فقد وقى يريد بذبذبه الفرج وبلقلقه اللسان وبقبقبه البطن . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال احب العفاف الى الله تعالى عفاف الفرج والبطن . وحكى ان معاوية رضى الله عنه سأل عمر عن المروءة فقال تقوى الله تعالى وصلة الرحم وسأل المغيرة فقال هى العفة عما حرم الله تعالى والحرفة فيما احل الله تعالى وسأل يزيد فقال هى الصبر على البلوي والشكر على النعمى والعفو عند القدرة فقال معاوية انت منى حقا . وقال انوشروان لابنه هرمز من الكامل المروءة فقال من حصن دينه ووصل رحمه واكرم اخوانه . وقال بعض الحكماء من احب المكارم اجتنب المحارم وقيل عار الفضيحة يكدر لذتها . وقد انشدنى بعض اهل الادب للحسن بن على رضى الله عنهما

الموت خير من ركوب العار * والعار خير من دخول النار
* والله من هذا وهذا جاري *

والداعي الى ذلك شيئان احدهما ارسال الطرف والثانى اتباع الشهوة . وقد روى عن النبي عليه السلام أنه قال لعلي بن ابى طالب كرم الله وجهه ياعلي لاتتبع النظرة النظرة فان اولى لك

والثانيــة عليك وفي قوله لا تتبع النظرة النظرة تأويلان احدهما لاتتبع نظر عينيك نظر قلبك والثانى لا تتبع الاولى التي وقعت سهوا بالنظرة الثانيــة التى توقعها عمدا . وقال عيسى بن مريم عليه السلام اياكم والنظرة بعد النظرة فانها تزرع في القلب الشهوة وكفى بها لصاحبها فتنة . وقال على بن ابى طالب كرم الله وجهه العيون مصايد الشيطان . وقال بعض الحكماء من ارسل طرفه استدعى حتفه . وقال بعض الشعراء

وكنت متى ارسلت طرفك رائدا * لقلبك يوما اتعبتــك المناظــر
رأيت الذى لا كله انت قادر * عليه ولا عن بعضه انت صابر

واما الشــهوة فهى خادعة العقول وغادرة الالباب ومحســنة القبائح ومسوّلة الفضائح وليس عطب الا وهى له سبب وعليه الب ولذلك قال النبي عليه السلام اربع من كنّ فيه وجبت له الجنة وحفظ من الشيطان من ملك نفسه حين يرغب وحين يرهب وحين يشتهى وحين يغضب وقهرها عن هذه الاحوال يكون بثلاثة امور احدها غض الطرف عن اثارتها وكفه عن مساعدتها فانه الرائد المحرك والقائد المهلك . روى سعيد بن سنان عن انس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال تقبلوا الىّ بست اتقبل اليكم بالجنة قالوا وما هى يا رسول الله قال اذا حدّث احدكم فلا يكذب واذا وعد فلا يخلف واذا أئتمن فلا يخون غضوا ابصاركم واحفظوا فروجكم وكفوا ايديكم والثاني ترغيبها في الحــلال عوضا واقناعها بالمباح بدلا فان الله ماحرم شيئا الا واغنى عنه بمباح من جنسه لمــا علمه من نوازع الشهوة وتركيب الفطرة ليكون ذلك عونا على طاعته وحاجزا عن مخالفته .وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه ما امر الله تعالى بشئ الا واعان عليه ولا نهى عن شئ الا واغنى عنه والثالث اشعار النفس تقوى الله تعالى في اوامره واتقاؤه فى زواجره والزامها ما الزم من طاعته وتحذيرها ماحذر من معصيته واعلامها انه لايخفى عليه ضمير ولا يعزب عنه قطمير وانه يجازى المحسن ويكافئ المسئ وبذلك نزلت كتبه وبلغت رسله . روى ابن مسعود ان آخر مانزل من القرآن واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله ثم توفي كل نفس ما كسبت وهم لايظلمون وآخر مانزل من التوراة اذا لم تستحى فاصنع ماشئت وآخر مانزل من الانجيل شر الناس من لايبالي ان يراه الناس مسيئا وآخر مانزل من الزبور من يزرع خيرا يحصد زرعه غبطة فاذا اشعرها ماوصفت انقادت الى الكف واذعنت بالاتقاء فسلم دينه وظهرت مروءته فهذا شرط واما كف اللسان عن الاعراض فلأنه ملاذ السفهاء وانتقام اهل الغوغاء وهو مستسهل الكلف اذا لم يقهر نفسه عنه برادع كاف وزاجر صاد تلبط بمعارّه

وتخبط بمضارّه وظن انه لتجافي الناس عنه حمى يتقى ورتبة ترتقى فهلك واهلك فلذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم الا ان دماءكم واموالكم واعراضكم حرام عليكم فجمع بين الدم والعرض لما فيه من ايغار الصدور وابداء الشرور واظهار البذاء واكتساب الاعداء ولا يبقى مع هذه الامور وزن لموموق ولا مروءة لمحوظ ثم هو بها موتور موزور ولاجلها مهجور مزجور. وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال شر الناس من اكرمه الناس اتقاء لسانه . وقال بعض الحكماء انما هلك الناس بفضول الكلام وفضول المال وما قدح في الاعراض من الكلام نوعان احدهما ما قدح في عرض صاحبه ولم يتجاوزه الى غيره وذلك شيئان الكذب وفحش القول والثاني ما تجاوزه الى غيره وذلك اربعة اشياء الغيبة والنميمة والسعاية والسب بقذف او شتم وربما كان السب انكاها للقلوب وابلغها اثرا في النفوس ولذلك زجر الله عنه بالحد تغليظا وبالتفسيق تشديدا وتصعيبا وقد يكون ذلك لاحد شيئين اما انتقام يصدر عن سفه او بذاء يحدث عن لؤم. وقد روى ابو سلمة عن ابي هريرة ان النبي صلى الله عليه وسلم قال المؤمن غر كريم والفاجر خب لئيم. وقال ابن المقفع الاستطالة لسان الجهالة وكف النفس عن هذه الحال بما يصدها من الزواجر اسلم وهو بذوى المروءة اجمل فهذا شرط واما العفة عن المآثم فنوعان احدهما الكف عن المجاهرة بالظلم والثاني زجر النفس عن الاسرار بخيانة فاما المجاهرة بالظلم فعتو مهلك وطغيان متلف وهو يؤول ان استمر الى فتنة او جلاء فاما الفتنة في الاغلب فتحيط بصاحبها وتنعكس عن البادئ بها فلا تنكشف الا وهو بها مصروع كما قال الله تعالى ولا يحيق المكر السيئ الا باهله . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال الفتنة نائمة فمن أيقظها صار طعاما لها . وقال جعفر بن محمد الفتنة حصاد للظالمين . وقال بعض الحكماء صاحب الفتنة اقرب شيّ اجلا واسواء شيء عملا . وقال بعض الشعراء

وكنت كمنتز السوء قامت لحتفها * الى مدية تحت الثرى تستثيرها

واما الجلاء فقد يكون من قوّة الظالم وتطاول مدته فيصير ظلمه مع المكنة جلاء وفناء كالنار اذا وقعت في يابس الشجر فلا تبقى معها مع تمكنها شيئا حتى اذا افنت ما وجدت اضمحلت وخمدت فكذا حال الظالم مهلك ثم هالك والباعث على ذلك شيئان الجراءة والقسوة ولذلك قال النبي عليه السلام اطلبوا الفضل والمعروف عند الرحماء من أمتي تعيشوا في اكنافهم والصاد عن ذلك ان يرى آثار الله تعالى في الظالمين فان له فيهم عبرا ويتصوّر عواقب ظلمهم فان فيها مزدجرا . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال من اصبح ولم يَنْوِ ظلم احد

غفر الله له ما اجترم. وروى جعفر بن محمد عن ابيه عن جده قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا علي اتق دعوة المظلوم فانه انما يسأل الله حقه وان الله لا يمنع ذا حق حقه. وقيل في منثور الحكم ويل للظالم من يوم المظالم. وقال بعض البلغاء من جار حكمه اهلكه ظلمه. وقال بعض الشعراء

وما من يد الا يد الله فوقها * ولا ظالم الا سيبلى بظالم

واما الاستسرار بالخيانة فضعة لانه بذل الخيانة مهين ولقلة الثقة به مستكين. وقد قيل في منثور الحكم من يخن يهن وقال خالد الربعي قرأت في بعض الكتب السالفة ان مما تعجل عقوبته ولا تؤخر الامانة تخان والاحسان يكفر والرحم تقطع والبغي على الناس ولو لم يكن من ذم الخيانة الا ما يجده الخائن في نفسه من المذلة لكفاه زاجرا ولو تصور عقبى امانته وجدوى ثقته لعلم ان ذلك من اربح بضائع جاهه واقوى شفعاء تقدمه مع ما يجده في نفسه من العز ويقابل عليه من الاعظام. وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ادّ الامانة الى من ائتمنك ولا تخن من خانك. وروى سعيد بن جبير قال لما نزلت هذه الآية ومن اهل الكتاب من ان تأمنه بقنطار يؤدّه اليك ومنهم من ان تأمنه بدينار لا يؤده اليك الا ما دمت عليه قائما ذلك بانهم قالوا ليس علينا في الامبين سبيل يعنون ان اموال العرب حلال لهم لانهم من غير اهل الكتاب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كذب اعداء الله ما من شئ كان في الجاهلية الا وهو تحت قدمي الا الامانة فانها مؤداة الى البر والفاجر ولا يجعل ما يتظاهر به من الامانة زورا ولا ما يبديه من العفة غرورا فينهتك الزور وينكشف الغرور فيكون مع هتكه للتدليس اقبح ولمعرة الرياء أفضح. وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لا تزال أمتي بخير ما لم تر الامانة مغنما والصدقة مغرما. وقال بعض الحكماء من التمس أربعا بأربع التمس ما لا يكون من التمس الجزاء بالرياء التمس ما لا يكون ومن التمس مودة الناس بالغلظة التمس ما لا يكون ومن التمس وفاء الاخوان بغير وفاء التمس ما لا يكون ومن التمس العلم براحة الجسد التمس ما لا يكون والداعي الى الخيانة شيئان المهانة وقلة الامانة فاذا حسمهما عن نفسه بما وصفت ظهرت مروءته فهذا شرط قد استوفينا فيه اقسام العفة واما النزاهة فنوعان احدهما النزاهة عن المطامع الدنية والثاني النزاهة عن مواقف الريبة فاما المطامع الدنية فلأن الطمع ذل والدناءة لؤم وهما ادفع شئ للمروءة وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول في دعائه اللهم اني أعوذ بك من طمع يهدي الى طبع. وقال بعض الشعراء

لا تخضعنّ لمخلوق على طمع * فان ذلك نقص منك في الدين

واسترزق الله مما في خزائنه * فانما هو بين الكاف والنون

والباعث على ذلك شيئان الشره وقلة الانفة فلا يقنع بما اوتى وان كان كثيرا لاجل شرهه ولا يستنكف مما منع وان كان حقيرا لقلة انفته وهذه حال من لا يرى لنفسه قدرا ويرى المال اعظم خطرا فيرى بذل اهون الامرين لاجلهما مغنما وليس لمن كان المال عنده اجل ونفسه عليه اقل اصغاء لتأنيب ولا قبول لتأديب . وروى ان رجلا قال يارسول الله اوصنى قال عليك باليأس مما في ايدي الناس واياك والطمع فانه فقر حاضر واذا صليت صلاة فصلّ صلاة مودع واياك وما يعتذر منه . وقال بعض الشعراء

ومن كانت الدنيا مناه وهمه * سبته المنى واستعبدته المطامع

وحسم هذه المطامع شيئان اليأس والقناعة . وقد روى عبد الله بن مسعود عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال ان روح القدس نفث فى رُوعى ان نفسا لا تموت حتى تستوفى رزقها فاتقوا الله واجملوا في الطلب ولا يحملنكم ابطاء الرزق على أن تطلبوه بمعاصى الله تعالى فان الله عزوجل لا يدرك ماعنده الا بطاعته فهذا شرط . واما مواقف الريبة فهي التردد بين منزلتى حمد وذم والوقوف بين حالتى سلامة وسقم فتتوجه اليه لائمة المتوهمين وينالله ذلة المريبين وكفى بصاحبها موقفا ان صح افتضح وان لم يصح امتهن وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم دع ما يريبك الى مالا يريبك وسئل محمد بن على عن المروءة فقال ان لا تعمل في السر عملا تستحيي منه فى العلانية وقال حسان بن ابى سنان ما وجدت شيأ هو اهون من الورع قيل له وكيف قال اذا ارتبت بشئ تركته والداعي الى هذه الحال شيئان الاسترسال وحسن الظن والمانع منهما شيئان الحياء والحذر وربما انتفت الريبة بحسن الثقة وارتفعت التهمة بطول الخبرة . وقد حكى عن عيسي بن مريم عليه السلام انه رآه بعض الحواريين وقد خرج من منزل امرأة ذات فجور فقال يا روح الله ماتصنع هنا فقال الطبيب انما يداوي المرضي ولكن لا ينبغى ان يجعل ذلك طريقا الى الاسترسال وليكن الحذر عليه اغلب والى الخوف من تصديق التهم اقرب فما كل ريبة ينفيها حسن الثقة هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ابعد خلق الله من الرِيَب وأصونهم من التُهم وقف مع زوجته صفية ذات ليلة على باب مسجد يحادثها وكان معتكفا فمر به رجلان من الانصار فلما رأياه اسرعا فقال لهما على رِسْلكما انها صفية بنت حيي فقالا سبحان الله او فيك شك يا رسول الله فقال مه ان الشيطان يجرى من احدكم مجرى لحمه ودمه فخشيت ان يقذف في قلبيكما سوأ فكيف من تخالجت فيه الشكوك وتقالبت فيه الظنون فهل يعرى من فى مواقف الريب من قادح محقق ولائم مصدّق

وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال اذا لم يشق المرء الا بما عمل فقد سعد واذا استعمل الحزم وغلب الحذر وترك مواقف الريب ومظان التهم ولم يقف موقف الاعتذار ولا عذر لمختار لم يحتلج في نزاهته شك ولم يقدح في عرضه افض . وقد قال الشاعر

أصونك ان ادل عليك ظنا * لان الظن مفتاح اليقين

وقال سهل بن هرون مؤنة المتوقف ايسر من تكلف المعتسف . وقال بعض الحكماء من حسن ظنه بمن لا يخاف الله تعالى فهو مخدوع . وانشدنى بعض اهل الادب لابى بكر الصولى رحمه الله قوله

احسنت ظنى باهل دهري * فحسن ظني بهم دهانى
لا آمن الناس بعد هذا * ما الخوف الا من الامان

فهذا شرط استوفينا فيه نوعى النزاهة واما الصيانة وهى الثالث من شروط المروءة فنوعان أحدهما صيانة النفس بالتماس كفايتها وتقدير مادتها والثاني صيانتها عن تحمل المنن من الناس والاسترسال في الاستعانة وأما التماس الكفاية وتقدير المادة فلان المحتاج الى الناس كل مهتضم وذليل مستثقل وهو لما فطر عليه محتاج الى ما يستمده ليقيم اود نفسه ويدفع ضرورة وقته وقد قالت العرب في امثالها كلب جوال خير من اسد رابض وما يستمده نوعان لازم وندب فاما اللازم فما اقام بالكفاية وافضي الى سد الخلة وعليه فى طلبه ثلاثة شروط أحدها استطابته من الوجوه المباحة وتوقي المحظورة فان المواد المحرمة مستخبثة الاصول ممحوقة المحصول ان صرفها في بر لم يؤجر وان صرفها في مدح لم يشكر ثم هؤلاء لاوزارها محتقب وعليها معاقب . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يعجبك رجل كسب مالا من غير حله فان انفقه لم يقبل منه وان أمسكه فهو زاده الى النار . وقال بعض الحكماء شر المال ما لزمك اثم مكسبه وحرمت أجر انفاقه ونظر بعض الخوارج الى رجل من أصحاب السلطان يتصدّق على مسكين فقال انظر اليهم حسناتهم من سيئاتهم . وقال على ابن الجهم

سر من عاش ماله فاذا حا * سبه الله سره الاعدام

والثانى طلبه من احسن جهاته التى لا يلحقه فيها غض ولا يتدنس له بها عرض فان المال يراد لصيانة الاعراض لا لابتذالها ولعز النفوس لا لاذلالها . وقال عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه ياحبذا المال أصون به عرضي وأرضى به ربى . وقال أبو بشر الضرير

كفى حزنا أنى اروح وأغتدى * ومالى من مال أصون به عرضى
واكثر ما ألقى الصديق بمرحبا * وذلك لا يكفي الصديق ولا يرضى

وسئل ابن عائشة عن قول النبي صلى الله عليه وسلم اطلبوا الحوائج من حسان الوجوه فقال معناه من احسن الوجوه التى تحل والثالث ان يتأنى في تقدير مادته وتدبير كفايته بما لايلحقه خلل ولا يناله زلل فان يسير المال مع حسن التقدير واصابة التدبير أجدى نفعا واحسن موقعا من كثيره مع سوء التدبير وفساد التقدير كالبذر في الارض اذا روعى يسيره زكا وان اهمل كثيره اضمحل. وقال محمد بن علي رضى الله عنه الكمال في ثلاثة العفة في الدين والصبر على النوائب وحسن التدبير فى المعيشة . وقيل لبعض الحكماء فلان غنى فقال لااعرف ذلك مالم اعرف تدبيره في ماله فاذا استكمل هذه الشروط فيما يستمده من قدر الكفاية فقد ادى حق المروءة في نفسه . وسئل الاحنف بن قيس عن المروءة فقال العفة والحرفة . وقال بعض الحكماء لابنه يابنى لا تكن على احد كلا فانك تزداد ذلا واضرب في الارض عودا وبدأ ولا تأسف لمال كان فذهب ولاتعجز عن الطلب لو صب ولا نصب فهذا حال اللازم وقد كان ذوو الهمم العلية والنفوس الابية يرون ماوصل الى الانسان كسبا افضل مما وصل اليه ارثا لانه في الارث في جدوى غيره وبالكسب مجدالى غيره وفرق مابينهما في الفضل ظاهر وقال كشاجم

لااستلذ العيش لم ادأب له * طلبا وسعيا في الهواجر والغلس
وارى حراما أن يؤاتيني الغنى * حتى يحاول بالعناء ويلتمس
فاصرف نوالك من اخيك موفرا * فالليث ليس يسيغ الا ما افترس

واما الندب فهو مافضل عن الكفاية وزاد على قدر الحاجة فان الامر فيه معتبر بحال طالبه فان كان ممن تقاعد عن مراتب الرؤساء وتقاصر عن مطاولة النظراء وانقبض عن منافسة الاكفاء فحسبه ما كفاه فليس فى الزيادة الا شره ولا في الفضول الا نهم وكلاهما مذموم . وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم خير الرزق مايكفى وخير الذكر الخفى . وقال على بن ابي طالب كرم الله وجهه الدنيا كل على العاقل . وقال عبد الله بن مسعود المستغني عن الدنيا بالدنيا كمطفئ النار بالتبن . وقال بعض الحكماء اشتر ماء وجهك بالقناعة وتسلّ عن الدنيا لتجافيها عن الكرام فان كان ممن منى بعلو الهمم وتحركت فيه اريحية الكرم وآثر ان يكون رأسا ومقدما وان يرى في النفوس معظما ومفخما فالكفاية لاتقله حتى يكون ماله فاضلا ونائله فائضا . فقد قيل لبعض العرب ما المروءة فيكم قال طعام مأكول ونائل مبذول وبشر مقبول . وقد قال الاحنف بن قيس

فلو مد سروى بمال كثير * لجدت وكنت له باذلا

فان المروءة لا تستطاع * اذا لم يكن مالها فاضلا

وأما صيانتها عن تحمل المنن والاسترسال فى الاستعانة فلأن المنة استرقاق الاحرار تحدث ذلة في الممنون عليه سطوة فى المان به والاسترسال في الاستعانة تثقيل ومن ثقل على الناس هان ولا قدر عندهم لمهان . وقال رجل لعمر رضى الله عنه خدمك بنوك فقال اغناني الله عنهم . وقال على بن ابى طالب رضى الله عنه لابنه الحسن في وصيته له يابنى ان استطعت أن لايكون بينك وبين الله ذو نعمة فافعل ولا تكن عبد غيرك وقد جعلك الله حرا فان اليسير من الله تعالى أكرم وأعظم من الكثير من غيره وان كان كل منه كثيرا . وقال زياد لبعض الدهاقين ماالمروءة فيكم قال اجتناب الريب فانه لاينبل مريب واصلاح الرجل ماله فانه من مروءته وقيامه بحوائجه وحوائج اهله فانه لاينبل من احتاج الى اهله ولا من احتاج اهله الى غيره . وانشد ثعلب

من عف خف على الصديق لقاؤه * وأخو الحوائج وجهه ممـلول

واخوك من وفّرت مافى كيسـه * فاذا عبثت به فانت ثقيـل

وان كان الناس لهمة لايستغنون عن التعاون ولا يستقلون عن المساعد والمظافر فانما ذلك تعاون ائتلاف يتكافؤن فيه ولا يتفاضلون وربما كان المستعين فيه مفضلا والمعين مستفضلا كاستعانة السلطان بجنده والمزارع باكرته فليس من هذا بدّ ولا لاحد عنه غنى وانما الذي يتصوّن عنه الكرام تعاون التفضيل فينقبضون عن ان يستعينوا لئلا يكون عليهم يد ويسارعون ان يعينوا لان يكون لهم يد ومن اقدم من غير اضطرار على الاستعانة بجاه او بمال فقد اوهى مروءته واستبذل صيانته ومن دعاه الاضطرار لنائب الم او حادث هجم الى الاستعانة بمن يتنفس به من خناق كربه ويتخلص به من وثاق نوائبه فلا لوم على مضطر فان اغنته الاستعانة بالجاه عن الاستعانة بالمال فلا عذر له في التعرض للمال ويعدل الى ولاة الامور فان الحوائج عندهم انجح وهى عليهم اسهل وهم لذلك مندوبون فهم لايجدون لهم مساويا وليصبرنّ على ابطائهم فان تراكم الامور عليهم يشغلهم الاعن الملح الصبور ولذلك قيل قدم لحاجتك بعض لحاجتك . وقال ابو سارة سحيم بن الاعرف

تعـد قرابة وتعد صـهرا * ويسعد بالقرابة من رعاها

وما زرناك من عدم ولكن * يهش الى الامارة من رجاها

وأياما فعلت فان نفسى * تعد صلاح نفسك من غناها

فان تعذر عليه صلاح حاله الا بمـال يستعين به على نوائبه كان له مع الضرورة فسحة

لكن ان وجده قرضا مردودا لم يأخذه صلة وجودا فان القرض مستسمح به في المروآت هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم مع ما اعلى الله من قدره وفضله على خلقه قد اقترض ثم قضى فأحسن وقال صلى الله عليه وسلم من أعياه رزق الله تعالى حلالا فليستدن على الله وعلى رسوله وقال صلى الله عليه وسلم المستدين تاجر الله في ارضه . وقال البحترى

ان لم يكن كنز فغل عطية * يبلغ بها باغي الرضا بعض الرضا
او لم يكن هبة فقرض يسرت * أسبابه وكواهب من أقرضا

ولئن كان الدين رقا فهو اسهل من رق الافضال . وقد روى عن علي بن ابى طالب رضى الله عنه انه قال من اراد البقاء ولا بقاء فليباكر الغداء وليخفف الرداء قيل وما في خفة الرداء من البقاء قال قلة الدين فان أعوزه ذلك الا استسماحا فهو الرق المذل ولذلك قيل لا مروءة لمقل . وقال بعض الحكماء من قبل صلتك فقد باعك مروءته وأذل لقدرك عزه وجلالته والذي يتماسك به الباقي من مروءة الراغبين واليسير التافه من صيانة السائلين وان لم يبق لذى رغبة مروءة ولا لسائل تصون أربعة امور هى جهد المضطر احدها ان يتجافى ضرع السائلين وأبهة المستقلين فيذل بالضرع ويحرم بالابهة وليكن من التجمل على ما يقتضيه حال مثله من ذوى الحاجات . وقد قيل لبعض الحكماء متى يفحش زوال النعم قال اذا زال معها التجمل . وانشد بعض اهل الادب لعلى بن الجهم

هى النفس ما حملتها تتحمل * وللدهر ايام تجور وتعدل
وعاقبة الصبر الجميل جميلة * واحسن اخلاق الرجال التفضل
ولا عار ان زالت عن الحر نعمة * ولكنّ عارا ان يزول التجمل

والثانى ان يقتصر في السؤال على ما دعته اليه الضرورة وقادته اليه الحاجة ولا يجعل ذلك ذريعة الى الاغتنام فيحرم باغتنامه ولا يعذر في ضرورته . وقد قال بعض الحكماء من ألف المسألة ألفه المنع والثالث ان يعذر في المنع ويشكر على الاجابة فانه ان منع فعما لا يملك وان اجيب فالى ما لا يستحق . فقد قال النمر بن تولب

لا تغضبن على امرئ في ماله * وعلى كرائم صلب مالك فاغضب

والرابع ان يعتمد على سؤال من كان للمسألة اهلا وكان النجح عنده مأمولا فان ذوي المكنة كثير والمعين منهم قليل ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم الخير كثير وقليل فاعله والمرجو للاجابة من تكاملت فيه خصالها وهى ثلاث احداهن كرم الطبع فان الكريم مساعد واللئيم معاند وقد قيل المخذول من كانت له الى اللئام حاجة والثانية سلامة الصدر

فان العدو الب على نكبتك وحرب في نائبتك وقد قيل من اوغرت صدره استدعيت شره فان رق لك بكرم طبعه ورحمك بحسن ظفره فأعظم بها محنة ان يصير عدوّك لك راحما. وقد قال الشاعر

وحسبك من حادث بامرئ * ترى حاسبيه له راحمينا

والثالث ظهور المكنة فان من سأل ما لا يمكن فقد احال وكان كمستنهض المسجون ومستسعف المديون وكان بالرد خليقا وبالحرمان حقيقا . وقد قال علي كرم الله وجهه من لا يعرف لا حتى لايقال له لا فهواحمق ووصى عبدالله بن الاهتم ابنه فقال يابني لا تطلب الحوائج من غير اهلها ولا تطلبها فى غير حينها ولا تطلب ما لست له مستحقا فانك ان فعلت ذلك كنت حقيقا بالحرمان . وقال الشاعر

ولا تسألن امرأ حاجة * يحاول من ربه مثلها
فيترك ما كنت حملته * ويبدا بحاجته قبلها

فهذا ما يختص بشروط المروءة في نفسه واما شروط المروءة في غيره فثلاثة الموازرة والمياسرة والافضال أما الموازرة فنوعان أحدهما الاسعاف بالجاه والثاني الاسعاف في النوائب فاما الاسعاف بالجاه فقد يكون من الاعلى قدرا والانفذ أمرا وهو ارخص المكارم ثمنا وألطف الصنائع موقعا وربما كان اعظم من المال نفعا وهو الظل الذي يلجأ اليه المضطرون والحمى الذي يأوى اليه الخائفون فان اوطأه اتسع بكثرة الانصار والشيع وان قبضه انقطع بنفور الغاشية والتبع فهو بالبذل ينمى ويزيد وبالكف ينقص ويبيد فلا عذر لمن منح جاها ان يخل به فيكون أسوأ حالا من البخيل بماله الذي قد يعده لنوائبه ويستبقيه للذته ويكنزه لذريته وبضد ذلك من بخل بجاهه لانه قد اضاعه بالشح وبدده بالبخل وحرم نفسه غنيمة مكنته وفرصة قدرته فلم يعقبه الا ندما على فائت واسفا على ضائع ومقتا يستحكم في النفوس وذما قد ينتشر في الناس . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال الخلق كلهم عيال الله وأحب خلق الله تعالى اليه احسنهم صنيعا الى عياله . وقال بعض الحكماء اصنع الخير عند امكانه يبق لك حمده عند زواله واحسن والدولة لك يحسن لك والدولة عليك واجعل زمان رخائك عدة لزمان بلائك . وقال بعض البلغاء من علامة الاقبال اصطناع الرجال . وقال بعض الادباء بذل الجاه احد الحبائين . وقال ابن الاعرابي العرب تقول من امل شيئا هابه ومن جهل شيئا عابه وبذل الجاه قد يكون من كرم النفس وشكر النعمة وضده من ضده وليس بذل الجاه لالتماس الجزاء بذلا مشكورا وانما هو بائع جاهه ومعاوض على نعم الله تعالى وآلائه

فكان بالذم أحق . وانشد بعض الادباء لعلى بن عباس الرومى رحمه الله

لا يبذل العرف حين يبذله * كمشتري الحمد او كمعتاضه

بل يفعل العرف حين يفعله * لجوهر العرف لا لاعراضه

وعلى من اسعد بجاهه ثلاثة حقوق يستكثر بها الشكر ويستمد بها المزيد من الاجر احدها ان يستسهل المعونة مسرورا ولا يستثقلها كارها فيكون بنعم الله تعالى متبرما ولاحسانه متسخطا . فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال من عظمت نعمة الله تعالى عليه عظمت مؤنة الناس عليه فمن لم يحتمل تلك المؤنة عرض تلك النعمة للزوال والثانى مجانبة الاستطالة وترك الامتنان فانهما من لؤم الطبع وضيق الصدر وفيهما هدم الصنيع واحباط الشكر . وقد قيل للحكيم اليونانى من أضيق الناس طريقا واقلهم صديقا قال من عاشر الناس بعبوس وجهه واستطال عليهم بنفسه والثالث ان لا يقرن بمشكور سعيه تقريعا بذنب ولا توبيخا على هفوه فلا يفى مضض التوبيخ بادراك النجح ويصير الشكر وجدا والحمد عيبا ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم أقيلوا ذوى الهيئات عثراتهم . وقال النابغة الجعدى

ألم تعلما ان الملامة نفعها * قليل اذا ما الشئ ولى فادبرا

واما الاسعاف في النوائب فلان الايام غادرة والنوازل غائرة والحوادث عارضة والنوائب راكضة فلا يعذر فيها الاعليم ولا يستنقذه منها الاسليم . وقد قال عدى بن حاتم

كفى زاجرا للمرء أيام دهره * تروح له بالواعظات وتغتدى

فاذا وجد الكريم مصابا بحوادث دهره حثه الكرم وشكر النعم على الاسعاف فيها بما استطاع سبيلا اليه ووجد قدرة عليه . روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال خير من الخير معطيه وشر من الشر فاعله . وقيل لبعض الحكماء هل شيء خير من الذهب والفضة قال معطيهما والاسعاف في النوائب نوعان واجب وتبرع فاما الواجب فما اختص بثلاثة أصناف وهم الاهل والاخوان والجيران اما الاهل فلمماسة الرحم وتعاطف النسب وقد قيل لم يسد من احتاج اهله الى غيره . وقال حسان بن ثابت

وان امرأ نال المنى ثم لم ينل * قريبا ولا ذا حاجة لزهيد

وان امرأ عادي الرجال على الغنى * ولم يسأل الله الغنى لحسود

واما الاخوان فلمستحكم الود ومتأكد العهد . سئل الاحنف بن قيس عن المروءة فقال صدق اللسان ومواساة الاخوان وذكر الله تعالى في كل مكان . وقال بعض حكماء الفرس صفة الصديق ان يبذل لك ماله عند الحاجة ونفسه عند النكبة ويحفظك عند المغيب .

ورأى بعض الحكماء رجلين يصطحبان لا يفترقان فسأل عنهما فقيل هما صديقان فقال ما بال أحدهما فقير والآخر غني وأما الجار فلدنو داره واتصال منزاره قال علي كرم الله وجهه ليس حسن الجوار كف الاذى بل الصبر على الاذي . وقال بعض الحكماء من أجار جاره اعانه الله واجاره . وقال بعض البلغاء من احسن الى جاره فقد دل على حسن نجاره . وقال بعض الشعراء

وللجار حق فاحترز من اذائه * وما خير جار لا يزال مؤاذيا

فيجب فى حقوق المروءة وشروط الكرم في هؤلاء الثلاثة تحمل أثقالهم واسعافهم في نوائبهم ولا فسحة لذى مروءة مع ظهور المكنة أن يكلهم الى غيره او يلجئهم الى سؤاله وليكن سائل كرم نفسه عنهم فانهم عيال كرمه وأضياف مروءته فكما انه لايحسن أن يلجئ عياله وأضيافه الى الطلب والرغبة فهكذا من عاله كرمه واضافته مروءته . وقال بعض الشعراء

حق على السيد المرجو نائله * والمستجار به في العرب والعجم
ان لاينيل الاقاصى صوب راحته * حتى يخص به الادنى من الخدم
ان الفرات اذا جاشت غواربه * روى السواحل ثم امتد في الامم

واما التبرع فيمن عدا هؤلاء الثلاثة من البعداء الذين لا يدلون بنسب ولا يتعلقون بسبب فان تبرع بفضل الكرم وفائض المروءة فنهض في حوادثهم وتكفل بنوائبهم فقد زاد على شروط المروءة وتجاوزها الى شروط الرئاسة . وقيل لبعض الحكماء أي شئ من افعال الناس يشبه افعال الاله قال الاحسان الى الناس وان كف تشاغلا بما لزم فلا لوم ما لم يلجا اليه مضطر لان القيام بالكل معوز والتكفل بالجميع معتذر فهذا حكم الموازرة واما المياسرة فنوعان احدهما العفو عن الهفوات والثاني المسامحة في الحقوق فاما العفو عن الهفوات فلانه لا مبرأ من سهو وزلل ولا سليم من نقص او خلل ومن رام سليما من هفوة والتمس بريئا من نبوة فقد تعدى على الدهر بشططه وخادع نفسه بغلطه وكان من وجود بغيته بعيدا وصار باقتراحه فردا وحيدا . وقد قالت الحكماء لاصديق لمن اراد صديقا لاعيب فيه . وقيل لانوشروان هل من أحد لاعيب فيه قال من لاموت له واذا كان الدهر لايوجده ماطلب ولا ينيله ما احب وكان الوحيد في الناس مرفوضا قصيا والمنقطع عنهم وحشيا لزمه مساعدة زمانه في القضاء ومياسرة اخوانه في الصفح والاغضاء . روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال ان الله تعالى امرنى بمداراة الناس كما امرنى باداء الفرائض . وقال بعض الادباء ثلاث خصال لا تجتمع الا فى كريم حسن المحضر واحتمال الزلة وقلة الملال . وقال ابن الرومى

فعذرك مبسوط لذنب مقدّم * وودّك مقبول باهل ومرحب
ولو بلغتني عنك اذنى اقتها * لدىّ مقام الكاشح المتكذب
فلست بتقليب اللسان مصارما * خليلا اذا ما القلب لم يتقلب

واذا كان الاغضاء حتما والصفح كرما ترتب بحسب الهفوة وتنزل بقدر الذنب والهفوات نوعان صغائر وكبائر فالصغائر مغفورة والنفوس بها معذورة لان الناس مع اطوارهم المختلفة واخلاقهم المتفاضلة لا يسلمون منها فكان الوجد فيها مطرحا والعتب مستقبحا . وقد قال بعض العلماء من هجر أخاه من غير ذنب كان كمن زرع زرعا ثم حصده في غير أوانه . وقال ابو العتاهية

وشر الأخِلّاء من لم يزل * يعاتب طورا وطورا يذم
يريك النصيحة عند اللقاء * ويبريك في السر بري القلم

وأما الكبائر فنوعان أن يهفو بها خاطيا ويزل بها ساهيا فالحرج فيها مرفوع والعتب عنها موضوع لان هفوة الخاطر هدر ولومه هذر . وقال بعض الحكماء لاتقطع اخاك الا بعد عجز الحيلة عن استصلاحه . وقال الاحنف بن قيس حق الصديق أن تحتمل له ثلاثا ظلم الغصب وظلم الدالة وظلم الهفوة . وحكى ابن عون ان غلاما هاشميا عربد على قوم فأراد عمه ان يسيء به فقال يا عم انى قد اسأت وليس معى عقلى فلا تسيء بي ومعك عقلك . وقال ابو نواس

لم أؤاخذك اذا جنيت لانى * واثق منك بالاخاء الصحيح
فجميل العدوّ غير جميل * وقبيح الصديق غير قبيح

فان تشبه خطؤه بالعمد وسهوه بالقصد تثبت ولم يلم بالتوهم فيكون ملوما ولذلك قيل التثبت نصف العفو . وقال بعض الحكماء لا يفسدك الظن على صديق أصلحك اليقين له . وقال بعض شعراء هذيل

فبعض الامر تصلحه ببعض * فان الغث يحمله السمين
ولا تعجل بظنك قبل خبر * فعند الخبر تنقطع الظنون
ترى بين الرجال العين فضلا * وفيما اضمروا الفضل المبين
كلون الماء مشتبها وليست * تخبر عن مذاقته العيون

والثانى ان يعتمد ما اجترم من كبائره ويقصد ما اجترح من سيئاته ولا يخلو فيما أتاه من اربع أحوال فالحال الاولى أن يكون موتورا قد قابل على وترته وكافأ على مساءته فالملائمة على

من وتره عائدة والى البادئ بها راجعة لان المكافئ أعذر وان كان الصفح اجمل ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم اياكم والمشارّة فانها تميت الغيرة وتحيي الغرة . وقال بعض الحكماء من فعل ما شاء لقى ما لم يشأ . وقال بعض الادباء من نالته اساءتك همه مساءتك . وقال بعض البلغاء من اولع بقبح المعاملة أوجع بقبح المقابلة . وقال صالح بن عبد القدوس

اذا وترت امرأ فاحذر عداوته * من يزرع الشوك لا يحصد به عنبا

ان العدوّ وان ابدى مسالمة * اذا رأى منك يوما فرصة وثبا

والاغضاء عن هذا أوجب وان لم تكن المكافأة ذنبا لانه قد رأى عقبي اساءته فان واصل الشر واصلته المكافأة وقد قيل باعتزالك الشر يعتذلك وبحسن النصفة يكون المواصلون . وقال بعض الحكماء من كنت سببا لبلائه وجب عليك التلطف له في علاجه من دائه وقد قال أوس بن حجر

اذا كنت لم تُعرِضْ عن الجهل والخنا * اصبت حليما أو اصابك جاهل

والحال الثانية أن يكون عدوّا قد استحكمت شحناؤه واستوعرت سراؤه واستخشنت ضراؤه فهو يتربص بدوائر السوء انتهاز فرصه ويتجرع بمهانة العجز مرارة غصصه فاذا ظفر بنائبة ساعدها واذا شاهد نعمة عاندها فالبعد منه حذرا اسلم والكف عنه متاركة أغنم فانه لا يسلم من عواقب شره ولا يفلت من غوائل مكره . وقد قالت الحكماء لا تعرضن لعدوّك في دولته فاذا زالت كفيت شره . وقال لقمان لابنه يا بني كذب من قال ان الشر بالشر يطفأ فان كان صادقا فليوقد نارين ولينظر هل تطفئ احداهما الاخرى وانما يطفئ الخير الشر كما يطفئ الماء النار . وقال جعفر بن محمد كفاك من الله نصرا أن ترى عدوّك يعصى الله فيك . وقال بعض الحكماء بالسيرة العادلة يقهر المعادي . وقال البحتري

واقسم لا أجزيك بالشر مثله * كفى بالذي جازيتني لك جازيا

والحال الثالثة ان يكون لئيم الطبع خبيث الاصل قد اغراه لؤم الطبع على سوء الاعتقاد وبعثته خبية الاصل على اتيان الفساد فهو لا يستقبح الشر ولا يكف عن المكروه فهذه الحالة اطمّ لان الاضرار بها اعم ولا سلامة من مثله الا بالبعد والانقباض ولا خلاص منه الا بالصفح والاعراض فانه كالسبع الضاري في سوارح الغنم وكالنار المتأججة في يابس الحطب لا يقربها الا تالف ولا يدنو منها الا هالك . روى مكحول عن ابي امامة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال الناس كشجرة ذات جنى ويوشك ان يعودوا كشجرة ذات شوك ان ناقدتهم ناقدوك وان هربت منهم طلبوك وان تركتهم لم يتركوك قيل يا رسول الله

وكيف المخرج قال أقرضهم من عرضك ليوم فاقتك . وقال عبدالله بن العباس العاقل الكريم صديق كل احد الا من ضره والجاهل اللئيم عدوّ كل احد الا من نفعه وقال شرّ ما في الكريم ان يمنعك خيره وخير ما فى اللئيم ان يكف عنك شره . وقال بعض البلغاء أعداؤك داؤك وفى البعد عنهم شفاؤك . وقال بعض البلغاء شرف الكريم تغافله عن اللئيم ووصى بعض الحكماء ابنه فقال يا بني اذا سلم الناس منك فلا عليك ان لا تسلم منهم فانه قلما اجتمعت هاتان النعمتان . وقال عبد المسيح بن نفيلة

الخير والشر مقرونان في قرن * فالخير مستتبع والشر محذور

والحال الرابعة ان يكون صديقا قد استحدث نبوة وتغيرا او أخا قد استجد جفوة وتنكرا فابدى صفحة عقوقه واطرح لازم حقوقه وعدل عن بر الاخاء الى جفوة الاعداء فهذا قد يعرض فى المودات المستقيمة كما تعرض الامراض في الاجسام السليمة فان عولجت اقلعت وان أهملت أسقمت ثم أتلفت ولذلك قالت الحكماء دواء المودة كثرة التعاهد . وقال كشاجم

أقل ذا الود عثرته وقفه * على سنن الطريق المستقيمه
ولا تسرع بمعتبة اليه * فقد يهفو ونيته سليمه

ومن الناس من يرى ان متاركة الاخوان اذا نفروا أصلح واطراحهم اذا فسدوا أولى كاعضاء الجسد اذا فسدت كان قطعها أسلم فان شح بها سرت الى نفسه وكالثوب اذا خلق كان اطراحه بالجديد له اجمل . وقد قال بعض الحكماء رغبتك فيمن يزهد فيك ذل نفس وزهدك فيمن يرغب فيك صغر همة . وقد قال بزرجمهر من تغير عليك في مودته فدعه حيث كان قبل معرفته . وقال نصر بن احمد الخبزارزى

صل من دنى وتناس من بعدا * لا تكرهنّ على الهوا احدا
قد اكثرت حواء اذ ولدت * فاذا جفى ولد نفذ ولدا

فهذا مذهب من قل وفاؤه وضعف اخاؤه وساءت طرائقه وضاقت خلائقه ولم يكن فيه فضل الاحتمال ولا صبر على الادلال فقابل على الجفوة وعاقب على الهفوة واطرح سالف الحقوق وقابل العقوق بالعقوق فلا بالفضل اخذ ولا الى العفو أخلد وقد علم ان نفسه قد تطغى عليه فترديه وان جسمه قد يسقم عليه فيؤلمه ويؤذيه وهما أخص به وأحنى عليه من صديق قد تميز بذاته وانفصل بادواته فيريد من غيره لنفسه ما لا يجده من نفسه لنفسه هذا عين المحل ومحض الجهل مع ان من لم يحتمل بقى فردا وانقلب الصديق فصار عدوا وعداوة من كان صديقا اعظم من عداوة من لم يزل عدوا ولذلك قال النبي

صلى الله عليه وسلم أوصاني ربي بسبع الاخلاص في السر والعلانية وان أعفو عمن ظلمني واعطي من حرمني وأصل من قطعني وان يكون صمتي فكرا ونطقي ذكرا ونظري عبرة . وقال لقمان لابنه يا بني لا تترك صديقك الاول فلا يطمئن اليك الثاني يا بني اتخذ ألف صديق والالف قليل ولا تتخذ عدوا واحدا والواحد كثير . وقيل للمهلب بن أبي صفرة ما تقول في العفو والعقوبة قال هما بمنزلة الجود والبخل فتمسك بايهما شئت . وانشد ثعلب

اذا أنت لم تستقبل الامر لم تجد * بكفيك في ادباره متعلقا
اذا أنت لم تترك أخاك وزلة * اذا زلها اوشكتما ان تفرقا

فاذا كان الامر على ما وصفت فمن حقوق الصفح الكشف عن سبب الهفوة ليعرف الداء فيعالجه فان لم يعرف الداء لم يقف على الدواء . كما قد قال المتنبي

فان الجرح ينفر بعد حين * اذا كان البناء على فساد

واذا كان ذلك كذلك فلا يخلو حال السبب من ان يكون لملل او زلل فان كان لملل فمودّات الملول ظل الغمام وحلم النيام . وقد قيل في منثور الحكم لا تأمنن لملول وان تحلى بالصلة وعلاجه ان يترك على مله فميل الجفاء كما مل الاخاء وان كان لزلل لوحظت اسبابه فان كان لها مدخل في التأويل وشبهة تؤول الى جميل حمله على أجمل تأويله وصرفه الى احسن جهة كالذي حكي عن خالد بن صفوان انه مر به صديقان له فعرج عليه أحدهما وطواه الآخر فقيل له في ذلك فقال نعم عرج علينا هذا بفضله وطوانا ذلك بثقته بنا . وانشد بعض اهل الادب لمحمد بن داود الاصفهاني

وتزعم للواشين أني فاسد * عليك واني لست فيما عهدتني
وما فسدت لي يعلم الله نية * عليك ولكن ختنتي فاتهمتني
غدرت بعهدي عامدا واخفتني * نخفت ولو آمنتني لامنتني

وان لم يكن لزلله في التاويل مدخل نظر حاله بعد زلله فان ظهر ندمه وبان خجله فالندم توبة والخجل انابة ولا ذنب لتائب ولا لوم على منيب ولا يكلف عذرا عما سلف فيلجأ الى ذل التحريف او خجل التعنيف ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم اياكم والمعاذر فان اكثرها مفاجر . وقال علي رضي الله عنه كفى بما يعتذر منه تهمة . وقال مسلم بن قتيبة لرجل اعتذر اليه لا يدعونك امر قد تخلصت منه الى الدخول في امر لعلك لا تخلص منه . وقال بعض الحكماء شفيع المذنب اقراره وتوبته اعتذاره . وقال بعض البلغاء من لم يقبل التوبة عظمت خطيئته ومن لم يحسن الى التائب قبحت اساءته . وقال بعض الحكماء

الكريم أوسع المغفرة اذا ضاقت بالمذنب المعذرة . وقال بعض الشعراء

العذر يلحقه التحريف والكذب * وليس في غير ما يرضيك لى أرب

وقد أسأت فبالنعمى التى سلفت * الا مننت بعفو ماله سبب

وان عجل العذر قبل توبته وقدم التنصل قبل انابته فالعذر توبة والتنصل انابة فلا يكشف عن باطن عذره ولا يعنف بظاهر غدره فيكون لئيم الظفر سيئ المكافأة وقد قيل من غلبته الحدة فلا تغترر بمودته . وقال بعض الحكماء شافع المذنب خضوعه الى عذره وقال بعض الشعراء

اقبل معاذير من يأتيك معتذرا * ان برّ عندك فيما قال أو فجرا

فقد اطاعك من يرضيك ظاهره * وقد اجلك من يعصيك مستترا

وان ترك نفسه في زلله ولم يتدارك بعذره وتنصله ولا محاه بتوبته وانابته راعيت حاله في المتاركة فستجده لا ينفك فيها من امور ثلاثة احدها ان يكون قد كف عن سيئ عمله واقلع عن سالف زلله فالكف احدى التوبتين والاقلاع احد العذرين فكن انت المعتذر عنه بصفحك والمتنصل له بفضلك فقد قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه المحسن على المسيئ امير والثاني ان يكون قد وقف على ما اسلف من زلله غير تارك ولا متجاوز فوقوف المرض احد البرأين وكفه عن الزيادة احدى الحسنيين وقد استبقى بالوقوف عن المتجاوز احد شطريه فعول به على صلاح شطره الآخر واياك وارجاءه فان الارجاء يفسد شطر صلاحه والتلافي يصلح شطر فساده فان من سقم من جسمه مالم يعالجه سرى السقم الى صحته وان عالجه سرت الصحة الى سقمه والثالث ان يتجاوز مع الاوقات فيزيد فيه على مرور الايام فهذا هو الداء العضال فان امكن استدراكه وتأتي استصلاحه وذلك باستنزاله عنه ان علا وبارغابه ان دنا وبعتابه ان ساوى والا فآخر الداء العياء الكى ومن بلغت به الاعذار الى غايتها فلا لائمة عليه والمقيم على شقاقه باغ مصروع . وقد قيل من سل سيف البغى اغمده في راسه فهذا شرط وما المسامحة فى الحقوق فلأن الاستيفاء موحش والاستقصاء منفر ومن اراد كل حقه من النفوس المستصعبة بشح او طمع لم يصل اليه الا بالمنافرة والمشاقة ولم يقدر عليه الا بالمخاشنة والمشاحة لما استقر فى الطباع من مقت من شاقها ونافرها وبغض من شاحها ونازعها كما استقر حب من ياسرها وسامحها فكان اليق لامور المروءة استلطاف النفوس بالمياسرة والمسامحة وتألفها بالمقاربة والمساهلة . قال بعض الحكماء من عاشر اخوانه بالمسامحة دامت له مودّاتهم . وقال بعض الادباء اذا اخذت عفو القلوب زكا ريعك وان استقصيت اكديت والمسامحة نوعان في عقود وحقوق فاما العقود فهو ان يكون فيها سهل المناجزة قليل المحاجزة

مأمون الغيبة بعيدا من المكر والخديعة . روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال أجملوا في طلب الدنيا فان كلا ميسّر لما كتب له منها . وقال صلى الله عليه وسلم الا ادلكم على شئ يحبه الله تعالى ورسوله قالوا بلى يا رسول الله قال التغابن للضعيف . وحكى ابن عون ان عمر ابن عبيدالله اشترى للحسن البصري ازارا بستة دراهم ونصف فاعطى التاجر سبعة دراهم فقال ثمنه ستة دراهم ونصف فقال انى اشتريته لرجل لا يقاسم اخاه درهما ومن الناس من يرى ان المساهلة في العقود عجز وان الاستقصاء فيها حزم حتى انه لينافس في الحقير وان جاد بالجليل الكثير كالذى حكى عن عبدالله بن جعفر وقد ماكس في درهم وهو يجود بما يجود به فقيل له في ذلك فقال ذلك مالى اجود به وهذا عقلى بخلت به وهذا انما ينساغ من اهل المروءة فى دفع ما يخادعهم به الادنياء ويغابنهم به الاشحاء وهكذا كانت حال عبدالله بن جعفر فاما مماسكة الاستنزال والاستسماح فكلّا لانه مناف للكرم ومباين للمروءة واما الحقوق فتتنوع المسامحة فيها نوعين احدهما في الاحوال والثاني في الاموال فاما المسامحة في الاحوال فهو اطراح المنازعة في الرتب وترك المنافسة في التقدم فان مُشَاحّة النفوس فيها اعظم والعناد عليها اكثر فان سامح فيها ولم ينافس كان مع اخذه بافضل الاخلاق واستعماله لاحسن الآداب اوقع في النفوس من افضاله برغائب الاموال ثم هو ازيد في رتبته وابلغ في تقدمه وان شاح فيها ونازع كان مع ارتكابه لاخشن الاخلاق واستعماله لاهجن الآداب انكى في النفوس من حد السيف وطعن السنان ثم هو اخفض للمرتبة وامنع من التقدم . حكى ان فتى من بنى هاشم تخطى رقاب الناس عند ابن ابى داود فقال يا بني ان الآداب ميراث الاشراف ولست ارى عندك من سلفك ارثا واما المسامحة فى الاموال فتتنوع ثلاثة انواع مسامحة اسقاط لعدم ومسامحة تخفيف لعجز ومسامحة انكار لعسرة وهي مع اختلاف اسبابها تفضل مأثور وتالف مشكور واذا كان الكريم قد يجود بما تحويه يده وينفذ فيه تصرفه كان أولى ان يجود بما خرج عن يده فطاب نفسا بفراقه وقد تصل المسامحة في الحقوق الى من لا يقبل البر ويأبى الصلة فيكون أحسن موقعا وازكى محلا وربما كانت المسامحة فيها آمن من رد السائل ومنع المجتدي لان السائل كما اجترأ على سؤالك فسيجترئ على سؤال غيرك ان رددته وليس كل من صار اسير حقك ورهين دينك يجد بدا من مسامحتك ومياسرتك ثم لك مع ذلك حسن الثناء وجزيل الاجر . وقال محمود الوراق رحمه الله

المرء بعد الموت احدوثة * يفنى ويبقى منه آثاره
فاحسن الحالات حال امرئ * تطيب بعد الموت أخباره

فهذه حال المياسرة (واما الافضال) فنوعان افضال اصطناع وافضال استكفاف ودفاع فاما افضال الاصطناع فنوعان أحدهما ما أسداه جودا في شكور والثانى ما تألف به نبوة نفور وكلاهما من شروط المروءة لما فيهما من ظهور الاصطناع وتكاثر الاشياع والاتباع ومن قلت صنائعه في الشاكرين واعرض عن تألف النافرين كان فردا مهجورا وتابعا محقورا ولا مروءة لمتروك مطرح ولا قدر لمحقور مهتضم . وقال عمر بن عبد العزيز ما طاوعنى الناس على شيء اردته من الحق حتى بسطت لهم طرفا من الدنيا . وقال بعض الحكماء اقلّ ما يجب للمنعم بحق نعمته ان لا يتوصل بها الى معصيته . وأنشدت لبعض الاعراب

من جمع المال ولم يَجْدُ به * وترك المال لعام جد به

* هان على الناس هوانَ كلبه *

وقال اسحق بن ابراهيم الموصلى

يبقى الثناء وتذهب الاموال * ولكل دهر دولة ورجال

ما نال محمدة الرجال وشكرهم * الا الجواد بماله المفضال

لا ترض من رجل حلاوة قوله * حتى يصدّق ما يقول فعال

فان ضاقت به الحال عن الاصطناع بماله فقد عدم من آلة المكارم عمادها وفقد من شروط المروءة سنادها فليواس بنفسه مواساة المساعف وليسعد بها اسعاد المتألف قال المتنبي

* فليسعد النطق ان لم تسعد الحال *

وان كان لايراها وان اجهدها الا تبعا للمفضلين قليلة بين المكثرين فان الناس لا يساوون بين المعطى والمانع ولا يقنعهم القول دون الفعل ولا يغنيهم الكلام عن المال ويرونه كالصدى ان رد صوتا لم يجد نفعا كما قال الشاعر

يجود بالوعد ولكنه * يدهن من قارورة فارغه

فكل ما خرج عندهم عن المال كان فارغا وكل ما عدا الافضال به كان هينا وقد قدمنا من القول في شروط الافضال ما أقنع وأما افضال الاستكفاف فلان ذا الفضل لا يعدم حاسد نعمة ومعاند فضيلة يعتريه الجهل باظهار عناده ويبعثه اللؤم على البذى بسفهه فان غفل عن استكفاف السفهاء وأعرض عن استدفاع اهل البذاء صار عرضه هدفا للمثالب وحاله عرضة للنوائب واذا استكف السفيه واستدفع البذى صان عرضه وحمى نعمته . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ما وقى به المرء عرضه فهو صدقة . وقالت عائشة رضى الله عنها ذبوا باموالكم عن احسابكم وامتدح رجل الزهرى فاعطاه قميصه فقال له رجل أتعطى

على كلام الشيطان فقال من ابتغى الخير اتقى الشر ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم من أراد بر الوالدين فليعط الشعراء وهذا صحيح لان الشعر ساتر يستر به ما ضمن من مدح او هجاء ومن أجل ذلك قيل لا تواخ شاعرا فانه يمدحك بثمن ويهجوك مجانا ولاستكفاف السفهاء بالافضال شرطان أحدهما ان يخفيه حتى لا ينتشر فيه مطامع السفهاء فيتوصلون الى اجتذابه بسببه والى ماله بثلبه والثاني ان يتطلب له فى المجاملة وجها ويجعله في الافضال عليه سببا لانه لا يرى انه على السفه واستدامة البذاء واعلم أنك ما حييت ملحوظ المحاسن محفوظ المساوى ثم ان بعد ذلك حديث منتشر لا يراقبك صديق ولا يحامي عنك شقيق فكن احسن حديث ينشر يكن سعيك في الناس مشكورا وأجرك عند الله مذخورا .

فقد روى زياد بن الجراح عن عمر بن ميمون انه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اغتنم خمسا قبل خمس شبابك قبل هرمك وصحتك قبل سقمك وغناك قبل فقرك وفراغك قبل شغلك وحياتك قبل موتك فهذا ما اقتضاه هذا الفصل من شروط المروءة وان كان كل كتابنا هذا من شروطها وما اتصل بحقوقها والله سبحانه وتعالى أعلم

﴿ الفصل الثامن في آداب منثورة ﴾ اعلم ان الآداب مع اختلافها بتنقل الاحوال وتغير العادات لا يمكن استيعابها ولا يقدر على حصرها وانما يذكر كل انسان ما بلغه الوسع من آداب زمانه واستحسن بالعرف من عادات دهره ولو امكن ذلك لكان الاول قد اغنى الثاني عنها والمتقدم قد كفى المتأخر تكلفها وانما حظ الاخير ان يتعانى حفظ الشادر وجمع المفترق ثم يعرض ما تقدم على حكم زمانه وعادات وقته فيثبت ما كان موافقا وينفى ما كان مخالفا ثم يستمد خاطره في استنباط زيادة واستخراج فائدة فان أسف بشئ فاز بدركه وحظى بفضيلته ثم يعبر عن ذلك كله بما كان مألوفا من كلام الوقت وعرف اهله فان لاهل كل وقت في الكلام عادة تؤلف وعبارة تعرف ليكون اوقع في النفوس واسبق الى الافهام ثم يرتب ذلك على اوائله ومقدماته ويثبته على اصوله وقواعده حسبما يقتضيه الجنس فان لكل نوع من العلوم طريقة هى أوضح مسلكا وأسهل مأخذا فهذه خمسة شروط هي حظ الاخير فيما يعانيه وكذلك القول في كل تصنيف مستحدث ولولا ذلك لكان تعاطى ما تقدم به الاول عناء ضائعا وتكلفا مستهجنا ونرجو الله ان يمدنا بالتوفيق لتأدية هذه الشروط وتنهضنا المعونة بتوفية هذه الحقوق حتى نسلم من ذم التكلف ونبرأ من عيوب التقصير وان كان اليسير مغفورا والخاطئ معذورا فقد قيل من صنف كتابا فقد استهدف فان احسن فقد استعطف وان أساء فقد استقذف وقد مضت ابواب تضمنت فصولا رأيت اتباعها بما لم احب الاخلال به

فمن ذلك حال الانسان في مأكله ومشربه فان الداعى الى ذلك شيئان حاجة ماسة وشهوة باعثة فاما الحاجة فتدعو الى ما سد الجوع وسكن الظمأ وهذا مندوب اليه عقلا وشرعا لما فيه من حفظ النفس وحراسة الجسد ولذلك ورد الشرع بالنهي عن الوصال بين صوم اليومين لانه يضعف الجسد ويميت النفس ويعجز عن العبادة وكل ذلك يمنع منه الشرع ويدفع عنه العقل وليس لمن منع نفسه قدر الحاجة حظ من بر ولا نصيب من زهد لان ماحرمها من فعل الطاعات بالعجز والضعف أكثر ثوابا واعظم اجرا اذ ليس فى ترك المباح ثواب يقابل فعل الطاعات واتيان القرب ومن اخسر نفسه ربحا موفورا أو احرمها أجرا مذخورا كان زهده في الخير اقوى من رغبته ولم يبق عليه من هذا التكليف الا الشهوة بريائه وسمعته واما الشهوة فتتنوع نوعين شهوة في الاكثار والزيادة وشهوة في تناول الالوان الملذة فاما النوع الاول وهو شهوة الزيادة على قدر الحاجة والاكثار على مقدار الكفاية فهو ممنوع منه في العقل والشرع لان تناول ما زاد على الكفاية نهم معر وشره مضر . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال اياكم والبطنة فانها مفسدة للدين مورثة للسقم مكسلة عن العبادة وقال على رضى الله عنه ان كنت بطنا فعد نفسك زمنا . وقال بعض البلغاء أقلل طعاما تحمد مناما . وقال بعض الادباء الرعب لؤم والنهم شؤم . وقال بعض الحكماء أكبر الدواء تقدير الغذاء . وقال بعض الشعراء

فكم من لقمة منعت اخاها * بلذة ساعة أكلات دهر
وكم من طالب يسعى لامر * وفيه هلاكه لو كان يدري

وقال آخر

كم دخلت اكلة حشا شره * فاخرجت روحه من الجسد
لا بارك الله في الطعام اذا * كان هلاك النفوس في المعد

ورب اكلة هاضت آكلا واحرمته مآكل . روى ابو يزيد المدني عن عبد الرحمن بن المرقع قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله لم يخلق وعاء ملئ شرمن بطن فان كان لابد فاعلا فاجعلوا ثلثا للطعام وثلثا للشراب وثلثا للريح واما النوع الثانى وهو شهوة الاشياء الملذة ومنازعة النفوس الى طلب الانواع الشهية فمذاهب الناس في تمكين النفس فيها مختلفة فمنهم من يرى ان صرف النفس عنها اولى وقهرها عن اتباع شهواتها احرى ليذل له قيادها ويهون عليه عنادها لان تمكينها وما تهوى بطر يطغى وأشر يردى لان شهواتها غير متناهية فاذا اعطاها المراد من شهوات وقتها تعدتها الى شهوات قد استحدثتها فيصير الانسان اسير

شهوات لا تنقضى وعبد هو لا ينتهى ومن كان بهذه الحال لم يرج له صلاح ولم يوجد فيه فضل . وانشدت لابى الفتح البستى

يا خادم الجسم كم تشقى بخدمته * لتطلب الربح مما فيه خسران
أقبل على النفس واستكمل فضائلها * فانت بالنفس لا بالجسم انسان

وللحذر من هذه الحال ما حكى ان ابا حزم رحمه الله كان يمر على الفاكهة فيشتهيها فيقول موعدك الجنة وقال آخر تمكين النفس من لذاتها أولى واعطاؤها ما اشتهت من المباحات أحرى لما فيه من ارتياح النفس بنيل شهواتها ونشاطها بادراك لذاتها فتنحسر عنها ذلة المقهورة وبلادة المجبور ولا تقصر عن درك ولا تعصى في نهضة ولا تكل عن استعانة وقال آخرون بل توسط الامرين اولى لان في اعطائها كل شهواتها بلادة والنفس البليدة عاجزة وفي منعها عن البعض كف لها عن السلاطة وفى تمكينها من البعض حسم لها عن البلادة وهذا لعمري اشبه المذاهب بالسلام لان التوسط في الامور احمد واذ قد مضى الكلام في المأكول والمشروب فينبغي ان يتبع بذكر الملبوس . اعلم ان الحاجة وان كانت في المأكول والمشروب أدعى فهى الى الملبوس ماسة وبها اليه فاقة لما في الملبوس من حفظ الجسد ودفع الاذى وستر العورة وحصول الزينة قال الله تعالى يا بني آدم قد انزلنا عليكم لباسا يواري سوآتكم وريشا ولباس التقوى ذلك خير فمعني قوله انزلنا عليكم لباسا اى خلقنا لكم ماتلبسون من الثياب يوارى سوآتكم اى يستر عوراتكم وسميت العورة سواة لانه يسوء صاحبها انكشافها من جسده وقوله وريشا فيه اربعة تأويلات احدها انه المال وهو قول مجاهد والثانى انه اللباس والعيش والنعم وهو قول ابن عباس رضى الله عنهما والثالث أنه المعاش وهو قول معبد الجهنى والرابع انه الجمال وهو قول عبد الرحمن بن زيد وقوله ولباس التقوي فيه ستة تأويلات أحدها أن لباس التقوى هو الايمان وهو قول قتادة والسدى والثاني انه العمل الصالح وهو قول ابن عباس رضى الله عنهما والثالث انه السمت الحسن وهو قول عثمان بن عفان رضى الله عنه والرابع هو خشية الله تعالى وهو قول عروة ابن الزبير والخامس انه الحياء وهذا قول معبد الهنى والسادس هو ستر العورة وهذا قول عبد الرحمن بن زيد وقوله ذلك خير فيه تأويلان احدهما ان ذلك راجع الى جميع ماتقدم من قوله قد انزلنا عليكم لباسا يوارى سوآتكم وريشا ولباس التقوى ثم قال ذلك خير اى ذلك الذي ذكرته خير كله والثاني ان ذلك راجع الى لباس التقوى ومعنى الكلام وان لباس التقوى خير من الرياش واللباس وهذا قول قتادة والسدى فلما وصف الله تعالى حال اللباس

وأخرجه مخرج الامتنان علم أنه معونة منه لشدة الحاجة اليه واذا كان كذلك ففى اللباس ثلاثة اشياء أحدها دفع الاذى والثانى ستر العورة والثالث الجمال والزينة فاما دفع الاذى به فواجب بالعقل لان العقل يوجب دفع المضار واجتلاب المنافع وقد قال الله تعالى والله جعل لكم مما خلق ظلالا وجعل لكم من الجبال اكنانا وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر وسرابيل تقيكم بأسكم فاخبر بحالها ولم يأمر بها اكتفاء بما يقتضيه العقل واستغناء بما يبعث عليه الطبع ويعنى بالظلال الشجر وبالاكنان جمع كن وهو الموضع الذي يستكن فيه ويعنى بقوله سرابيل تقيكم الحر ثياب القطن والكتان والصوف وبقوله وسرابيل تقيكم باسكم الدروع التى تقى البأس وهو الحرب فان قيل كيف قال تقيكم الحر ولم يذكر البرد وقال جعل لكم من الجبال اكنانا ولم يذكر السهل فعن ذلك جوابان احدهما ان القوم كانوا أصحاب جبال وخيام فذكر لهم الجبال وكانوا اصحاب حر دون برد فذكر لهم نعمته عليهم فيما هو مختص بهم وهذا قول عطاء والجواب الثاني انه اكتفاء بذكر أحدهما عن ذكر الآخر اذ كان معلوما ان السرابيل التي تقى الحر ايضا تقى البرد ومن اتخذ من الجبال أكنانا اتخذ من السهل وهذا قول الجمهور وأما ستر العورة فقد اختلف الناس فيه هل وجب بالعقل أو بالشرع فقالت طائفة وجب سترها بالعقل لما فى ظهورها من القبح وما كان قبيحا فالعقل مانع منه ألا ترى ان آدم وحواء لما أكلا من الشجرة التي نهيا عنها بدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة تنبيها لعقولهما في ستر ما رأياه مستقبحا من سوآتهما لانهما لم يكونا قد كلفا ستر مالم يبد لهما ولا كلفاه بعد أن بدت لهما وقبل سترها وقالت طائفة أخرى بل ستر العورة واجب بالشرع لانه بعض الجسد الذى لا يوجب العقل ستر باقيه وانما اختصت العورة بحكم شرعى فوجب ان يكون ما يلزم من سترها حكما شرعيا وقد كانت قريش واكثر العرب مع ما كانوا عليه من وفور العقل وصحة الالباب يطوفون بالبيت عراة ويحرمون على نفوسهم اللحم والودك ويرون ذلك ابلغ في القربة وانما القرب ما استحسنت في العقل حتي انزل الله تعالى يابني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين يعني بقوله خذوا زينتكم الثياب التى تستر عوراتكم وكلوا واشربوا ما حرمتموه على انفسكم من اللحم والودك وفى قوله تعالى ولا تسرفوا تأويلان أحدهما لا تسرفوا في التحريم وهذا قول السدى والثاني لا تأكلوا حراما فانه اسراف وهذا قول ابن زيد فاوجب بهذه الآية ستر العورة بعد أن لم يكن العقل موجبا له فدل ذلك على ان سترها وجب بالشرع دون العقل وأما الجمال والزينة فهو مستحسن بالعرف والعادة من غير ان يوجبه عقل او شرع وفى هذا النوع قد يقع التجاوز

والتقصير والتوسط المطلوب فيه معتبر من وجهين أحدهما في صفة الملبوس وكيفيته والثانى في جنسه وقيمته فاما صفته فمعتبرة بالعرف من وجهين أحدهما عرف البلاد فان لاهل المشرق زيا مألوفا ولاهل المغرب زيا مألوفا وكذلك لما بينهما من البلاد المختلفة عادات في اللباس مختلفة والثاني عرف الاجناس فان للاجناد زيا مألوفا وللتجار زيا مألوفا وكذلك لمن سواهما من الاجناس المختلفة عادات في اللباس وانما اختلفت عادات الناس في اللباس من هذين الوجهين ليكون اختلافهم سمة يتميزون بها وعلامة لا يخفون معها فان عدل احد عن عرف بلده وجنسه كان ذلك منه خرقا وحمقا ولذلك قيل العرى الفادح خير من الزى الفاضح وأما جنس الملبوس وقيمته فمعتبر من وجهين احدهما بالمكنة من اليسار والاعسار فان للموسر في الزى قدرا وللمعسر دونه والثانى بالمنزلة والحال فان لذى المنزلة الرفيعة فى الزى قدرا وللمنخفض عنه دونه ليتفاضل فيه على حسب تفاضل احوالهم فيصيروا به متميزين فان عدل الموسر الى زي المعسر كان شحا وبخلا وان عدل الرفيع الى زى الدنيء كان مهانة وذلا وان عدل المعسر الى زى الموسر كان تبذيرا وسرفا وان عدل الدنيء الى زى الرفيع كان جهلا وتخلفا ولزوم العرف المعهود واعتبار الحد المقصود ادل على العقل وامنع من الذم ولذلك قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه اياكم لبستين لبسة مشهورة ولبسة محقورة . وقال بعض الحكماء البس من الثياب مالا يزدريك فيه العظماء ولا يعيبوه عليك الحكماء . وقال بعض الشعراء

انّ العيون رمتك اذ فاجأتها * وعليك من شهر الثياب لباس
اما الطعام فكل لنفسك ما تشا * واجعل لباسك ما اشتهاه الناس

واعلم ان المروءة ان يكون الانسان معتدل الحال في مراعاة لباسه من غير اكثار ولا اطراح فان اطراح مراعاتها وترك تفقدها مهانة وذل وكثرة مراعاتها وصرف الهمة الى العناية لها دناءة ونقص وربما توهم بعض من خلا من فضل وعرى عن تميز ان ذلك هو المروءة الكاملة والسيرة الفاضلة لما يرى من تميزه بذلك عن الاكثرين وخروجه عن جملة العوام المسترذلين وخفى عليه انه اذا تعدى طوره وتجاوز قدره كان اقبح لذكره وابعث على ذمه فكان كما قال المتنبي

لا تعجبن مضيما حسن بزته * وهل يروق دفينا جودة الكفن

وحكى المبرد ان رجلا من قريش كان اذا اتسع لبس أرَثّ ثيابه واذا ضاق لبس احسنها فقيل له في ذلك فقال اذا اتسعت تزينت بالجود واذا ضقت فبالهيئة . وقد اتى ابن الرومى بابلغ من هذا المعنى في شعره فقال

وما الحلى الا زينة لنقيصة * يتمم من حسن اذا الحسن قصرا

فاما اذا كان الجمال موفرا * لحسنك لم يحتج الى أن يزورا

ولذلك قالت الحكماء ليست العزة في حسن البزة . وقال بعض الشعراء

وترى سفيه القوم يدنس عرضه * سفها ويمسح نعله وشراكه

واذا اشتد كلفه بمراعاة لباسه قطعه ذلك عن مراعاة نفسه وصار الملبوس عنده انفس وهو على مراعاته أحرص . وقد قيل في منثور الحكم البس من الثياب ما يخدمك ولا يستخدمك . وقال خالد بن صفوان لاياس بن معاوية أراك لا تبالى ما لبست فقال ألبس ثوبا أقى به نفسي أحب الىّ من ثوب أقيه بنفسى فكما انه لا يكون شديد الكلف بها فكذلك لا يكون شديد الاطراح لها فقد حكى عن ابن عائشة أن رجلا جاء الى النبي صلى الله عليه وسلم فنظر اليه رث الهيئة فقال ما مالك قال من كل المال قد اتاني الله فقال ان الله تعالى يحب اذا انعم على امرئ نعمة ان ينظر الى أثرها عليه وقد قيل المروءة الظاهرة في الثياب الطاهرة وهكذا القول في غلمانه وحشمه ان اشتد كلفه بهم صار عليهم قيما ولهم خادما وان اطرحهم قل رشادهم وظهر فسادهم فصاروا سببا لمقته وطريقا الى ذمه لكن يكفهم عن سيئ الاخلاق ويأخذهم باحسن الآداب ليكونوا كما قال فيهم الشاعر

سهل الفناء اذا مررت ببابه * طلق اليدين مؤدب الخدام

وليكن فى تفقد احوالهم على ما يحفظ تجمله ويصون مبتذله . فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ادّهنوا يذهب البؤس عنكم وألبسوا تظهر نعمة الله عليكم وأحسنوا الى مماليككم فانه اكبت لعدوكم وليتوسط فيهم ما بين حالتى اللين والخشونة فانه ان لان هان عليهم وان خشن مقتوه وكان على خطر منهم . حكى ان الموبذ سمع ضحك الخدام فى مجلس انوشروان فقال أما تمنع هؤلاء الغلمان فقال انوشروان انما بهم يهابنا أعداؤنا . وقال ابو تمام الطائى

حشم الصديق عيوبهم بحائة * لصديقه عن صدقه ونفاقه

فلينظرن المرء من غلمانه * فهم خلائفه على اخلاقه

واعلم ان للنفس حالتين حالة استراحة ان حَرَمتَها اياها كلت وحالة تَصَرُّف ان ارحتها فيها تخلت فالاولى بالانسان تقدير حاليه حال نومه ودعته وحال تصرفه ويقظته فان لهما قدرا محدودا وزمانا مخصوصا يضر بالنفس مجاوزة احدهما وتغير زمانهما فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال نومة الصبحة معجزة منفخة مكسلة مورمة مفشلة منسأة للحاجة . وقال عبدالله بن عباس رضى الله عنهما النوم ثلاثة نوم خرق وهي الصبحة ونوم خلق وهي القائلة ونوم حمق وهو العشي وقد روى محمد بن يزدان عن ميمون بن مهران

عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم نوم الضحى خرق والقيلولة خلق ونوم العشى حمق . وقيل في منثور الحكم من لزم الرقاد عدم المراد فاذا أعطي النفس حقها من النوم والدعة واستوفى حقه بالتصرف واليقظة خلص بالاستراحة من عجزها وكلالها وسلم بالرياضة من بلادتها وفسادها . وحكى ان عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز دخل على أبيه فوجده نائما فقال يا أبت أتنام والناس بالباب فقال يا بني نفسي مطيتي وأكره ان أتعبها فتقوم بي وينبغي ان يقسم حالة تصرفه ويقظته على المهم من حاجاته فان حاجة الانسان لازمة والزمان يقصر عن استيعاب المهم فكيف به ان تجاوز الى ما ليس بمهم هل يكون الا

كتاركة بيضها بالعراء * وملبسة بيض اخرى جناحا

ثم عليه ان يتصفح في ليله ما صدر من افعال نهاره فان الليل اخر للخاطر واجمع للفكر فان كان محمودا أمضاه واتبعه بما شاكله وضاهاه وان كان مذموما استدركه ان امكن وانتهى عن مثله في المستقبل فانه اذا فعل ذلك وجد أفعاله لا تنفك من اربعة احوال اما ان يكون قد اصاب فيها الغرض المقصود بها او يكون قد اخطأ فيها فوضعها في غير موضعها او يكون قصر فيها فنقصت عن حدودها او يكون قد زاد فيها حتى تجاوزت محدودها وهذا التصفح انما هو استظهار بعد تقديم الفكر قبل الفعل ليعلم به مواقع الاصابة وينتهز به استدراك الخطأ وقد قيل من كثر اعتباره قل عثاره وكما يتصفح احوال نفسه فكذا يجب ان يتصفح احوال غيره فربما كان استدراكه الصواب منها أسهل بسلامة النفس من شبهة الهوى وخلو الخاطر من حسن الظن فان ظفر بصواب وجده من غيره او اعجبه جميل من فعله زين نفسه بالعمل به فان السعيد من تصفح افعال غيره فاقتدى باحسنها وانتهى عن سيئها . وقد روى زيد بن خالد الجهني عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال السعيد من وعظ بغيره . وقال الشاعر

ان السعيد له من غيره عظة * وفي التجارب تحكيم ومعتبر

وانشدني بعض اهل العلم لطاهر بن الحسن

اذا أعجبتك خصال امرئ * فكنه يكن منك ما يعجبك

فليس على المجد والمكرمات * اذا جئتها حاجب يحجبك

فاما ما يرومه من اعماله ويؤثر الاقدام عليه من مطالبه فيجب ان يقدم الفكر فيه قبل دخوله فان كان الرجاء فيه أغلب من الاياس منه وحمدت العاقبة فيه سلكه من اسهل مطالبه والطف جهاته وبقدر شرفه يكون الاقدام وان كان الاياس اغلب عليه من الرجاء مع شدة التغرير ودناءة الامر المطلوب فليحذر ان يكون له متعرضا فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال

اذا هممت بامر ففكر في عاقبته فان رشدا فامضه وان كان غيا فانته عنه . وقالت الحكماء طلب ما لا يدرك عجز . وقال بعض الشعراء

فاياك والامر الذي ان توسعت * موارده ضاقت عليك المصادر

فما حسن أن يعذر المرء نفسه * وليس له من سائر عاذر

وليعلم ان لكل حين من ايام عمره خلقا وفى كل وقت من اوقات دهره عملا فان تخلق في كبره باخلاق الصغر وتعاطي افعال الفكاهة والبطر استصغره من هو اصغر وحقره من هو اقل وأحقر . وكان كالمثل المضروب بقول الشاعر

وكل باز يمسه هرم * تخرا على راسه العصافير

فكن ايها العاقل مقبلا على شانك راضيا على زمانك سلما لاهل دهرك جاريا على عادة عصرك منقادا لمن قدمه الناس عليك متحننا على من قدمك الناس عليه ولا تباينهم بالعزلة عنهم فيمقتوك ولا تجاهرهم بالمخالفة لهم فيعادوك فانه لا عيش لممقوة ولا راحة لمعادي . وانشد بعض اهل الادب لبعضهم

اذا اجتمع الناس فى واحد * وخالفهم في الرضا واحد

فقد دل اجماعهم دونه * على عقله انه فاسد

واجعل نصح نفسك غنيمة عقلك ولا تداهنها باخفاء عيبك واظهار عذرك فيصير عدوك احظى منك فى زجر نفسه بانكارك ومجاهرتك من نفسك التى هي اخص بك لاغرائك لها باعذارك ومساءتك فحسبك سوأ رجل ينفع عدوه ويضر نفسه . وقال بعض الحكماء اصلح نفسك لنفسك يكن الناس تبعا لك . وقال بعض البلغاء من اصلح نفسه ارغم انف اعاديه ومن اعمل جده بلغ كنه امانيه . وقال بعض الادباء من عرف معابه فلا يلم من عابه وانشدنى ابو ثابت النحوي لبعض الشعراء

ومصروفة عيناه عن عيب نفسه * ولو بان عيب من اخيه لأبصرا

ولو كان ذا الانسان ينصف نفسه * لأمسك عن عيب الصديق وقصرا

فهذب ايها الانسان نفسك بافكار عيوبك وانفعها كنفعك لعدوك فان من لم يكن له من نفسه واعظ لم تنفعه المواعظ اعاننا الله واياك على القول بالعمل وعلى النصح بالقبول وحسبنا الله وكفى

بحمد من بين الرشد من الغيّ * ولم يفرّط في الكتاب من شئ

تم طبع كتاب أدب الدنيا والدين للعلامة أبي الحسن على الماوردى البصرى بهجة المحققين وهو الكتاب الجامع لفرائد الآداب الغنى بشهرته عن المدح والاطناب الجدير بنشر عرفه على عموم البرية لتتخلق بما فيه من الاخلاق المرضية على ذمة ملتزمه حضرة امين افندى هنديه بمطبعته الكائنة في غيط النوبى بدرب الجنينة (بمصر) في ظل من ازدهت به المعارف ورفل في ظلال رياضها كل لبيب عارف حامى حمى الديار المصرية ونخبة سلالة العائلة المحمدية

الذي ليس له في معاليه مدانى ﴿ خديوينا المعظم عباس باشا حلمى الثانى ﴾

لا زالت ألوية المعارف بحسن التفاته منشورة ومساعيه الخيرية في

رفع منار العوارف مشكورة ما لاح بدر التمام وفاح

مسك الختام وذلك في شهر جمادى الثانى

سنة الف وثلثمائة وخمسة عشر

هجرية على صاحبها افضل

الصلاة وأذكى

التحية

ARNOLD
UNIVERSITY
LIBRARY

مطبعة هنديه

(في غيط النوبي بحارة درب الجنينة بمصر)

قد افتتحنا بحول الله تعالى مطبعة كبيرة تشتمل على ادوات كاملة ومعدات تامة لطبع جرنالات يومية واسبوعية وكتب وكراريس وشيركولاري واعلانات وكونتراتات وكمبيالات ودفاتر بقسائم واستمارات بجداول ونمر لوازم الدوائر الميرية والادارات الافرنجيـة وجوابات وظروف وغلافات ووصولات واوراق زيارة وغيرها يطبع كل ذلك بالعربي والفرنساوي والتركي والانكليزي والطلياني بحروف لطيفة متنوعة واشكال ظريفة متعددة من مصنوع الاستانة العلية وسورية اما الاسعار فهي معتدلة للغاية بحيث انها تنقص ٢٠ في المائة عن سائر المطابع فمن اراد تشريفنا بخدمته فليخابرنا

أمين ونجيب هنديه اخوان

اعلان

نعلن للجمهور انه قد ظهرت نتيجتنا (الرزنامه) الجديدة عن سنة ١٨٩٨ افرنجية المقبلة المشهورة باربعة ألسن تعلق بالحيطان وقد اضفنا عليها هذه السنة التاريخ القبطي فصارت تحتوي على التواريخ الاربع وهي الافرنجي والعربي والقبطي والرومي وعدا ذلك فان اسماء الأيام والشهور محررة بالافرنجي والعربي بحيث ان الذى لا يعرف اللغة الافرنجية يمكنه ان يعرف التاريخ الافرنجي ايضاً واننا نبيعها بسعر الواحدة غرشان وللخارج بغرشين ونصف فباع

COLUMBIA UNIVERSITY LIBRARIES

This book is due on the date indicated below, or at the expiration of a definite period after the date of borrowing, as provided by the rules of the Library or by special arrangement with the Librarian in charge.

DATE BORROWED	DATE DUE	DATE BORROWED	DATE DUE
30 Sep	4 Jun '46		

C28(1140)M100

893.7 M44 P3
Māwardī
893.7M44 P3
APR 30 194

COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE
CU07815077

TAIBAH

ADAB

DUNYA

893.7M44 + P3